إعلام الفضائح

الإعلام التضليلي

دور الدعاية والإعلان الغربية في تشويه صورة الإسلام

عبد الحليم حمود

ON OFF

الطبعة الأولى 2010 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف/ المعد

إعداد ونشر

ON OFF مركز الدراسات و الترجمة- إشراف عبدالحليم حمود.
هاتف: 477970 1 961+ بيروت ـ لبنان

توزيع

دار المؤلف Dar Al-Mouallef هاتف: 823720 1 961+ فاكس: 825815 1 961+
ص.ب: 13/5687 بيروت ـ لبنان

الكتاب

التضليل سمة من سمات الإعلام، وهي ليست تهمة بل أمر واقع له مبرراته العلمية، فكلمة إعلام أو إعلان تفترض في أولى تعريفاتها الإخبار والتحليل ونقل الواقع بحسب منطلقات الإعلامي. فما هو صواب بالنسبة له، هو الخطأ بالنسبة لخصمه، ذلك أن أكثر المادة الإعلامية تحمل جرعات من الإيديولوجيا، أو المنطلقات الفكرية الخاصة إذا ما أردنا تبسيط المعنى.

إذاً التضليل وتقديم الواقع على غير حقيقته هي أمور نسبية تختلف معاييرها بين مؤسسة إعلامية وأخرى، أو بين إعلامي وآخر، غير أن التضليل الغربي الذي صوّر الإسلام على غير حقيقته، كان له الواقع الضخم والتأثير الناجع نظراً لتوفر شروط التضليل، كحجم الإنفاق المادي على وسائل الإعلام الغربية ومروحة تأثيرها في العالم، إضافة إلى حضور الخبراء ومراكز الدراسات، وكذلك هناك الجذور التاريخية التي تبلورت مع الاستشراق، عدى عن الهدايا المجانية التي يقدمها بعض المتطرفين الذين اعتمدوا الإرهاب وسيلة مركزية في حركتهم.

من هنا، تقدم صفحات هذا الكتاب مساحة واسعة من القرائن والمعلومات التي تفضح الإعلام الغربي وبعض «مفكريه» الذين لا يكلّون من تشويه صورة المسلم ومعتقده.

فبركة
الصورة النمطية

تاريخ الاستشراق
الذي لم يكن يوماً إلا في المخيلة

يقول هاني درويش في ملحق نوافذ (يصدر مع صحيفة المستقبل):

لم يكن الاستشراق يوماً استشراقاً، بمعنى أنه لم يكن، في ما تعني اللغة، ارتحالاً من وجهة ثابتة نحو الشرق. هكذا علّق صديق مقرَّب فيما كنت أناقش معه بعضاً من أفكار ذلك الكتاب الساحر «تاريخ الاستشراق وسياساته... الصراع على تفسير الشرط الأوسط» لزكاري لوكمان الصادر حديثاً عن «دار الشروق» في ترجمة بديعة للباحث السياسي المتميز شريف يونس. أحدِّد من البداية أنه مناقشة لبعض أفكاره لأن مجمل هذه الرحلة التي يقدمها الأستاذ البارز في قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة نيويورك تمور بالكثير من النقاط التي لا بدَّ من التوقف عندها طويلاً. فالكتاب، كما يبدو من عنوانه الدال، يمثل تاريخاً للمصطلح عبر رحلة اكتشاف الغرب للشرق، وهي الرحلة التي يؤكد المؤلف أنها رحلة ذهنية سافرت في خيالها نحو الشرق أكثر مما سافرت واقعياً إليه. فالشرق الذي يتحدث عنه زكاري لوكمان ليس الإسلام وحده، هو أي بقعة خارج مركزية الرؤى الأوروبية للعالم، مركزية اكتشفت مبكراً موقعها كهوية شبه مميزة في مواجهة غير

الجغرافي مرة، والديني مرة، ثم غير الحضاري مرات. لذا تبدو الرحلة في تاريخ الاستشراق رحلة في تلافيف العقل الغربي نفسه وهو يحيط قرناً تلو الآخر هويته بذلك السياج من المعرفة بالذات الذي يضع في داخله منجزاً بشرياً ضخماً من الإيجابيات، فيما يرمي خلفه ملقياً على غيره ـ الآخر ـ كل مثالب البشر، وهو ما يجعل الاستشراق أكثر من مجرد بحث يخصنا نحن كموضع لمثالب البشر، يجعله ساحة مشرّعة على صراع من الهويات التي تحاول إحداها فرض تصوراتها على الجميع، وهي التصورات نفسها التي تسللت بخبث شديد حتى إلى داخل نخب من المثقفين وأصبحت منطلقاً ثابتاً لخطاب تمايزهم الفكري في صراعهم مع الآخر (الاستشراقي).

خطاب المركزية الأوروبية خطاب متأصل في عقل الأوروبيين حتى قبل إدراكهم لكونهم أوروبيين. فاليونان القديمة التي قدمت فلسفتها وعلومها وأصبحت ركيزة أساسية في مسيرة تراكم إحساس الأوروبيين بمركزيتهم، لعبت منذ البداية دوراً في تنقية مفهوم الهوية الأوروبية من الأغيار. لم تعترف يوماً ـ وقد جاء الاعتراف متأخراً جداً ـ بأن نموها كشعلة حضارية هو نتاج بلورتها لحضارات ما بين النهرين والحضارة الفرعونية، بل إنها مارست نفس الإقصاء المتعمد لجيرانها الأوروبيين مرة باسم متوسطية موقعها بين الشعوب الباردة الجاهلة شمالاً والشعوب الحامية الكسولة جنوباً، ومرات باسم ديموقراطية نظامها السياسي الذي أكدّ باحثون كثر لاحقاً زيف ادعائه حين حلل المجتمع اليوناني الطبقي القائم على ثنائية العبد والحر التاريخية.

ترتحل إذن تلك النواة الصلبة من لحظة اليونان الفارقة أوروبياً لتمارس، منذ تلك اللحظة، تمحورها عبر التاريخ ككل ثابت فيما كل ما عداها ثابت في دونيته. تأتي المسيحية لتعطي للمسحة الجغرافية الاستعلائية بعدها الديني فتقسم العالم توراتياً إلى أبناء يافث (الأوروبيون) الذين لا بدَّ لهم من الانتصار على أبناء سام (في آسيا) وأبناء حام (في إفريقيا). وحتى حين تتنافس أوروبا على خطاب هويتها ذاته مع انقسام العالم المسيحي إلى كنيستين إحداهما شرقية وأخرى غربية، يتم إلصاق عيوب الشرق المأفون بالكنيسة الشرقية لمجرد مجاورته لهذا الشرق الغرائبي، ويتحوّل الفخر الأثيني إلى عيب ومذلة يتم إلصاقها بالكنيسة الشرقية ليتصاعد نحت التمايز الغرب شرقي حتى في داخل أوروبا.

يتمدد العالم جغرافياً من حول المركزية الجغرافية الأوروبية ويبقى الشرق شرقاً حتى مع اكتشاف أعماق آسيا وقلب إفريقيا وظهور البحر المتوسط كبركة صغيرة يتضخم من حولها العالم. ومع ظهور الإسلام في الجار الشرقي القريب البعيد تستمر مرحلة الجهل العمدي به، تظهر حتى ـ كما يوضح زكاري ـ في التسمية، ساراسيون أم هاجريون أم إسماعيليون؟ ديانة توحيدية أم ثالوث وثني أم وثنيون أصفياء؟، حتى من رحلوا إلى هذا العالم بغرض التجارة أو الرحلة قدموا منه بحكايات تثبت غرائبية هذا الجار النامي باطراد، تجعله ذلك الآخر الدوني العجيب في وعي النخب كما في وعي الخطاب الشعبي. وفيما أوروبا تدخل في غياهب عصورها الوسطى المظلمة وينمو الجار الإسلامي

قارعاً بصهيل أحصنته وقرقعة سيوفه أبواب مناطق المسيحية في أقاليم الإمبراطورية الرومانية المتحللة، تبدو الإمبراطورية المسيحية الغربية شامتة في جارتها الشرقية المتحللة، بل يرى مثقفو الغرب المسيحي أن في انتقام الشرق الإسلامي المتخلّف من الشرق المسيحي المتخلّف هو الآخر معركة بين شرقين متخلفين. وحتى مع تحور المفهوم الشرقي الفارسي المبهر والسحري، لكن المتخلّف من جهة داخل المعنى الإسلامي بعد فتح الإسلام للإمبراطورية الفارسية، تتحول نقائص وعيوب ذلك الفارسي الذائب إلى القيمة الصافية في الحضارة الإسلامية.

يذكر لوكمان كيف أن مثقفي أوروبا الغربية استصعبوا من البداية احتساب ذلك المد الإسلامي لخصائص أصيلة في الدين المحمدي، بل إنهم عزوا التقدم المضطرد في عصر الدولة العباسية مثلاً إلى كون ملوكها هم في الباطن مسيحيون، وأن ما أنجز في عصور النهضة الإسلامية هو ببساطة نتاج حضارة فارس ذات الأصل الآري. وكأن أوروبا، حتى في لحظات ضعفها، جعلت أسباب تفوق الشرق مختومة يا للأسف بمركزية الهوية الأوروبية.

يرتحل لوكمان إذن في نصوص وحوليات وكتب رحلات وتقارير سياسية أوروبية بحثاً عن الرتوش المتراكمة عصراً تلو الآخر في صورة الشرق، التي هي في مرآة الذات الأوروبية نفياً أو إثباتاً لصورته عن ذاته. وتأتي الحملات الصليبية المتتالية نحو الشرق لتربط بين المصالح الدينية الكنسية والمصالح السياسية لأمراء أوروبا بالخيال الشعبي

للمواطنين الأوروبيين، حيث جرّدت الحملة تحت صليب الكنيسة وفقاً لما رسمه الرحّالة المأخوذون بسحر الشرق بأنهار عسله وذهبه الصافي ونسائه الشبقيات ورجاله قساة القلوب على أرض الحج المسيحي، إنها الصورة أخيراً المفصيلة في عداء باسم الصليب التقدمي في مواجهة جهالة الشرق الوثني والتي يدفع زكاري بأنها حكمت الصورة الذهنية الاستعمارية اللاحقة في تعامل أوروبا مع الشرق أو أي شرق آخر سواء في آسيا البعيدة أو في إفريقيا المجهولة أو أميركا المستكشفة بعد عصور.

لكن هزائم الحملات الصليبية لا تمنع أوروبا من اغتصاب مواطن الفخر الشرقي فها هم الأوروبيون ينسجون الأساطير حول صلاح الدين الذي هزمهم، بل ويقتنصونه من قلب سيرورة الشرق في حكايات شعبية تؤكد أنه إما ولد لأم مسيحية أو أسر بمسيحيته على فراش الموت. هذا الميكانيزم من انتزاع إيجابيات الآخر لتحسين صورة الذات سيجد أكبر دليل عليه حين تراقب أوروبا آخر ترنيمات البجعة الإسلامية ممثلة في الدولة العثمانية، حيث التأرجح بين الإعجاب الذي يعزو كل فضائلها لصفات أوروبية أصيلة والتأكيد على مثالبها التي اكتسبتها بارتباطها بالدين المحمدي. فنهضة الدولة العثمانية، كما يرى الخطاب الاستشراقي، كان على يد العبيد المسيحيين بالولادة، المجلوبين من أقاليم التوسع العثماني، وإن انهيار الدولة العثمانية جاء مع سيادة العنصر التركي شيئاً فشيئاً على تركيبة الدولة.

هنا ومع لحظة النمو لأوروبا الغربية المتمثلة في عصر نهضتها، حين

مالت الإمارات الصغيرة للتوحد في دول قومية وبزغ من قلب المرحلة الإقطاعية التحلل من سلطة الكنيسة، وجدت أوروبا نفسها أقرب لبلورة أخيرة لصورتها المثالية، صورة مفادها أنه بما أن (أننا) أنجزنا المهمة التاريخية بالتقدم والعقلانية فنحن الأولى بسيادة العالم. جغرافياً تتفتح تحت ضربات السفن التي تلف العالم فتكسر مركزية العلاقة القديمة بشرق محيط لأوروبا ـ رحلات اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند ـ وضربة حظ لمغامر آخر تكتشف العالم الجديد. هنا يؤكد زكاري لوكمان أن الخطاب الاستشراقي القديم والتقليدي كان ولا يزال أسير ذلك التعميم المدهش الذي يري في الشرق كلاً ثابتاً جوهرانياً لا يتغير بفعل الزمن أو الجغرافيا، شرق فارسي كان أو إسلامياً يجري تلخيصه في معالم ثابتة مثلما يرى في نفسه غرباً ثابتاً ممتداً منذ الحضارة اليونانية إلى ديموقراطية جورج بوش. شرق يجري الحديث فيه عن «الشخصية الإسلامية» أو «المسلم» كمفردة تجمع لا تفرق بين حضارات وأقاليم شتّى ولغات وثقافات متنوعة، فيما الغرب نفسه، بحدوده الأوروبية النامية والمرتكزة على مفهوم العرق قبل الديانة، يتسع ليشمل متناقضات أوروبا ويوحدها في مصطلح واحد هو الغرب. هذا الميل إلى التركيز على نواة صلبة لا تاريخية ومصمتة هو قلب نظرية المركزية الأوروبية المرتحلة منذ قرون والتي، فيما هي تشكل العالم وفقاً لازدواجات تعميمية مبسطة، تخلق نقيضها وتبلوره وربما تقنعه بأنه شرق، وتأتي الحداثة الصناعية والرأسمالية التي صعدت بالغرب لتؤكد هذا التمييز القسري، ويأتي العلم المكتشف في نهضته الكبرى ليدفع

بالهوية الأوروبية إلى أقصى تطرفاتها تمايزاً. فطالما استطاعت أوروبا إنجاز هذه النقلة دون غيرها ـ دون أن تدري كذلك أنها على حساب غيرها بالأساس ـ فهي، بالسليقة، تحتوي على صفات نقية دفعتها لإنجاز مشروع الحضارة الحديثة. وتأتي نظرية التطور لداروين والثورة الصناعية من قبلها لتلعب دوراً في تحويل التمايز في المخيلة إلى ثروات كبرى. فباسم هذا التمايز يساق العبيد من إفريقيا لخدمة التطور الرأسمالي النامي في الأمريكتين؛ وتحت حمى القناعة نفسها يجري اقتسام العالم بين الأوروبيين، هكذا يلتحم خطاب الاستشراق بالمصالح الاقتصادية ويتحول من مجرد تراكم في المخيلة الأوروبية إلى أهم أداة في مشروعها لاستعمار العالم.

وللتأكيد على عمق هذا الخطاب يسلط لوكمان الضوء على تخلل هذا الخطاب حتى بين أبناء النزعة الرومانتيكية في خطاب القرن الثامن والتاسع عشر. فصاحب «روح القوانين» أول من لفت الانتباه لمصطلح الاستبداد الشرقي، وجوته في أعماله المهووسة بالروحانية الشرقية ـ فاوست نموذجاً ـ يكرّس لغرائبية وسحر هذا البعيد القصي، ويقدم كذلك كيف تخلل هذا الخطاب الاستشراقي بنى خطاب المفكرين الماديين الجدليين كهيجل وماركس فيما عرف بتخريجة «نمط الإنتاج الآسيوي» التي وجد ماركس أنها أحد أسباب إنجاز مهمة التطور البرجوازي والرأسمالي في أوروبا وصعوبة إنجازها في آسيا أو الشرق، وهي أكثر المثالب النظرية في الوعي الماركسي الذي بدأ يبشر في هذا المنحى بضرورة وأهمية الاستعمار كمخرج لشعوب الشرق من حلقة

الاستبداد والموات الاقتصادي السياسي. ولا يعني استمرار خطاب التمايز الاستشراقي عبر مراحل التاريخ آلية منضبطة ووحيدة لرؤية الغرب بشكل قاطع، فالكاتب يورد أمثلة منذ البدايات لخطاب موازٍ وإن كان ضعيفاً وشاحباً في رؤية الغرب للشرق فيه بعض الموضوعية، وإن بقي الخط العام لخطاب الاستشراق ابناً للتعميم الأجوف والأكاذيب واللاعلمية. ومن تشكل مصطلح الاستشراق كمناخ عام لرؤية أوروبا عن نفسها إلى ظهور المصطلح بشكل علمي مؤسسي في الجامعات الأوروبية ينتقل لوكمان إلى العصر الحديث الذي ارتبط فيه علم الاستشراق بمصالح السياسة الاستعمارية بشكل مباشر، وخاصاً في العالم الأنجلو ساكسوني. فإنكلترا حكمت كثيراً من دول الشرق وأميركا تورطت بداية القرن العشرين بمصالحها في نفس الملاعب الجغرافية فظهر علم دارسات المناطق في أميركا ابناً شرعياً لمؤسسات رأسمالية كبرى أصبحت في أشد الحاجة لمتخصصين في أقاليم الخامات والاستهلاك السلعي. لذا ليس غريباً أن يكون روكفلر وفورد وكارينجي أساطير الرأسمالية الأميركية أول من دعموا مراكز الأبحاث لدراسات الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن، لكن زكاري أيضاً يشير إلى حركة المقاومة التي بدأت منذ نهاية الستينيات في تلك المراكز مع تفجر مدارس نقد الاستعمار والمركزية الأوروبية عارجاً على إدوارد سعيد وكثير من المناضلين الذين يحاولون مواجهة ذلك المصطلح الظالم لمعظم دول العالم. وتبدو الأزمة الحقيقية في تأمل هذا الكتاب الذي وجهه الباحث إلى القارىء الأميركي «العادي» أنه

يضع كثيراً من الملح على جراح القارىء العربي المتخصص. فالكثير مما احتواه يؤكد أن الغرب، فيما هو يراجع مفهوماً مؤبداً عن صورته، ننحو نحن، في طبعتنا الإسلامية والقومية، إلى التأكيد على أن الإسلام والعروبة هما ذلك الجوهر الثابت الجامد منذ قرون وكأننا نؤبد ما يفعله بنا الغرب بتصديق الصورة وتطبيقها على أنفسنا. خاصة إذا ما عرفنا حجم الهوّة التي باتت تضيق بين ما يراه الآخرون عنا وما صرنا نحتفي بدموية أسامة بن لادن على تصديقه في أنفسنا، وهو ما يؤكد خطاب الاستشراق يواجهه خطاب استغراب لن نجد وقتاً بين الحرائق لنقده أو مراجعته، وهذه هي المصيبة لو عرفنا.

يعتبر سليمان إبراهيم العسكري[1]:

أن التنسيق بين الفرقاء في الغرب هو في حقيقته التاريخية امتداد لممارسات معرفية غربية قديمة ارتبطت في معظم فترات القرون الوسطى وحتى مطلع عصر النهضة في أوروبا بتصوير الإسلام ببشاعة، ولم يكن هناك وراء تلك البشاعة في التصوير، أو التزوير، غير دوافع سياسية ومخاوف مردها أن الأحداث الواقعية في العالم الحقيقي من حول الغرب ـ آنذاك ـ جعلت من الإسلام قوة جبارة تهدد أساطيلها المواقع الأوروبية المتقدمة على امتداد قرون. وحتى بعد أن تعرّض عالم الإسلام للتدهور وبدأت أوروبا عصر الرقي والنهوض، لم تبارح أوروبا ذكريات الخوف من القوة الإسلامية التي كانت. وحتى مع اكتساح

(1) سليمان إبراهيم العسكري، مجلة العربي، نيسان 2006.

القوى الاستعمارية الغربية لمعظم بلدان العالم الإسلامي ظلّت آلية العداء الكامن من غلاة الغربيين للإسلام تنمو، وأخذت هذه الآلية أشكالاً أكثر تعقيداً تمثلت منذ أواخر القرن الثامن عشر، على الأقل، وحتى يومنا ـ كما يرى إدوارد سعيد في كتابه ـ في الفكر الاستشراقي الذي اتسم بالتبسيط المخل بصورة جذرية لعالم الإسلام، فقد كان مرهوناً لإطار استقطابي يقسم العالم إلى قسمين أحدهما هو «الشرق» والآخر هو «الغرب» أو «عالمنا» على حد التفكير الاستقطابي لكثير من المستشرقين، وكان طبيعياً أن ينتمي الإسلام إلى العالم «المختلف» أي «الشرق»، ومن ثم ينال النصيب الأكبر من الاختزال وينظرون إليه كما لو كان وحدة متجانسة جامدة يتعقبونها بمشاعر بالغة الخصوصية من العداء والخوف معاً. هذا الاختزال سبق أن رصده وفنّده إدوارد سعيد في كتابه عن الاستشراق، وفي كتابه الذي نتحدث عنه واصل تتبع الخيط الممتد في نسيج التفكير الغربي الذي لم يبرأ منه كثير من المفكرين والكتّاب والإعلاميين.

لقد أورد المفكر الكبير طائفة واسعة من الأمثلة والقرائن التي تدلل على ما عابه من عمليات التغطية تلك للإسلام، ولعلّنا نذكر هنا مثالين أحدهما محيّر والآخر منفر. أما المثال المحيّر فهو للكاتب والروائي العالمي ف. س. نايبول، الذي يقول في إحدى مداخلاته: «إن الإسلام يلعب دوراً كبيراً، سواء في الأسماء الإسلامية العائلية التي يتسمّى بها رجال حرب العصابات في جزر الهند الغربية ـ وهو يرسم لهم صورة من يرثي لحالهم ـ أو في الآثار الباقية من تجارة الرقيق

الإفريقية». ويعلق إدوارد سعيد برصانته الفكرية على ذلك قائلاً: «وهكذا يتحوّل «الإسلام» عند نايبول وأقرانه إلى عنوان يشمل كل ما يرفضه الإنسان من موقف العقلانية المتحضرة والغربية». لكن ما يحيرنا في هذا المثل هو هذه الخفة الممرورة التي تظهر على أداء كاتب كبير مثل نايبول يتكلم بمنطق صبياني تماماً عن الإرهاب الذي يختبىء في أسماء المسلمين وبذاكرة تلقيفية تماماً تلصق إثم تجارة الرقيق بالمسلمين وحدهم وكأن سفن العبيد المكبلين بالأغلال والمخطوفين من ساحل إفريقيا الغربي بالملايين والمنقولين قسراً إلى الشواطىء الشرقية من الأمريكتين لم تكن تجارة غربية، أو لم تحدث على الإطلاق!

أما المثال المنفر، والذي لا يلغي التنفير عن مداخلة نايبول، فهو مقال كتبه مايكل وولترز في مجلة «نيو ريببلك»، في العدد الصادر بتاريخ 8 ديسمبر 1979، بعنوان «الانفجار الإسلامي»، ويناقش فيه باعتباره «غير متخصص»، على حدّ قوله، عدداً هائلاً من أحداث القرن العشرين المهمة على الرغم من أنها (كما يقول) تتسم بالعنف ويؤسف لها في معظمها - في الفيليبين وفي إيران وفي فلسطين وغيرها - ويقول «إننا نستطيع تفسيرها باعتبارها نماذج لشيء واحد هو الإسلام»!

هذان ملمحان من ملامح عديدة دامغة تشير إلى عوار التغطية الإعلامية والفكرية لعالم المسلمين كما رصدها إدوراد سعيد في المعالجات الغربية السائدة، ومن المؤكد أن الصورة الآن أفدح وتتطلب معالجات دقيقة وعادلة وعميقة الحوار ومصرّة على الوجود في الساحة الفكرية والإعلامية الغربية كما كان دأب الراحل النادر والشجاع إدوارد

سعيد، كما أننا لن نعدم في الغرب مفكرين وكتّاباً وإعلاميين منصفين، يظهرون للغربيين صورة الإسلام الحقيقي النقيّة كدين للرحمة والتراحم والتعمير في الأرض.

وبعيداً عن محتوى الكتاب الذي كرسه المفكر الكبير الراحل لكشف وتعرية حقيقة تلك «التغطية» المريبة والمعيبة لدين عظيم هو الإسلام، لا بدَّ من كلمة نتحمل فيها مسؤوليتنا كمسلمين وعرب، وتتعلق باختطاف آخر للإسلام يقوم به نفر من المسلمين أو المحسوبين على الإسلام، والإسلام من أفكارهم وسلوكهم براء، هؤلاء الذين يروعون الآمنين بغير مبرر، ويقطعون الرقاب ممثلين بجثث قتلاهم، ويفجرون المدنيين من مواطنيهم بمزاعم جهاد في سبيل الله وهو أبعد ما يكون عن الدين والجهاد من أجله. إنه الاختطاف الأخطر الذي يتطلب كشف أسس الفساد في منطقه، لاستبعاد وقوع مزيد من الضحايا في حبائله وساحات مجازره، ثم إنه الطبق الفاسد الذي تتغذى عليه غربان وضباع الاختطاف الثاني، وهما وجهان لعملة واحدة، الكشف عن تشوهات أحدهما يؤدي إلى الكشف عن تشوهات الوجه الآخر.

أوروبا بين الانفتاح
وهاجس القلق من الإسلام

أوروبا القارة العجوز ذات المجتمعات المنسجمة والمتجانسة ثقافياً وتاريخياً، تتحول يوماً بعد يوم إلى مجتمعات جديدة، مركبة من إثنيات وثقافات وديانات متعددة، وبالرغم من أن الإسلام ليس بالوافد الجديد على القارة، إلا أن موضوع تنامي الوجود الإسلامي فيها، يعد حدثاً فريداً من نوعه بالنظر إلى الزمن القياسي الذي انتشر فيه المد الإسلامي وسط وغرب أوروبا، فمنذ أقل من أربعين سنة، لم يكن للإسلام أي ظهور فاعل أو مؤثر على الساحة الثقافية الأوروبية، اليوم وقد بات وجود المسلمين يمثل ثقلاً بشرياً وحضارياً، يستأثر باهتمام المخططين والاستراتيجيين، يراقب المحللون عن كثب ظاهرة تضاعف تعداد المسلمين، وما يرافقها من قضايا تتعلق بالاندماج والمواطنة[1].

ولا ريب أن من بين العقبات التي تزيد من صعوبة إشكالية الاندماج والتعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم في المجتمعات الأوروبية، هي

---

(1) كريمة أم عبد الله، مجلة التواصل، آذار 2005.

وقوع بعض الحوادث الأمنية، التي تشير بأصابع الاتهام إلى المسلمين، مما يضطر الجالية المسلمة إلى تبني موقف الدفاع عن الإسلام، والإحساس بالقلق من المستقبل، نتيجة التحرشات العنصرية التي باتت تستهدفها ومقدساتها، خصوصاً في ظل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها الأجيال المسلمة الجديدة الناشئة في أوروبا، لأسباب عدة كالفشل الدراسي وصعوبة الحصول على تكوين مهني جيد ومؤهل[1].

لعل أوروبا تتجاوز هواجسها ومخاوفها الأمنية، وتمضي قدماً نحو التحاور والتعانق مع الإسلام، وهو ما تبشر به أحياناً بعض تصريحات الساسة الأوروبيين، الذين بدأوا يدركون أهمية مراعاة خصوصية التركيبة الثقافية للأجيال المسلمة الجديدة بأوروبا، وضرورة إعادة النظر في كل ما يكتب ويقدم عن الإسلام من طرف بعض الدوائر الإعلامية والاستشراقية الحاقدة، والأمر مرهون أيضاً بما سيبذله المسلمون أنفسهم على صعيد التواصل الفكري والثقافي مع المجتمع الأوروبي، وبما سيبدونه من روح مبادرة وإبداع خاصة في القضايا المشتركة كالبيئة وحقوق الإنسان وقضايا الأسرة وغيرها، وعندها يمكن الحديث عن بداية عهد جديد بين أوروبا والإسلام، الذي سيكون مفتاحاً لأزماتها الكبيرة اليوم، كما كان بالأمس سبباً في نهضتها العلمية الحديثة[2].

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

الإعلام الغربي
وفرصة المناظرة بين مسلمي مجتمعاته

لعقود خلت، بدا حيّز تعايش الحضارات فسيحاً، وقضت الحكمة بالنصيحة «في روما، تصرف مثل الرومان». ولكن العولمة ألغت القاعدة هذه، وأدّت الهجرة الجماعية إلى امتزاج الشعوب والثقافات.

ولم تعد روما تتمتع بخصوصية ثقافية، فامتزجت فيها ثقافة تونس والقاهرة، فيما راحت بيرمينغهام تكتنف كشمير والبنجاب في آن ولامس العالم بأسره لندن. وانتفى مفهوم الإطار المحلي، وصار كل شيء يشق طريقه إلى الناس، فيما راحت الثقافات المتنافسة تنشر معاييرها في العالم: فيروّج جورج بوش للديموقراطية على النمط الغربي، والبابا بينيديكتوس السادس عشر للكاثوليكية، وعمر بكري للشريعة. فكيف العيش في هذا العالم الجديد؟ وكيف نبقى أحراراً فيه؟ يبدو أقل الحلول سوءاً تسوية مؤلمة بين الحق في التعبير (هواء الحريات) وبين الحاجة إلى رقابة ذاتية في عالم مختلط إلى هذه الدرجة.

والعنف، أو التهديد المباشر بالعنف ـ على ما رأينا على الملصقات التي حملها معترضون في لندن وكتب عليها «فلتقطع رؤوس هؤلاء

الذين يهينون الإسلام» ـ ليسا سائغين من الناحية الأخلاقية. وتؤولان إلى المقاضاة الجزائية، وعليه، فإدانة أبو حمزة المصري بالتحريض على القتل مفهومة، وأما الرسوم الدانماركية فهي بمنزلة إهانة. ولم أرَ صواباً نشرها في بعض الصحف الأوروبية، ولكنها ليست تهديداً لجماعة بعينها، أو أفراد بعينهم، ولنترك العبارات المتهاوية عن «عنف بنيوي» و«تسامح قمعي».

والعنف أمر غير مبرر وقد يؤدي إلى القتل، إلا أنه كان فعالاً ربما. والحق أن الرقابة الذاتية التي أظهرتها الصحافة البريطانية تدعو إلى القول أنها كانت مسؤولة، وبراغماتية، وراعية لتعدد الثقافات. وقد يقول المرء إنها خافت إحراق مكاتبها، فهل امتزجت الحكمة بالخوف، أم تزيا الخوف بالحكمة؟ وعليه، يبقى السؤال: كيف الجمع بين حرية التعبير والاحترام المتبادل في هذا العالم المختلط؟ فليس وارداً الأخذ بقانون العين بالعين والسن بالسن والتهديد بالتهديد. فيتهددنا إذ ذاك، ابتداء حلقة عنف مع المتطرفين الإسلاميين، ويستفز هؤلاء بدورهم، المتطرفين المناهضين للإسلام (مثل نيك غريفين من الحزب الوطني البريطاني، وكم كنت أتمنى لو دين قبل أيام من إدانة أبي حمزة)، فيؤدي خطابهم العنيف إلى مساندة المسلمين المعتدلين الجهاديين، وهكذا دواليك.

وأرى أن وسائل الإعلام البريطانية أحسنت التصرف حين أتاحت للمتطرفين الإسلاميين الإدلاء بآرائهم على الأشهاد ومناظرة الأصوات

المسلمة، المعتدلة والعقلانية، هذه الآراء والرد عليها، نشرها أصحاب الرأي من غير المسلمين. فجرت مناقشة هادئة على قناة «نيوزنايت» طرفاها امرأتان مع المتطرف أنجيم شوداري من جماعة «الغرباء»، فكانت منبراً حضارياً ناقش منه مسلمون إخوانهم المسلمين. والحق أن معظم المسلمين البريطانيين لا يرون رأي الجهاديين، ولكنهم لا يوافقون رسامي الرسوم الدانمركية الرأي كذلك.

ولعل الاستدراج الذي يستدرج إليه كثيرون، هو اعتبار الامر مواجهة بين الإسلام وأوروبا أو الغرب (على رغم أن أميركا ليست في مقدمة الجبهة). وهذا ما يريده المتطرفون، وآية ذلك الملصقات التي حملوها خارج مبنى السفارة الدانماركية في لندن: «أوروبا هي السرطان والإسلام هو العلاج»، وهذه ليست حرباً ولن يربحها الغرب، ولن يخسرها، فهي ليست حربه، بل هي حرب داخل الجاليات وفي صفوفها، وتالياً هي حرب داخل أوروبا، حيث يعيش ملايين المسلمين.

وإذا ما انتصر المنطق على الكراهية، فذلك لأن البريطانيين، والفرنسيين والألمان والإسبان والإيطاليين والدانماركيين، ومسلمي أوروبا، انتصروا على الأقليات المتطرفة داخلهم. ونحن، الأوروبيين غير المسلمين، في مقدورنا أن نسهم في ذلك، إما عن طريق سياساتنا الخارجية، تجاه العراق وإيران وإسرائيل وفلسطين، وسياستنا الداخلية في مسائل الهجرة والتعليم والتوظيف وغيرها. ولكننا لا يسعنا قبول تسويات على الأركان الأساسية لمجتمع حرّ. ولعل عقد حلقات حوار

بين المسلمين الأوروبيين، ومناظرة بعضهم بعضاً، على ما فعل الإعلام البريطاني هذا الأسبوع، أحد أحسن الردود على البغض[1].

(1) تيموثي غارتون آشُ غارديان، 9/2/2006.

مقارنة بين معاملة اليهود البريطانيين وبين العنصرية على المسلمين

كان اليهود ببريطانيا أول أقلية دينية موحدة وغير مسيحية. وهم من أوائل الشعوب التي أصابتها «العنصرية». وعلى رغم الفارق الكبير، تصح المقارنة بين معاملة اليهود البريطانيين وبين العنصرية على المسلمين، فثمة ملامح تتكرر، في نظر المجتمع البريطاني العنصرية، من اليهود إلى المسلمين، ويجدر بنا فهمها في سبيل تطوير استراتيجية أمن قومي فاعلة. فاليهود في ما مضى، وشأن المسلمين اليوم، كانوا غرضاً لتمييز ثقافي، فتدرس الفروض الظاهرة والناتجة عن ثقافتهم الدينية، وتُستثنى من تعريف «المرء البريطاني». وتبرز معاداة السامية، شأن العنصرية على الإسلام بنود الشريعة وفروضها، وتخلص منها إلى تهديد اليهود والمسلمين قوانين الأمة البريطانية، وحل المسلمون محلّ اليهود «كبش محرقة» أو محل تهمة، فهم على هذا، جماعة تريد فرض معتقداتها فرضاً على الثقافة الوطنية.

وتنزع معاداة الأصولية إلى تسويغ خطاب عنصري يتناول المسلمين. ويشيع هذا الخطاب في أوساط النخب المثقفة على نحو ما يشيع في

أوساط جماعات عنيفة فعلاً (وليس كلاماً). وتبرز المقارنة بين اليهود والمسلمين ملمحاً آخر يتكرر في التاريخ البريطاني الحديث. فسريعاً ما تنقلب المخاوف الأمنية، المتصلة بأقلية دينية إلى عنصرية تقارع «الحضارة بالبربرية». ولا ريب في أن إرهاب «القاعدة» واعتداءات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، خلف مخاوف وحزازات جديدة. وتربط «الماكارثية» الجديدة أمن الدولة الداخلي بصيغة ترفض التقاليد اليهودية ـ المسيحية. ويطلب المحافظون الجدد (الأميركيون) من بريطانيا حمل أمنها الداخلي على حرب ضد الفاشية. وهذا التحريف لذاكرة أوروبا، وكفاحها ضد النازية، يتردد في ضلال بعض المسلمين، مثل منفذي 7 تموز (يوليو) وإصرارهم على أنهم شهداء «الجهاد»، وفي زعم من يزعمون أن مكافحة الإرهاب حملة صليبية غربية جديدة تشن على بليون مسلم.

فالأمر لا علاقة له بحروب المحافظين الجدد في الخارج، أو بمناهضة العنصرية أو التعددية الثقافية، أو بالدفاع عن حقوق المواطنين البريطانيين المسلمين الإنساني، فهو يتعلق بأمن المواطنين البريطانيين جميعاً. والمحافظة عليه تقتضي تبديد التوسل بالأمن إلى خوض حروب خارجية، ومعالجة الإرهاب في سياق لا يخرج العدالة ومكافحة الجريمة[1].

---

(1) مليحة مالك (محاضرة بمادة القانون في الجامعة الملكية بلندن)، «غارديان» البريطانية 2/2/2007.

رهاب الإسلام الجديد

«رهاب الإسلام الجديد»[1] كتاب وضعه فانسان جيسر، الكاتب المعروف بمناهضة التمييز ضد المسلمين في فرنسا، وتناول فيه أربعة محاور كبرى.

المحور الأول هو الربط بين الرهاب الاستعماري للإسلام، والرهاب الجديد للإسلام على أقلام قادة الرأي والمثقفين الإعلاميين بطريقة ظاهرة التناقض، فمع أن هؤلاء القادة كانوا من المدافعين بصلابة عن قضايا العالم الثالث، وتحرير الشعوب من الاستعمار، فإن مواجهتهم للظلامية والأصولية الإسلامية باسم الدفاع عن الحرية والعلمانية والديموقراطية يرافقها اليوم شيء من الرهاب الضمني للإسلام.

المحور الثاني هو محاولة أصحاب هذه النزعة الإنسانية إخفاء أيديولوجية الإنطواء، التي تحرّكها الرهبة من الإسلام، وميل خطاب المثقفين الإعلاميين إلى الاقتراب تدريجياً من خطاب الخبراء الأمنيين، الذين اكتسبوا عقب أحداث سبتمبر مكانة وطنية حقيقية.

---

(1) قراءة في الكتاب للطيف زيتوني، مجلة العربي، تشرين الأول 2005.

المحور الثالث هو غزو الأيديولوجيا الأمنية للأوساط اليهودية «الملتزمة»، التي ترى في تنامي المؤسسات الإسلامية خطراً على هويتها كـ «ضحية»، ونضال هذه الأوساط اليوم للاحتفاظ بوضع «الضحية الشرعية» للعنصرية.

المحور الرابع هو دخول رهاب الإسلام إلى بعض أوساط المسلمين «المعتدلين»: فمنذ نهاية الثمانينيات، تميل النخبة العلمانية المتحدّرة من المهاجرين المغاربة إلى استخدام رهاب الإسلام «وسيلة للنجاح» في الحقل السياسي، وفي المجالس التمثيلية للمسلمين في فرنسا.

مسؤولية الصحفيين والمثقفين

ما مسؤولية وسائل الإعلام في نشر رهاب الإسلام داخل المجتمع الفرنسي؟ منذ الثورة الإسلامية في إيران العام 1979، وخصوصاً منذ قضية الحجاب العام 1989، بدأت صورة المسلمين تأخذ طابعاً نمطياً: أعداد كبيرة من المؤمنين مصوّرة من الخلف ظهورها محنية إلى الأمام، جموع متراصة تصرخ وتتوعّد، نساء محجبات. . . إلخ.

لكن الخطاب الإعلامي ليس واحداً، ولا هو وحيد في الميدان، فهناك ثلاثة أو أربعة خطابات تحاول منافسته، وهذا يعني أن الإعلام لا يخلق رهاب الإسلام، ولكنه يؤطر المفهوم الشائع حوله من خلال اختيار المقالات والتحقيقات والصور الموجهة إلى القرّاء.

لهذا، فإن النقد الذي نوجهه إلى الصحافة في موضوع الإسلام، لا ينفصل عن النقد الذي نوجهه إليها في موضوع صناعة الخطاب

الإعلامي عموماً: غياب الاختصاص، غياب المتابعة، الرقابة الذاتية، إلخ... فالصحفيون الذين بذلوا جهوداً حقيقية في معرفة موضوع الإسلام، وجمعوا الوثائق، وحققوا في المعلومات، لا يتعدّون عدد أصابع اليد في الصحافة الفرنسية. كما أن تطوّر ملف الإسلام منذ الثورة الإيرانية، مروراً بمأساة الجزائر وأحداث سبتمبر، وفي ظل التهديد المستمر لـ «الإرهاب الإسلامي الدولي»، جعل معالجة هذا الملف تتم من خلال صورة الإسلاميين، وحوّل المسلمين العاديين إلى جنس في طريق الانقراض. فوسائل الإعلام تلبّي في الواقع طلباً اجتماعياً ضمنياً: لا يطلب الناس معلومات عن الإسلام والممارسات الاجتماعية لأتباعه، بل تقريراً عن مدى خطر دعوى «الإرهاب الإسلامي» وتسلله داخل الهيئة الاجتماعية.

نجد التطور نفسه في تصوير وسائل الإعلام للحجاب، الذي تكاد تجمع وسائل الإعلام الفرنسية على رفضه، خصوصاً المجلات السياسية الأسبوعية. فالحجاب، في المخيلة الإعلامية، ملازم لخضوع المرأة وغياب الحريات الفردية، ولكنّ شيئاً بدأ يتغيّر في هذه النظرة، لم تعد الفتاة المحجبة تصوّر دوماً كضحية لتسلط الأب أو الأخ، بل صار هناك ما يسمى بالعبودية الاختيارية، التي هي من نتاج التزام شخصي، وبالتالي تعبير عن موقف متزمت يجعل من هذه الفئة من النساء فئة خطرة.

هل يوجد في فرنسا رهاب إسلام على المستوى الفكري، على غرار «العنصرية الفكرية»، التي جرى الحديث عنها بين الحربين العالميتين؟

الجواب هو بالنفي. فليس في رهاب المثقفين الفرنسيين شيء من التسويغ الفكري، إنما هو جزء من الرهاب الشعبي، أما السؤال عن مسؤولية المفكرين الفرنسيين عن نشر بعض الأحكام المسبقة حول الإسلام، فالجواب هو بالإيجاب دون شك. ولسنا نتهمهم بالعنصرية ضد الإسلام ـ فهذه صفة قلّة قليلة منهم ـ بل نتهمهم بالخلط بين الإسلام ومظاهر بعض المسلمين العنيفة.

خبراء الخوف الجدد

بعد أحداث سبتمبر 2001 بدأت برامج التلفزة والإذاعة والندوات السياسية تدعو صنفاً جديداً من المتكلمين، هم خبراء الخوف، الذين يستمدون شرعيتهم من الواقعية الأمنية. وقد تمكن هؤلاء الخبراء، من خلال تهميش كلام علماء الاجتماع والسياسة والإسلاميات، من أن يفرضوا أنفسهم كمراجع في موضوع الإسلام والإسلاميين.

أبرز هؤلاء الخبراء وأكثرهم إثارة للشك هو ألكسندر دلفال ـ واسمه الحقيقي مارك دانا ـ الذي جاء من دوائر اليمين المتطرف الوثني والغامض ليبني لنفسه موقعاً في الحقل الإعلامي.

إسلام معتدل... ومتطرف

لا يمكن اعتبار رهاب الإسلام نزاعاً دينياً متجدداً بين الغرب والشرق، كما لو كانت مشاهد الحملات الصليبية والجهاد تتكرر دورياً، إنه، إلى حدٍّ كبير، نتاج عملية «دنيوية» (عنصرية جمهورية على طريقة آرنست رينان)، بل عملية علمانية يقوم بها المجتمع. أولاً، لأن رهاب

الإسلام ليس ظاهرة شعبية وحسب، بل ظاهرة ثقافية وإعلامية أيضاً. ثانياً، لأن الرهبة ليست من المسلمين العاديين، بل من الإسلاميين، بحيث يمكن القول أن الرهاب هو في الحقيقة إسلاموي (نسبة إلى الإسلاميين الأصوليين)، لا إسلامي (نسبة إلى الإسلام أو المسلمين)، وبحيث نجد مَن يتولى الصراع باسم المسلمين لإنقاذهم من أشكال الأصولية والظلامية التي تهدد العالم.

وهذا الصراع جذاب بطروحاته، وفقير بحججه، فالإسلاميون والإرهابيون الذين يتحدث عنهم المثقفون في الإعلام، والمتخصصون في الجغرافيا السياسية، والخبراء في الأمن، لا يصادفهم الفرنسيون في أعمالهم وعلاقاتهم اليومية. إن مشكلة هؤلاء المثقفين أنهم يركزون حملتهم على أشكال الظلامية الدينية من دون أن يلتفتوا إلى الإسلام المعيش. فكأن هذا الإسلام المعيش لا يعنيهم، إنما يعنيهم ذلك الإسلام المتخيل الاستيهامي، الذي يسمح لهم بقيادة حملة أيديولوجية.

تبقى مسألة العنف والإرهاب، التي لا يمكن تغييبها. فاعتداءات نيويورك وكراتشي وكازابلانكا ليست من خيال هؤلاء المثقفين الإعلاميين. إنها فعلاً أعمال إرهابية، نفذتها مجموعات تعلن انتماءها إلى الإسلام. وهذه الأعمال تفرض علينا طرح مسألة تسويغ الإسلام لاستخدام العنف لغايات سياسية. ولكن هذه المسألة المعقدة تفرض علينا أيضاً أن نرى اختلاف حال المسلمين في فرنسا والعالم. لقد طرح أحد الصحافيين في نيويورك أخيراً سؤالاً على بطل العالم السابق في الملاكمة محمد علي: كيف تشعر أمام فكرة أنك تتقاسم الديانة نفسها

مع هؤلاء الذين تعتقلهم وكالة المخابرات الأمريكية؟ فأجابه محمد علي: وكيف تشعر أنتَ أمام فكرة أنك تتقاسم الديانة نفسها مع هتلر؟

ليست مقولة «الإسلام المعتدل»، و«الإسلام المتطرف» عملية ولا مفيدة، لأنها لا تسمح بفهم النمو المقلق لشبكات الإرهاب على مستوى العالم. فهذه الظاهرة العنيفة، التي تربط نفسها بالإسلام، ما زالت غامضة، وغموضها ينبغي أن يجبر الغرب على الابتعاد عن التبسيط وعلى تجاوز الأفكار المسبقة، والتمثيل النمطي للإسلام والمسلمين. ولكن هذه الظاهرة ومفاعيلها، ينبغي أن تجبرنا، نحن العرب، على أخذها بجدية، وتحليلها بدقة، وتحديد ما سيصيبنا منها خيراً أو شراً. هذه الظاهرة المنسوبة إلينا، لا نتحكّم نحن بها، ولا ندري مَن يتحكّم بها فعلاً، وأخشى أن تتجاوزنا الأحداث إذا لم نستعد الاستعداد المناسب للنتائج، ولعل أول خطوة في هذا الاستعداد هي أن نتحاور فيما بيننا لتحديد مصالحنا القومية، تمهيداً لحوار حقيقي مع العالم، يؤسس لعلاقة سليمة وهادئة.

في صحيفة «الأخبار» البيروتية (2007/11/12) كتب الصحافي التونسي لطفي صبحي:

يعتبر تعدّد الدراسات في البلدان الأوروبية حول الإسلام عنصراً يبرز مدى سعي الأوروبيين لفهم ما يجري عندهم وعندنا، لأن الدراسات في هذا المجال الحسّاس بالنسبة إلى الجميع، لها محاور مثل الإسلام في «بلاد الإسلام» ومحور الإسلام في «ديار الغرب».

والمحور الثاني أصبح مجال اهتمام مكثَّف في السنوات الأخيرة. وقد تكون أحداث الحادي عشر من أيلول، والحرب على أفغانستان، واحتلال العراق، وبروز فصائل إسلامية متعدّدة فيه، أسهمت في دفع السياسيين والباحثين وعلماء الاجتماع إلى محاولات الفهم، خصوصاً أن العديد من الشباب المسلم سواء الأوروبيون أصلاً أو الحاصلون على الجنسيات الأوروبية من أصول عربية، ذهبوا بأعداد يمكن اعتبارها مرتفعة للتطوّع للقتال في أفغانستان ومن بعدها العراق. وهو ما يعني في العرف الجاري أنهم يخالفون أصول بلدانهم الفكرية، إضافة إلى مخالفتهم لمواقف أنظمتهم السياسية.

ما الذي يدفع شاباً في مقتبل العمر حاصلاً على جنسية من بلد أوروبي يحلم بها أترابه من بلدان جنوب المتوسط، ويعيش أوضاعاً مادية مستقرّة ولو نسبياً، إلى التطوع للقتال في بلدان أخرى والقيام في حالات عديدة بعمليات انتحارية؟

إذا تجاوزنا ما يُعرَف بتيار «رهاب الإسلام» عند الباحثين الغربيين الذين ينطلقون من قناعات دينية عدائية ومن منطلقات عنصرية أحياناً أخرى، فإنّنا نجد مقابل ذلك محاولات عديدة لدى باحثين تتّسم بحوثهم بقدر لا يُستهان به من الموضوعية، يسعون إلى تقديم حلول للمسلمين «ديار الغرب» تخصّ معضلة الاندماج دون فقدان الهوية أو التخلّي عن المبادىء الدينية بالنسبة إلى المتديّنين منهم.

هذا الصنف من الباحثين ليس بالمتديّن، ولا من ذوي الأصول الإسلامية، لكن المعرفة عنده أقوى من التحيّز لعرق أو دين. كذلك

استطاع بجرأته العلمية وبحوثه الميدانية أن يتحرّر ـ ولو إلى حدّ ـ من القيود الأيديولوجية التي لا تزال تقيّد العديد من الباحثين العرب.

فمن خلال معالجتهم للأقليات الإسلامية في الغرب، ولتنوّع الحركات الإسلامية التي اتخذت من الغرب ملجأ لها هرباً من قمع أنظمة بلدانهم، نجحوا إلى حدّ في تفكيك جوهر الإشكاليات التي عجز المسلمون عن حلّها، والمتمثّلة بالأساس في دمقرطة الإسلام، وفي التسليم بتعدّد القراءات للدين الواحد، وفي ضرورة تجديد الخطاب الديني بما يتلاءم مع مبادىء الجمهورية عبر الاهتمام بالأئمّة، وفي كيفيّة عيش المسلم الذي أصبح أوروبي الجنسية دون أن يشعر بالتمزّق بين مبادئه الإسلامية وقوانين الجمهورية، وكيف يمكن لهذه الأخيرة أن تكف عن استعمال العلمانية ذات العناصر المتغير (على حدّ تعبير الباحث الفرنسي فرنك فريكوزي) لتمييز دين عن آخر، أو تفضيل عبادة على أخرى، بما يؤدّي إلى مخالفة جوهر العلمانية التي قامت على مبدأ التكافؤ بين مختلف الأديان.

ومصدر قوة ذلك المسعى أنه ينطلق من منطلقين أساسيين: الاول هو أن أصحاب هذه البحوث يغلبون الأبعاد العلمية الموضوعية على المسائل الأيديولوجية المسبقة، بما يعني أنهم نجحوا في القطع مع المدرسة الاستشراقية القديمة التي كانت تنطلق في بحثها من أفكار التفوّق العنصري والحضاري وأحياناً الديني. أما المنطلق الثاني فيتعلق برغبتهم في تطوير مجتمعاتهم من خلال السعي لابتكار أنجع السبل للتعايش بين مختلف مكوّناتها، باعتباره الضامن للاستقرار. بمعنى

آخر، فإن الباحث الموضوعي في هذا المجال ـ مع إقرارنا بأنه ليس هناك موضوعية مطلقة ـ تغلب عليه روح المواطنة على الانتصارات الأيديولوجية الوهمية. ويقوم بدوره وهو يدرك أنه لا يشارك الجماعات مدار بحثه في قناعاتهم وأفكارهم. وقوّته في ذلك، أنه يقوم بمهمته العلمية من منطلق المواطن الذي يبحث عن النظام السياسي الأمثل من خلال تطوير التجارب السياسية التي عاشها ويعيشها بلده. وإذا أردنا اختصار طبيعة ذلك العمل ـ على ما يمكن أن يطاله من نقد ـ قلنا إنه العقل العملي الذي يستفيد من تراكم الخبرات عندهم والساعي إلى تجاوز الصراعات الهامشية التي تعطّل تطوّر المجتمع. وهذا العقل، يقابله لدى فئة ليست بالقليلة في أوساط النخبة العربية، عقل مكبَّل بقيود الأيديولوجيا، الذي تنتج منه ـ في مجال بحثنا ـ حالة من «رهاب الإسلام» التي تكاد تكون أكثر راديكالية ممّا هو سائد لدى بعض الباحثين في الغرب.

والإسلاموفوبيا تجعل أصحابها عاجزين عن فهم الظواهر كما هي، فيُصابون بالذهول ويُكثرون من إطلاق صيحات الفزع ويبرعون في تخويف الآخر ـ الذي هو الغرب في هذه الحالة ـ مما يجري في بلدانهم، مستنجدين أحياناً ببعض الحلول الجاهزة. وذلك السلوك من «الإسلاموفوبيّين» العرب يزيد في تهميشهم وعزلهم إلى حدّ يشعر فيه البعض منهم أنّ الأوطان التي يعيشون فيها ليست بأوطانهم، وأنهم يعانون من مشكلة اندماج معكوسة.

صحيح أنه ليس عندنا في البلدان التي تعيش تناغماً دينياً وإسلامياً

مشكلة اندماج، أو مشكلة تمزّق المسلم بين دينه وجنسيته الجديدة، لكن عندنا ظواهر قد تكون أعمق وأخطر من تلك، تحتاج إلى دراسات تتضافر فيها المناهج العلمية وإرادة القوى السياسية، باعتبار أنّ الأمر يهمّ المجتمع. لكن ذلك يحتاج بدوره إلى عقلٍ نقدي وإلى دولة تقبل النقاش في تلك المسائل وترعاه وتوفّر له شروط نجاحه، وهي عناصر تكاد أن تكون غائبة في بلداننا العربية.

نحن ننقسم بين صيحات الفزع من الظواهر الجديدة، وبين الفتاوى على القياس التي تصل حدّ القول بجلد الصحافيين، وبتحريم المقاومة المشروعة، وبتحليل التوريث السياسي. إن النخبة التي تعيش فوبيا الإسلام عليها أن تضع أقدامها على أرض مجتمعاتها لتدرك أنّنا نعيش بالفعل، ظواهر تحتاج إلى الدراسة بدل الهروب منها، وإلى الفهم بدل الخوف منها والتخويف بها، وإلى البحث لها عن حلول نابعة من ذواتنا بدل البحث عن الوصفات الجاهزة التي لم تجد نفعاً. ومن بين تلك الظواهر، أزمة الفتوى في المؤسّسات الدينية الكبرى في العالم العربي، مثل الأزهر، وفي مجالس الإفتاء في باقي البلدان العربية والإسلامية، التي أصبح المفتي فيها موظفاً رسمياً في دول لا تحترم الحريات، بما في ذلك الحريات الدينية داخل الديانة الواحدة، ولا تؤمن بالمؤسسات، ولا تسعى لإقامة جمهورية تتّضح فيها الأدوار باحترام الدساتير والقوانين.

وهناك أزمة فتاوى أيضاً في عدد من الفضائيات ذات التوجّه الديني التي أصبح التحريم فيها والتضييق على الخلق هو القاعدة، ما قلّص

دائرة المؤمن/ السائل ودفعه إلى هجرة المجتمع وبناء مجتمعه الخاص، فتعمّق بذلك الانقسام بدل التوحّد.

ولـم يعد يُخفى أنّ هناك أزمة عميقة في الفكر الإسلامي، جعلت فئات من الشباب ترفض الفكر المعتدل المستنير وتتّجه نحو السلفية الراديكالية، التي تُدخل أصحابها في دوّامة من التكفير والتناحر يصعب الخروج منها. وإذا علمنا ـ على سبيل المثال ـ أنّ صنفاً من ذلك الشباب يكفر الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يُعدّ مرجعاً في العالم الإسلامي، لأدركنا إلى أيّ مدد يمكن أن يصل هذا الفكر.

نحن نعيش كذلك أزمة دولة لا تريد التفكير في مستقبل مجتمعاتها وتحوّلاتها العميقة، ولا تريد إشراك نخبها الواعية في البحث في الظواهر الأساسية، ومن ثمة التأثير على القرار السياسي والإسهام في تغيير المجتمع وتجنيبه الهزات التي يمكن أن تعصف به.

إن فقدان الحرية في ديارنا جعل جزءاً من النخبة تائهة، وحرف منطلقات بحثها وجعلها تتخبّط في دائرة مفرَغة لم تحقّق النتائج المنشودة على امتداد عقود. ومن ثم، تصبح تلك النخبة مطالَبة بقلب التعامل مع الظواهر لتصل إلى النتائج المرجوّة.

في مجلة «وجهات نظر» (آذار 2006) كتبت داليا يوسف تقول:

دفعني ما حملته من قلق ومشاعر سلبية حول طبيعة تغطية وسائل الإعلام الغربية لقضايا الإسلام والمسلمين ـ شأني شأن غالبية العرب والمسلمين في أرجاء المعمورة ـ للمبادرة بسؤال روجر هاردي محلل

شؤون الشرق الأوسط بال «بي بي سي» عن مدى شعور الإعلام الغربي بهذه الأزمة وكان ذلك في منتدى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية للعام 2003، فجاءت إجابته لتلفت النظر لأبعاد أراها كانت غائبة عني إذ قال: «للعمل الإعلامي طواغيته التي تسهم في تبسيط المعقد وتشويه الحقائق أحياناً» هذه الطواغيت التي أشار إليها لم تكن من وجهة نظره إلا الأطر التشغيلية وخصائص العمل الإعلامي التي تساهم في رسم أداء الصحفيين عموماً بدءاً (Deadlines) من ضغوطات المواعيد النهائية لتسليم المواد الإعلامية.

ومروراً بقائمة الاتصالات الخاصة بكل صحفي ومدى درجة توفر الخبراء الذين يمكن للصحفيين الاستعانة بهم في تفسير الأحداث بشكل يستدعي السياقات الضرورية ويعمق من فهم المتلقين وأضاف «هاردي» لهذين الطاغوتين المساحة المحدودة للنصوص في الإعلام المكتوب والزمن المحدود في الوسائل السمعية والبصرية التي تدفع للاختزال والاجتزاء وتضر بنقل الحقائق وتحليل الظواهر.

«هاردي» أضاف لحديثه عن هذه الطواغيت قوله بأنه لا يمكن استثناء الإعلاميين من حالة شبه عامة من الجهل بالإسلام لدى الكثير من الغربيين. وهو ما يضع الأمر في سياق من «صراع الجهالات». كما وصفه إدوارد سعيد من قبل ـ أكثر منه صراعاً للحضارات وفقاً للوصف المتكرر كلما نشأت أزمة تتعلق برسم وسائل الإعلام في المجتمعات الغربية لصور ذهنية عن الإسلام والمسلمين.

رغم تفهم المشاعر والأسباب إلا أن ركوب موجات الغضب التي

تعلو منحنياتها لتهبط كلما ظهر ما يعد إساءة وتشويهاً للإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، يبدو المهمة الأسهل للمسلمين حول العالم إذا ما قورن ذلك بخوض محاولة فهم وتغيير لبنى العمل الإعلامي التي تنتج عنها هذه الرسائل المشوّهة. إن تشبثنا بالوقوف في المربع 1 واصفين أنفسنا غالباً بأننا الضحايا المضطهدون أمر يفقدنا الكثير من الرصيد الحضاري والإنساني الذي نتمتع به وينزع عنا القدرة على الفعل. كما أن حملات الضغط غير المنظم قد تحدث ضجيجاً ولكنها تبدّد الكثير إذا لم تتحدد أهدافها وإذا لم يسع القائمون عليها لفهم السياق الثقافي والاجتماعي الذي تتحرك فيه محاولاتهم للتأثير.

احترام الذات الحضارية إذا ما تعرّضت للإساءة أو التشويه قد يبدأ بوقفة احتجاج وغضب ولكن يجب ألا ينتهي عندها مهما ظهرت درجة اتّقاد هذه اللحظة وإذا لم يمتد الأمر ليشمل بذل جهد واسع بالدخول إلى سلسلة من عمليات الفهم والتأثير يصبح من يكتفون بتلك الوقفة مجموعة من الغاضبين الكسالى الممتنعين عن الإنتاج حضارياً والمجترّين للاستهلاك حيناً والرفض حيناً آخر وكلاهما لا يخلو من سلبية.

أحياناً ما يقدم الإسلام في الإعلام الغربي على أنه مقابل للاعتداء والظلم والعنف وعدم التسامح والتخلّف، وغالباً ما يتم رسم معايير الإسلام ونظرته للعالم بشكل منحدر أو أقل إنسانية، ولكن هناك العديد من العوامل التي تفسر هذا الأمر بعيداً عن (نظرية المؤامرة) التي قد تضلل أكثر مما تفسر.

النقاش حول خصائص ومشكلات بنى العمل الإعلامي استمر طويلاً في أعمال النقاد والمحللين الإعلاميين، كما أن الجدل الدائر بين حين وآخر عن أسباب تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي يحتدم حيناً ويهدأ حيناً آخر دون الوصول لصيغ نهائية للتعامل معه.

إذن فكلا النقاشان قديم على ما يبدو ولكن إثارتهما الآن بشكل متداخل أمر يدخل في إطار التغيير الواجب لشكل أداء المسلمين من جهة وسياسات وخصائص العمل الإعلامي من جهة أخرى. وقد ينقلنا هذا من الاهتمام الأفقي العرضي بالظواهر والمشكلات إلى اهتمام رأسي أعمق يصل إلى جذور المشكلات وإن تطلّب ذلك وقتاً وجهداً.

وفي هذا السياق تبدو حاجة المسلمين بل والمهتمين عموماً ماسة لخوض غمار مبادرات تتعدد مستوياتها للنقاش حول مفاهيم وبنى العمل الإعلامي وإدارة حديث من داخل مؤسسات هذا العمل والدوائر المتقاطعة معه «باعتبار الميديا وسيلة للتغيير قابلة للتغيير» في محاولة للانتصاف للحق والمصالح العامة بمعناها الواسع وعدم الاكتفاء بمحاولة تحقيق أهداف مؤقتة قد تمنع تفاقم بعض من مشكلاتنا حيناً لكنها لا تحدث تغييراً حقيقياً يحمي الذات ويحقق العدل فيصير أملاً للضعفاء وانتصاراً لغير القادرين عبر دوائر دينية وحضارية مختلفة وهذا التوجه ـ على ما أعتقده ـ هو جوهر العمل بالإسلام.

كسر القواعد الذهبية

يدرك الكثير من الناس أن على الصحافة أن تقدم المعلومات

والأحداث وأن تضعهما في إطار نقدي على أن يتسم ذلك بالتعددية بما يسمح بوجود آراء متنوعة، ولكن هل هذا ما يحدث فعلياً؟! رغم صعوبة الإجابة عن هذا السؤال ومخاوفي ومن أن أقع في التعميم الذي أدينه (فالصحف ووسائل الإعلام يتباين أداؤها وفقاً للنظم الإدارية والقانونية التي تعمل بها، أنماط ملكية وسائل الإعلام والحركة الاقتصادية والإعلان والعلاقة بالدولة وتحديد الأجندة. . .) إلا أنني سأسمح لنفسي بمشاركتكم بعضاً من المشاهدات في بيئات العمل الإعلامي ومناقشة الأفكار التي تبعث على طرح الأسئلة أكثر من تقديم الإجابات.

فعلى سبيل المثال فإن مشكلات الصحفي في الحصول على المعلومات وتغطية الأحداث وشكل عرضها لا تتوقف عند مواعيد التسليم النهائية الضاغطة أو قلة وصعوبة اتصالاته بالخبراء الفعليين أو محدودية المساحة التي يعرض فيها ما توصل إليه ولكن هذه الصعوبات تمتد أيضاً إلى قدراتك التسويقية لتبيع سلعتك الإعلامية، إذ سينصحك الكثير بأن «التناغم والتناسق أمر يبعث على الملل، بينما يجتذب الصراع مزيداً من الجمهور للمتابعة». وقد شاهدت بنفسي هذا المنطق يتجلّى حينما وقف أحد الشباب من مسلمي بريطانيا يتساءل في أحد المنتديات الإعلامية بحيرة غاضبة موجهاً سؤاله لعدد من الإعلاميين البريطانيين: «لماذا تتجاهلون في قصصكم الإخبارية جهودنا في عمل بناء دائب في المراكز الإسلامية بينما تتصدر صور وأخبار «أبو حمزة المصري» الذي تعدونه إرهابياً صفحات وعناوين الجرائد ووسائل الإعلام؟». وكانت

الإجابة خالية من أي إشارة للحديث المعهود عن الصراع والكراهية بين الثقافات وعدم قدرة المسلمين على التعايش والاندماج وإنما جاءت في تعليق مهني قصير: عزيزي، إنك تعرف القاعدة الشهيرة المعمول بها «الخبر هو الخبر السيّىء».

News is Bad News

هذه القاعدة هي أيضاً من خصائص العمل الإعلامي التي تسهم أحياناً في أنواع متعددة من تشويه الحقائق واجتزائها. مثل هذه البيئة قد تنعش الاعتماد غالباً على مصادر غير مناسبة للمعلومات استجابة للمطالب الضاغطة ورغبة في الملاحقة.

ويبرز هنا الحديث عن كلمة مفتاحية أخرى أشرنا لها سابقاً وهي «قائمة الاتصالات» للخبراء والمعلقين على الأحداث. وقد وصف إدوارد سعيد سابقاً كيف يعمل هؤلاء الخبراء (أكاديميين، سياسيين. . .) «كمجتمعات تفسيرية»، لسياقات الأحداث وما وراءها. والصحفيون في مسألة قائمة الاتصالات تلك يواجهون مشكلتين: الأولى هي ألا يكون لديهم وسائل الاتصال بالأصوات المتعددة التي ترسم خرائط المواقف والأفكار وتعطي صورة أكثر وضوحاً في معالجة أي قضية، الثانية وهي من أكثر العيوب خطورة في الإعلام الكلاسيكي السائد بالخضوع لآليات الانتقاء للتخلص من بعض الآراء المستقلة بما يسبب في النهاية ما أسماه تشومسكي من قبل «الاتفاق المصنوع» الذي يقود الجمهور في النهاية إلى اختيار بعينه وفقاً لما تراه جماعات المصالح.

عدم تعدد الأصوات المفسرة للأحداث والمستدعية للسياقات التاريخية والواقعية بالإضافة للسمة الاختزالية في وسائل الإعلام التي لا تسمح بشكل كافٍ من التحليل خاصة في الوسائل المصورة تقود إلى درجات مذهلة من الجهل بالظواهر أو الأحداث المركبة بالرغم من التغطية الإعلامية الواسعة لها، ويجيب جزئياً عن تساؤل بعض قادة الحوار حول ارتفاع معدلات القلق من صدام ثقافي بين أصحاب الحضارات المختلفة في وقت تفجرت خلاله ثورة المعلومات التي اختصرت المسافات وقضت على الحواجز وسمحت بالتعرف على الآخر.

وبالرغم من الاعتراف النسبي في الدوائر الإعلامية بمسألة التحيّزات القيمية وعدم وجود موضوعية مطلقة إلا أن ذلك لا يعني الاستسلام للمبالغات وعدم اتزان العرض misrepresenting بالعمد إلى تكنيكات محددة والتي من أهمها استخدام اللغة المحمّلة بالدلالات Loaded language التي يجعلنا الانتباه لها أكثر قدرة على أن نرى العبارات التي تبدو أوصافاً محايدة وهي تتكشف عن أحكام قيمية. وهناك أمثلة شهيرة منها أنك إذا كنت تفضّل إحدى الجماعات فقد تدعوهم بـ «جماعة لمناصرة المصلحة العامة»، وإذا كنت لا تفعل فربما تدعوهم بـ «جماعة ضغط»، وفي الشأن الخارجي قد تصف جماعة بأنها «تحارب للاستقلال»، أما لو كنت لا تتفق مع قضيتهم فسوف تدعوهم «بالحركة الانفصالية».

الصحافة كديانة علمانية!

وإلى جانب المشكلات البنيوية والمهنية في العمل الإعلامي فإن الساحة الإعلامية الغربية يتكرر فيها كثيراً التأكيد على هويتها العلمانية وهو غالباً ما يؤثر ليس فقط على تغطيتها لقضايا الإسلام والمسلمين ولكن اشتباكها مع الدين عموماً وللتأكيد على هذه النقطة يمكن استدعاء ما ناقشه «لارس لندستن» المحلل الإعلامي بفنلندا في ورقة له بعنوان «الصحافة كديانة علمانية: لماذا يُساء فهم المسيحيين والمسلمين على السواء» حيث ادعى بأنه بعد قراءة عميقة لعدد محدود من التقارير الإخبارية والتي تتعلق بمناقشة بعض من الجدل والقضايا الدينية، فإنه يمكن للمرء الوصول لنتيجة عامة بأن المنطق والفكر الديني يعد دخيلاً على أغلب المؤسسات الصحفية في الغرب.

ويشير في تحليله إلى أن قواعد ما يعرف بـ «الحياد والموضوعية الصحفية» هو ما يمثل نوعاً من الديانة العلمانية في الفضاء الغربي العام وخاصة لدى الفاعلين الأرفع قدراً في وسائل الإعلام.

وتعتبر قضية رسوم الكارتون الدانماركية المسيئة لرسول اللّه(ص) التي أثارت ضجة مؤخراً وما زالت عواقبها تتفاعل، تعتبر تجلياً آخر يعكس اختلاف وضع الدين والنظر إليه في الثقافة الغربية عنه في الثقافة العربية الإسلامية والأثر المباشر لذلك في العمل الصحفي والإعلامي، فالمحرر الثقافي فليمنج روز الذي سمح بنشر الرسوم ـ في جريدة Jyllands-Posten ـ يرى أن القانون والقواعد الصحفية الدانماركية تحمي

الأفراد. وهم على قيد الحياة ـ من التعرض لحملات إساءة تبعث على الكراهية وتهددهم بينما يجب من وجهة نظره ألا تعلو الرموز الدينية على النقد. وحينما ناقشت مع جاكوب بترسن Jakob Petersen ـ مدير المعهد الدانماركي المصري للحوار ـ مثل هذا المنطق وسألته: هل هذا قد يعكس الاختلاف بين رؤية الحضارة الغربية القائمة على المادية والفردانية عموماً بينما الثقافة والحضارة الإسلامية لا تشترط الوجود المادي كشرط الاحترام والتقديس كما أنها ـ أي الحضارة الإسلامية ـ قد تكون أكثر ميلاً للاهتمام بالجماعة. ورأى بترسن في مثل هذا التفسير شيئاً من الصحة ولكن رأى أيضاً أن هذا لا يمنع من أن الدين الإسلامي نفسه يهتم بالفرد كثيراً وأن الحضارة الغربية بعقلانيتها تنظر للدين في أحد مستوياته كظاهرة اجتماعية يجب تحليلها ودراستها ولكن السؤال ـ وفقاً لبترسن ـ هو كيف يتم ذلك دون الإساءة لمشاعر المسلمين.

وإذا أخذنا في الاعتبار رأي أسقف كانتربري «روان ويليامز» والذي يشير إلى الخصائص الأساسية للإعلام الغربي في اشتباكه مع الدين عموماً بما في ذلك المسيحية مع كونها ديانة الأغلبية في الغرب.

فإنه قد تكون الحقيقة، وليس فقط الإسلام والمسلمين ـ ضحية آليات العمل الإعلامي وطواغيته ـ وهو أمر يحتاج للمراجعة والتصحيح من كل المهتمين بأداء إعلامي أفضل وأكثر عدلاً في كشف الحقائق وتحليل الظواهر.

إذن فالإسلام بمفهومه الحضاري يتشارك مع غيره من الظواهر المركبة والتي تحتاج لأن تدركها وسائل الإعلام. وفي الوقت نفسه

وكغيره من الأديان فهو يحمل نفس الفروق البنيوية بين طبيعته وبين آليات عمل الميديا. ولكن هذا لا ينفي بأي حال أن هنالك بعض الخصائص المميزة لحالة تغطية الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، وأحد أهم الأسباب المؤثرة وراء سوء الفهم هي التعريفات التبسيطية للإسلام التي يحملها الصحفيون. مثلما يشير الأب بوب بيتستون «إن الإسلام في تعريفه الأوسع يتم التعبير عنه عبر ثقافات ولغات وحضارات عديدة. وفي تعريفه الأضيق (الأكثر محدودية) فإنه يرى ببساطة كاعتقاد ديني. هناك مليار مسلم اليوم في العالم لا يتماثلون في أهدافهم أو دوافعهم أو قناعاتهم السياسية وتفسيراتهم للدين تماماً مثلما يختلف أكثر من مليار مسيحي».

إن تبسيط الخلفيات الثقافية والتاريخية وآثارها في تعريف الإسلام يجعل العديد من التغطيات الإعلامية تتحول إلى كلاشيهات. ووفقاً لإدوارد سعيد فإن التعبير المحدود في تعريف الإسلام في الميديا الغربية تعود جذوره إلى السياقات الاستشراقية. بالإضافة إلى ميراث الحقبة الاستعمارية الذي يعمّق الشعور بأن الإسلام والغرب نقيضان لا يمكن لهما التعايش، وقد أضاف «يجب أن يضع الغرب الإسلام في سياق أكبر عبر مؤسسات الحضارة الإسلامية الأكثر اتساعاً مثل الأدب، القانون، السياسة، الفن، . . . إلخ، كما يجب أن يتم الإلمام بالتنوعات الجغرافية والثقافية للإسلام التي تمتد عبر أفريقيا، آسيا، الشرق الأوسط وحتى أوروبا وأمريكا لتشمل الأطياف المتنوعة بتعبيراتها المختلفة».

المطابقات.. والاقتباسات

وتعد محاولة فهم الإسلام بشكل مناظر للمسيحية أحد أبرز الأنماط سلبية في التغطية الإعلامية لقضايا الإسلام والمسلمين. فعلى سبيل المثال يفترض أحياناً خطأً أن رسول الله محمد(ص) يمثل الدور نفسه الذي يعتقد أصحاب الديانة المسيحية أن المسيح عيسى يمثله، وهناك مطابقة أخرى قد تشرح المساندة غير المشروطة لكتاب أو أدباء من أمثال سلمان رشدي وتسليمة نسرين وغيرهم والتي تستمد من تاريخ العلمانية الأوروبية والثورة ضد الكنيسة والتي كانت ترى كعائق ضد التقدم في أوروبا خلال العصور الوسطى، وفي بعض الدوائر كانت الرؤية نفسها تمتد لمحاولة تطبيقها على الإسلام الذي لا يملك نفس تاريخ المؤسسة الدينية.

إن إدراك الإعلاميين الغربيين لغياب تفسير مركزي أو سلطة دينية وحيدة في الإسلام قد يساعدهم على التمييز بين القواعد الثابتة لهذه العقيدة المركبة وبين أي فرد أو مجموعة تحمل قناعة محددة أو ترفع شعاراً بعينه.

ولدينا مشكلة أخرى وهي أن الكتابة عن هذا الدين وأهله ـ في إطار التغطية الإعلامية له ـ أحياناً ما تكون بصيغ تأكيدية دون دليل أو باستخدام مصادر غير موثوق بها، ويكون الأمر بدرجة شديدة من المباشرة والثقة حتى لا يمكن للقارىء معها أن يسأل عن أية أدلّة.

والحقيقة أن المشكلة لا تنتهي باختيار مصادر موثوق بها فقط ولكنها

تمتد أحياناً إلى عدم الدقة في الاقتباس من هذه المصادر خاصة فيما يتعلق بالقرآن والحديث، فاقتباس بعض الأجزاء غير المكتملة من نصوص الحديث والقرآن وعدم تفسيرها تفسيراً صحيحاً يمكن أن يؤدي أحياناً إلى غير المعنى المقصود بل إلى عكسه.

إن «المجتمعات التفسيرية» تلعب دوراً حاسماً في إبراز المفاهيم والحقائق الهامة التي تحملها الاقتباسات والنصوص. فالسعي إلى رسم صورة شاملة لأي ظاهرة معقدة يعتمد على مد الجمهور بعدد من الخبراء الموضوعيين وبمصادر متعددة للمعلومات دون العمل على الترويج لفهم أو تفسير بعينه.

وفي السياق نفسه فإن عدم توفير التعريفات الواجبة للألفاظ والمصطلحات المستخدمة قد يضر بحقيقة ومعاني الكلمات ذاتها، ففي إطار زيارته إلى إسلام أونلاين. نت. لتنفيذ برنامج إذاعي عن الآثار الاجتماعية والثقافية للإنترنت في العالم العربي والإسلامي أخبرني «إريك وينر» مراسل أكبر شبكة إذاعية أمريكية مستقلة وهو يستعرض أقسام الموقع متوقفاً عند قسم «الفتوى» أن أغلب الأمريكيين تترادف كلمة «فتوى» لديهم مع كلمة «الحكم بالموت» وذلك نظراً لأن الإعلام الأمريكي قدّم المصطلح في إطار فتوى الإمام الخميني بقتل «سلمان رشدي» بعد نشر روايته «آيات شيطانية» دون الخلفيات اللازمة لدرجة أعطت للكلمة دلالة مختلفة. إن صك المصطلحات وتشجيع إدراكات بعينها يبدو مهمة دقيقة للتغطية الإعلامية.

يقول دكتور عزام التميمي في كلمة للعاملين بالـ «بي بي سي» مقيماً

محاولة الوصول إلى تغطية أدق لأوضاع المسلمين «منذ الحادي عشر من سبتمبر نحاول التأكد من أن عبارات «الإرهاب الإسلامي» وغيرها لا تستخدم. وقد نجحنا إلى حدٍّ معين ولكن ما زلنا أقليّة. فما يزال هناك قدر من الممانعة لتغيير ثقافة «الإسلاموفوبيا» نظراً لكثير من الجهل عن الإسلام والمسلمين، لا يزال أمامنا طريق طويل، إن وصم مجتمع بأكمله وأصحاب دين بسمة الإرهاب أو التطرّف يعد أمراً مسيئاً ويثير الحديث عن أن العاملين في الميديا ما زال عليهم الكثير لتعلمه».

مشكلات بنية العمل الإعلامي الغربي أو الأخطاء المعلوماتية لدى بعض الصحفيين الغربيين (لأسباب تتعلق بالجهل أو حتى بالكراهية) لا يمكن أن تكون سبباً وحيداً لتشويه صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي. فالمسلمون أنفسهم يعملون على تشويه هذه الصورة عبر تقديم نماذج غير منضبطة تنتج عن سوء الممارسة أو التفسيرات الخاطئة للنصوص الدينية.

إن سلوكيات بعض المسلمين سواء في العالم الغربي أو الإسلامي لها أثر كبير. ففي أماكن عديدة يخلط المسلمون بعضاً من عاداتهم وممارساتهم الخاطئة بالإسلام. ويلعب مسلمو الغرب دوراً محورياً في هذا الشأن سلباً أو إيجاباً ولكن المؤكد أن عيش بعض من الجاليات الإسلامية في الدول الغربية في مجتمعات مغلقة وموازية داخل بلادهم يعد أمراً سلبياً سواء كان من جانب المسلمين بدعوى أنها دول غير إسلامية بينما هم يتمتعون بنظمها ومؤسساتها وقيمها، أو كان من جانب الحكومات الغربية التي تهمش الآخر المختلف لأسباب ثقافية واقتصادية

فمثل هذه التوجهات ترسم خطأ الإسلام كمصدر تهديد للأسس التي قامت عليها المجتمعات الغربية.

إن تاريخ بدايات تكون المجتمعات المسلمة في الغرب قد يفسر لنا الكثير مما نراه الآن في علاقة هذه المجتمعات ومراحل تكوينها وبشكل سريع ـ حيث يضيق المقام عن التفصيل على نحو كامل ـ فإن الاهتمام الأساسي لدى مسلمي الغرب في المراحل الأولى كان غالباً ـ بعد الحصول على فرص عمل ثابتة ـ هو توفير أماكن للصلاة والطعام الحلال في بيئة لم تكن تتيح ذلك من قبل، ولم تكن العلاقة بالمحيط الغربي قد تطورت وهو ما جعل الاهتمام بالإعلام يأتي متأخراً باعتباره صيغة متقدمة في تكوين المجتمعات. إن العلاقة الواهية بين مجتمعات المسلمين والإعلام الغربي تنعش البيئة المغذية لمسألة سوء فهم الإسلام والمسلمين في أغلب الأحيان.

صورتنا في الغرب... مسؤولية من؟

عندما نشرع في الحديث عن صورتنا في الغرب، قد يتبادر إلى بعض الأذهان سؤالٌ: ما أهمية تلك الصورة؟ وهو سؤال ـ على بساطته ـ يتضمن موقفاً من الغرب، وتصوراً عن أهمية أو عدم أهمية الآخر. لكن الإجابة التي تتسق مع الهدف، من حديثي هنا، والآن، تتعلق أولاً بالذات، ذاتنا العربية الإسلامية، من جوانب أخلاقية، وعملية معاشية، وثقافية، ولا أريد أن أقول سياسية واقتصادية، لفرط ما لحق بهاتين الكلمتين من أدرانٍ ومراوغات، برغم أنهما قد تتضمنان كل الأنشطةِ الإنسانية، إذا نهجتا منهاج الشرف الإنساني، وهو حلمٌ لا يزال بعيداً. فلنعد إلى موضوعنا، ونشرع في محاولة الإجابة عن سؤالنا عن أهمية «صورتنا في الغرب»[1].

أخلاقياً، لم يعد مُمكناً أن نتجاهل وجود عشرات الملايين من العرب والمسلمين يعيشون في البلدان الغربية، في أوروبا وأمريكا وأستراليا، التي لا يمكن فصلها عن الجسم الغربي. هؤلاء الملايين من العرب والمسلمين خارج الأراضي العربية والإسلامية، تؤثر فيهم أي

(1) سليمان إبراهيم العسكري، مجلة العربي، كانون الثاني 2005.

إضافة ـ بالسلب أو بالإيجاب ـ لصورة العربي والمسلم لدى الإنسان الغربي، الذي يعايشونه، ويعيشون على أرضه، ويشاركونه لقمة العيش[1].

علمياً، لا يُمكن أن نتصور أي تبادل صحي في المنافع ـ الاقتصادية والمعرفية والحضارية عموماً ـ بين فرقاء يسود بينهم الكره المؤسس على انطباعات سيئة. ونحن ـ العرب والمسلمين ـ لا يمكننا أن نعيش في عالم مغلق علينا، فهذا غير ممكن، وغير مطلوب، وغير مرغوب فيه من أي عاقل، مهما كانت توجساته تجاه هذا الغرب.

ثقافياً، يصعب أن نتصوّر أي نمو ثقافي لدى أي كيان وطني، في عالم اليوم، من دون انفتاح على العالم الواسع، الذي بات ـ في ظل ثورة حقيقية في وسائل الاتصال والوسائط الرقيمة ـ مجرد قرية صغيرة بالفعل، وفي هذه القرية، تذبل الثقافة النوعية لأي جماعة بشرية إذا دمغ أصحابها بأنهم أبناء ثقافة معادية لبقية البشر[2].

الصورة تتغير والصيحات تتوالى

قطعاً هناك تغيرات لحقت وتلحق بصورة العرب والمسلمين في الغرب في الفترة الأخيرة، ولنترك مناقشة مبرراتها وآليات حدوثها الآن، ملتقطين ملامح هذه التغيرات من واقع صيحات لعربٍ ومسلمين يعيشون في الغرب، أو يتابعون ما يحدث في الغرب، وتثقل عليهم هذه التغيرات.

---

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

في أكتوبر الماضي، قال د. محمود المسيري، إمام ومدير المركز الإسلامي في مدريد: «تشهد وسائل الإعلام الغربية، منذ عدة سنوات، حملات واسعة لتشويه صورتنا الثقافية والدينية أمام الرأي العام في بلدانها، وفي العالم كله، مستخدمة وسائل متعددة لتزييف الحقيقة من التحيز والمبالغة، إلى السطحية والتكرار، لتحفر في الأذهان صورةً مشوهةً عن الثقافة العربية والإسلامية. وتكون النتيجة شحذ مشاعر الكراهية والخوف بدرجة تحجب أي صوتٍ عاقل، أو خطابٍ منطقي يهدف إلى بيان الحقيقة المجرّدة»[1].

ومن موقع «الوحدة الإسلامية» يقول د. جمال شقرة، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر: «امتلأت وسائل إعلام أمريكية وأوروبية عدّة، خلال السنوات القليلة الماضية، بعناوين مثيرة مثل: «القنبلة الإسلامية قادمة، الحرب الإسلامية ضد الحداثة، الحروب الصليبية ما زالت مستمرة، الهلال الجديد في أزمة». ولاحظ جون أسبوسيتو ـ مدير مركز التفاهم الإسلامي / المسيحي بجامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية ـ أن هذه العناوين جذبت الاهتمام، وشوّهت الحقائق حول العالم الإسلامي وعلاقاته المتنوعة مع الغرب، من ناحية، ومن ناحية أخرى، كرست تلك العناوين «درجة الجهل المذهل بالعرب والإسلام.. لدرجة أن عديداً من الناس في دولِ الغرب، لديهم مسلّمة بديهية، وهي أن العرب ما هُم إلا بدو، أو أثرياء نفط يسكنون

(1) المرجع السابق.

الصحراء، أو الحرملك، وأن العربي انفعاليٌ، مقاتلٌ، ولا يُخضع تصرفاته للعقل».

«صناعة الخرافات لإثارة الرعبِ من المسلمين حرفة قديمة»، من ذلك ما ذكره الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه «اقبض على اللحظة»، من أن الإسلام قوةٌ هائلةٌ، وأن تزايد عدد سكانه والقوة المالية التي يتمتع بها تشكلان تحدياً رئيسياً للغرب، وأن الغرب مضطرٌ إلى تشكيل حلفٍ جديد مع موسكو، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، لمواجهة عالم إسلامي معادٍ ومعتدٍ. فالإسلام والغرب، حسب تصوره، متناقضان ومتباينان. وورد في هذا الكتاب أن المسلمين ينظرون إلى العالم على أنه منقسم إلى معسكرين، لا يمكن التوفيق بينهما: معسكر أو دار الإسلام، ودار الحرب. وأكّد نيكسون في هذا الكتاب على ضرورة أن يستعد الغرب للمواجهة الحاسمة مع العالم الإسلامي، الذي يُشكل واحداً من أعظم التحديات السياسية الخارجية للولايات المتحدة في القرن الواحد والعشرين. والشيء نفسه فعله شارلز كروثامر، عندما كتب في الـ «واشنطن بوست» في 6 فبراير 1990 حول: «هلال الأزمة الجديد»[1].

محاولة للتفسير

لقد مثلت هذه العينات من الجهر بالشكوى، مما يراه أصحابها

(1) المرجع السابق.

اعتداءً على العرب والمسلمين ودينهم عبر الإعلام الغربي، وبعض النشاطات الفكرية والأكاديمية الغربية، لكن المتابع ـ في حدود المتاح ـ لما ينتجه الغرب من عطاءات فكرية وبثٍ إعلامي، لا يمكن أن يستنتج تكريس الغرب مجمل هذه النشاطات لهذه الغاية وحدها، فثمة اجتهادات غربية منصفة، تُقدِّم خطاباً مختلفاً ملؤه العقلانية والمنطق والعدل المعرفي والتاريخي عن العرب والمسلمين، وأوضح مثال على ذلك هو جون اسبوسيتو، الذي وردت الإشارة إليه كأحد المدافعين الغربيين عن حقيقة الثقافة الإسلامية في مواجهة موجات التشويه، التي أشارت إليها العينات السابقة[1].

لا شك في وجود التحامل من بعض الجهات في الغرب لتشويه الحقيقة الإسلامية والعربية من زاوية المعتقد والثقافة، لكن يظل هذا عمل تيار محدد، وربما محدود، وليس توجهاً للكل الغربي إزاء العرب والمسلمين. وقد يكون لهذا التيار تأثيرٌ أكبر من حجمه الحقيقي في الحياة الغربية، لأسباب نحن مسؤولون عن بعضها، وسيأتي وقتٌ للحديث عنها، لكنه يظل جزءاً من الغرب وليس كلاً، ويبقى أن نتساءل عن دوافع هذا التيار ومبرراته، ثم نتساءل بالضرورة عن دورنا نحن في كل ذلك.

لا شك أن صورة العربي والمسلم في الإعلام الغربي، وبعض التقارير البحثية، قد لحق بها الكثير من التشويه. ولنسلم بأن وراء الكثير

---

(1) المرجع السابق.

من هذا التشويه أقلاماً وعقولاً معادية للعروبة والإسلام لأسباب عديدة، سياسية وعنصرية، بل بعضها يعمل بمنطق الثأر التاريخي. لكن الوقوف عن هذا الحد لا يكفي لإبراء الذات، ولا لإسقاط المسؤولية. فتراكم العمليات البشعة التي نسبت لعربٍ ومسلمين، سواء بالحق أو بالباطل، وسواء كان هؤلاء العربُ والمسلمون عقولاً مدبرةً، أو مجرّد أدوات فيما حدث ويحدث، فإن دورنا المضاد للتشويه يتطلّب جلاءً ساطعاً لنفورنا من العمليات التي يُذبح فيها البشر، وتُقطع الرؤوس أمام عدسات الفيديو. كما ينبغي أن يقوم العرب والمسلمون أنفسهم بحملات مضادةٍ لمحو التشويه عبر نوافذ الإعلام العربي والغربي على السواء، لنبذ هذا التمثيل البشع بالكيان البشري، خاصة عندما يتعلق الأمر بمدنيين عُزّل، ونساء، وأطفال، ليس لهم عيرٌ ولا نفير فيما يحدث للعرب والمسلمين، سواء ضحايا قطار مدريد، أو أطفال مدرسة أوسيتيا الروسية، أو خطف موظفي الإغاثة والعمل الإنساني والصحفيين. لا بدَّ من حملات مضادة لمحو هذا التشويه، ليس عن الإنسان العربي والمسلم فقط، بل أيضاً عن العقيدة الإسلامية السمحة، والتقاليد والقيم العربية. فهي جميعاً لا تقرّ إهانة الإنسان، حياً كان أو ميتاً، ولا تقبل ترويع الآمنين العُزل. إنها قضية أخلاقية، ومعاشية، وثقافية، ودينية، ودنيوية، تتطلّب رأياً عاماً عربياً وإسلامياً واضحاً وكاسحاً، ينبع من الداخل، ويشع على الخارج[1].

---

(1) المرجع السابق.

العرب من منظور غربي:
ألم الفشل وأمل الإصلاح

«داخل العالم العربي» عنوان كتاب صدر في لندن، وقام الكاتب الكويتي محمد الرميحي بعرض أبرز إشكالياته على صفحات مجلة العربي (كانون الثاني 1995)، يقول الرميحي:

مايكل فيلد Michael Field صحفي بريطاني يعمل في جريدة الفاينانشيال تايمز وهو مهتم بالشأن العربي وله كتابات سابقة على هذا الكتاب الذي أريد أن أقدمه وعنوانه «داخل العالم العربي» صدر في نهاية العام الماضي 1994 ـ وهو كتاب صريح، يمكن أن يوصف بأنه صورة شبه كاملة لوصفة مفادها «كيف يرانا الآخرون؟». وليس بالضرورة أن نقبل كل ما جاء في هذا الكتاب من تفاصيل، إلا أنه من الخطأ أن نغض بصرنا عنه، وما سأقدمه هنا لا يعني الإحاطة الشاملة بما يريد الكاتب أن يقول، ولا غنى لمن أراد أن يقرأ الكتاب. يقول الناشر منوّهاً إن هذا أول كتاب يصدر بالإنجليزية عن العرب (كمجموع) بعد احتلال العراق للكويت وتحريرها. ويسرد لنا الكاتب قائمة طويلة بأسماء الذين قابلهم من العرب وغيرهم لوضع هذا الكتاب، كذلك فإنه

يشير إلى خبرته ومقابلاته السابقة والدراسات الأخرى عن العرب في سياق كتابه. والكتاب من قسمين سماهما الكاتب: الفشل والإصلاح.

«الفشل» قصير لا يستغرق سوى ثمانية فصول لا غير، ولكن «الإصلاح» عسير يأخذ من حجم الكتاب عشرين فصلاً كاملة.

الفشل العربي

لماذا فشل العرب وأين فشلوا؟. هذا هو السؤال الأساسي الذي يطرحه الكاتب في قسمه الأول.

يعتبر الكاتب أن الفشل العربي السياسي والإقتصادي قد امتدّ لأكثر من خمسة عقود بعد الحرب العالمية الثانية وهناك شعور بين العرب ـ من وجهة نظره ـ بالخيبة وعدم الثقة بالنفس، وهو يقدم من التجربة الجزائرية مثالاً لهذا الشعور بالخيبة، وهي خيبة عبّر عنها الرئيس الراحل هواري بومدين ـ قبل المشكلات الأخيرة ـ قائلاً: (لقد عملنا من أجل الاستقلال، ولكن حلاوته سرقت من شفاهنا). ويرى الكاتب أن الخيبة والفشل ظاهرة عامة في الدول العربية ومن مظاهرها الديون المتزايدة لمعظم هذه الدول لمؤسسات مالية أو دول خارجية الأمر الذي يقود في النهاية إلى معادلة طرفها الأول أن الدولة التي لا تستطيع أن تضمن إيجاد عمل لمواطنيها أو تقديم الخدمات التي عودتهم عليها السنين الماضية لا بدّ أن تقدم مقابلاً لذلك «الطرف الثاني من المعادلة» أن تقدم تنازلات سياسية. إلا أن المعضلة أن هذه التنازلات السياسية قد تقود ـ في نظر الكاتب ـ إلى فوضى إن هي قدمت بسرعة ودون تخطيط

تدريجي، حيث ينقل عن أحد الثقات قوله: (إن الديموقراطية العربية كالدواء يمكن أن تقتل إذا أُخذت بجرعات كبيرة)!.

ويلاحظ الكاتب أن تعطيل خطوات الديمقراطية الشاملة هو ما سمّاه التحدي الأصولي فبعض الإسلاميين ـ كما يقول ـ رجال دين مثاليون لا شك في ذلك إلا أن معظمهم يستخدمون الشعار الديني للوصول إلى السلطة، ويؤيدهم الكثيرون لا لأسباب خاصة بهم ولكن لأن هؤلاء لهم موقف من الآخرين أو السلطة القائمة.

سنوات الليبرالية ورد الفعل

سنوات الاستقلال الأولى أوجدت حكومات ليبرالية كانت حريصة على القطاع الخاص والمبادرة الفردية، وحرية التجارة وحرية الانتقال، وحرية القول، وامتدّ العصر الليبرالي منذ الاستقلال حتى نهاية الأربعينيات، بدرجات مختلفة، إلا أن هزيمة سنة 1948 وظهور دولة إسرائيل أحدثا العديد من ردود الفعل العربية، وكان سببها المباشر أن الجيوش العربية فسّرت تلك الهزيمة بتخاذل الحكومة العربية التي أدخلت إلى الحرب جيوشاً لم تكن مستعدة ولا مجهّزة، وتزامنت الانقلابات العسكرية بتحوّل العالم إلى حرب باردة. ومن أجل تعبئة الجميع ـ كما رأى المسؤولون الجدد ـ صار التحول التدريجي إلى الاشتراكية العربية، وهي محاولة لإيجاد صيغة ما تناسب الثقافة العربية ولا تندمج مع الممارسات الماركسية، فقط الدولة الوحيدة التي أعلنت ماركسيتها هي دولة اليمن الجنوبي، أما بقية التجارب العربية فقد كانت

تعبيراً عن الجو العام الذي أخذ يسود العالم الثالث، وكان الهدف هو البحث عن توليفة سياسية / اقتصادية لتسريع الحديث، إلا أن هذا التسريع ومحاولة تعبئة موارد المجتمع لملاقاة التحدي الذي فرضته إسرائيل سرعان ما وصل إلى مرحلة مخيّبة للآمال من جديد، وهي هزيمة 1967، التي تُعد بمثابة الكارثة الثالثة للعرب بعد هزيمة عام 1948 قبلها، واحتلال العراق للكويت سنة 1990 بعدها.

المراوحة الاقتصادية

جزء كبير من الكتاب، سواء في قسم الفشل أو قسم الإصلاح يخصصه الكاتب لمناقشة الاقتصاد العربي. فخلال عشرين عاماً بعد تصحيح أسعار النفط 1973، كان دخل العرب من النفط حوالي ترليوني دولار، بعض هذا الدخل استغلته الدول المنتجة، وبعضه (أكثر من 100 بليون دولار) حوّل إلى الدولة العربية الأخرى في شكل هبات أو قروض ميسرة. ولم يحدث هذا المال ـ في أي مكان كان ـ معجزة اقتصادية تماثل ما حدث في دول جنوب شرق آسيا مثل كوريا وتايوان أو سنغافورة.

ويفسر الكاتب السبب في فشل هذا المال في تحقيق معجزة اقتصادية بأن المال وحده ليس بالضرورة مسبباً جيداً للتنمية. رأس المال تحتاج إليه الدول لبناء الموانىء والطرق وشبكات الاتصال وبعض البنى التحتية وكذلك المدارس والمستشفيات، ولكن.. من أجل إقامة صناعة متطورة وخدمات مثمرة فإن الدولة ـ أية دولة ـ تحتاج إلى أكثر من المال،

تحتاج إلى الاستقرار السياسي وقوة عمل واعية ومنظّمة وملتزمة وسوق قريب نشيط. والعديد من الدول العربية تنقصها هذه العوامل بتدريسها في الجامعات، ويتكدّس الطلاب العرب في صفوف التعليم الأدبي والاجتماعي أما التعليم العلمي المميز أو التطبيقي فإن نسبته قليلة، ولا يترك الكاتب الموضوع الاقتصادي إلا بعد أن يستعرض مجموعة من أشكال الفشل التي انتابت مشروعات الاستثمار العربي / العربي - خاصة تلك المشروعات التي انطلقت من دول الفائض المالي (الخليج في السبعينيات والثمانينيات) إلى بلدان الكثافة السكانية.

البحث عن استجابة

عدد سكان البلاد العربية حوالي 30 مليون نسمة (تقريباً) موزعين في بلدان ثقل عربي وبلدان قليلة الكثافة السكانية، ثلثاهم في إفريقيا والثلث الثالث في آسيا، وعدا المصريين في وادي النيل وسكان الأهوار في العراق (قبل التجفيف الأخير للأهوار) الذين يعيشون بقرب الماء، فإن معظم العرب يعيشون على حواف الصحراء، وهذا ما أعطاهم النظر إلى الخارج، ومعظم الاقتصاد السائد في البلدان العربية هو اقتصاد الخدمات وخاصة المتعلقة بالتجارة والتوزيع وإدارة المحلات الصغيرة، والكثير من رجال الأعمال صنعوا ثرواتهم من الاتّجار بالعقار، والمقاولات، والاستيراد، والنقل وأخيراً السياحة. ولقد كان دخل مصر من السياحة في بداية التسعينيات يساوي مجموع الدخل من النفط والمعونة الأمريكية وما يرسله المهاجرون المصريون لذويهم.

ولا يوجد بلد عربي لديه قطاع أساسي في الصناعة غير صناعة البتروكيماويات في المملكة العربية السعودية، وصناعة الملابس في تونس والمغرب أما المستثمرون الخواص فلا يستخدمون أموالهم ـ عدا ما يحدث في السعودية ـ لأسباب إما سياسية أو مزاجية مما جعل الاستثمار الرئيسي يقوم به القطاع الحكومي ـ غير الكفؤ ـ المقيّد بالقيود البيروقراطية.

ويرى معظم العرب هذه الصورة المشوّشة من الحروب والهزائم والفشل الاقتصادي، على أنها وضع غير عادل وغير متوقع، وحيث إنه في ذهن كل عربي تاريخ الأجداد العظام انتصارات السلف الصالح وما سمع وقرأ من مساهمات كبيرة في الحضارة العالمية، لهذا كله فإن المسافة بين المأمول والواقع مسافة كبيرة، وهي التي تسبب كل هذا الإحباط. هناك قيم مشتركة لدى الطبقات العليا في العالم الثالث منها حديثة، متسامحة، مادية، ودولية. ويشارك بعض العرب في هذه القيم، ولكن الجماهير العربية الأعرض لا تنسى جذورها الأكثر قدماً والأكثر عمقاً ولا تنفك عن ثقافتها التقليدية. لذلك فإن ردة فعل هذه الجماهير ليست قبول الأفكار الجديدة والتكيّف معها، بل رفضها والبحث في تاريخهم عن حلول لمشكلاتهم عربية وإسلامية.

هذا التوجه هو الذي يجعل الجماهير العربية رافضة للغرب وهو رفض ليس بجديد. فقد رفض العرب ـ تحت الحكم العثماني ـ الاحتكاك بالغرب، لذا نجد أن معظم من تعاطى التجارة مع الخارج، وبالتالي حصل على شيء من التعليم، كان إما من الأجانب القاطنين في البلاد العربية أو من المسيحيين العرب.

في آخر القرن التاسع عشر نجد النفور من نفوذ الغرب قد ظهر في ردة فعل عرابي باشا ضد حكم الخديو توفيق وضد الأوروبيين الذين تحكموا في ميزانية الدولة وقتها، وكذلك خلال العشرين سنة الماضية ظهرت دعوات الإسلام السياسي.

لقد أُضيفت عوامل جديدة إلى العوامل القديمة، فعلاقات الدول العربية البينية تتغير، وكذلك علاقاتها بإسرائيل تتغير، وهي متغيرات جذرية لا بد أن تؤثر في ما كنا نعرفه ونتوقعه من استقرار واضطراب من توجه إلى الأمام أو النكوص إلى الخلف.

ذلك ملخص لما يريد أن يقوله الكاتب في كتابه، وهو بالفعل جولة داخل العالم العربي ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ وأفضل ما فيه هو الرصد الموضوعي في معظم الأوقات للظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية العربية. وهو يتركنا على مفترق طرق، إما التوجه إلى الأمام عن طريق الإصلاح الاقتصادي والسياسي أو النكوص إلى الخلف لمزيد من الفرقة والتشرذم وربما الحروب.

ولا توجد طرق سهلة للشعوب لاجتياز مشكلاتها، فقط توجد عقول تنير الطريق إلى الأمام.

العرب.. وفجوة العقل الإعلامي[1]

تعني فجوة العقل الإعلامي وجود رؤى نظرية عدة في حقل الإعلام، تتباين أسبابها وتداعياتها لدى علماء الاتصال والإعلام والممارسين الإعلاميين وجمهور المتلقين، وفي إطار المحاولات الدؤوبة، التي تقودها القوى المتحكمة في السوق العالمية من أجل عولمة الثقافة والتعليم والدين.

في ظل الصراع الثقافي، والتحديات الحضارية، تبرز فجوة العقل الإعلامي، حيث لم تعد تكنولوجيا الاتصال والمعلومات تشغل موقعاً مركزياً فحسب في شبكة الإنتاج، بل أصبحت تشغل موقع القلب في استراتيجية إعادة تشكيل منظومة العلاقات الدولية على المستوى السياسي بين الحكومات، وذلك بالترويج لما يسمى بـ «الشرعية الدولية» ومعاييرها المزدوجة، وعلى المستوى الثقافي بين الثقافات المختلفة بإعلاء شأن الثقافة الغربية، وعلى الأخص الطبعة الأمريكية منها، وتهميش ثقافات الجنوب، وعلى المستوى الاتصالي بالترويج لما يسمى «القرية الاتصالية العالمية»، متجاهلاً عن عمد التفاوت الحاد بين

(1) عواطف عبد الرحمن، مجلة العربي، كانون الثاني 2006.

معدلات التطور الإعلامي والمعلوماتي بين أجزاء العالم شمالاً وجنوباً، سواء تمثل ذلك في تكنولوجيا المعلومات والاتصال، أو في الإشعاع الإعلامي والمعلوماتي.

وتتجلى فجوة العقل الإعلامي في ثلاثة مجالات رئيسية:

أولاً: تعددية الرؤى الفلسفية والنظرية في هذا الحقل المعرفي المهم.

ثانياً: تنوع الممارسات المهنية في وسائل الإعلام المقروء والمرئي والمسموع.

ثالثاً: طبيعة الجمهور المتلقي، والتي تزخر بكثير من التباينات الاقتصادية والثقافية والديموجرافية، علاوة على تعدد مستويات الوعي السياسي والاجتماعي.

وتحفل الساحة الغربية «الأوروبية والأمريكية» بالعديد من التيارات والرؤى النظرية، التي توجه بحوث الإعلام والاتصال، فهناك الرؤية الوظيفية البراجماتية، التي سادت في الولايات المتحدة خلال أربعة عقود، وما زالت مسيطرة على معظم الباحثين ودارسي الإعلام في دول الجنوب، وعلى الأخص العالم العربي، وتعتمد على المنظور الإمبيريقي المعزول عن سياقاته الاجتماعية والثقافية، وترى أن الإعلام هو أداة التحديث في المجتمعات النامية، فيما يرى أنصار التيار النقدي الذي انبثق من التراث النقدي للفكر الاجتماعي الأوروبي، أن سيطرة الإعلام الغربي على وسائل الإعلام في دول الجنوب، تعد إحدى

أدوات الاستعمار الثقافي الذي يروّج لأساليب الحياة، والقيم الغربية، ويحاول فرضها على مجتمعات الجنوب.

ويؤكد هذا التيار أن الإعلام يثير إشكالية تتمثل في كونه يلعب دوراً مزدوجاً سواء على الصعيد الدولي أو المحلي، إذ يمكن أن يعبر عن الهيمنة الكونية للغرب، ويمكن أن يكون وسيلة لإحياء وإنعاش الثقافات القومية في الوقت ذاته. كما يمكن استخدامه أداة للضبط الاجتماعي وتكريس التبعية الثقافية في دول الجنوب. ويحرص الباحثون المنتمون إلى التيار النقدي على تأكيد الحقيقة، التي تشير إلى أنه لا توجد نظرية للاتصال بمعزل عن النظرية الاجتماعية العامة. ولذلك يركز أنصار هذا التيار النقدي على دراسة الظواهر الإعلامية والاتصالية في إطار السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي الذي أفرزها وتفاعل معها. وهناك الرؤية الماركسية، التي تؤكد على مخاطر سيطرة رأس المال على الإعلام وهيمنة ثقافة وفكر الطبقات المسيطرة سياسياً واقتصادياً على السياسات والممارسات الإعلامية، بينما يركز أنصار التيار الليبرالي على دور القائمين بالاتصال، باعتبارهم منتجي المادة الإعلامية وحرّاس البوابات، ويتأثرون بتوجيهات صنّاع القرار في المؤسسة الحاكمة ومصالح القوى الاقتصادية المتحكّمة في السوق، ويؤثرون بصورة حاسمة في تشكيل اتجاهات وقيم الجمهور والرأي العام. ويعزى هذا الخليط النظري والمنهجي الذي يتميز به حقل الإعلام والاتصال إلى الظروف التي صاحبت نشأته، فقط ظل هذا الحقل حتى بداية الستينيات

موضع ارتياد وهجرة العديد من الباحثين، الذين ينتمون لمختلف فروع العلوم الاجتماعية والإنسانيات «السياسة ـ علم النفس ـ علم الاجتماع ـ اللغويات ـ التاريخ. . إلخ» ولذلك ـ وكما لاحظ والبور شرام العام 1980 ـ، ظلّ هذا الحقل مجرد إطار تجمّعي للتخصصات المختلفة أكثر منه تخصصاً مستقلاً له مداخله النظرية وأساليبه المنهجية وأدواته التحليلية، وقد ترتّب على ذلك عدم ظهور بنية بحثية مستقلة لهذا الفرع المعرفي، ولكن بدأ هذا الوضع يتغير تدريجياً منذ نهاية السبعينيات، عندما بدأت حركة المراجعة لهذا التخصص. وقد ساعد اكتشاف نظم الاتصال ذات التأثير المتبادل، واتساع الرقعة الجغرافية للبحوث الإعلامية، وتشابك الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية، على تحرير بحوث الاتصال من هيمنة النظرية الرياضية، التي تتمثل في النماذج الهندسية المغلقة، والتي ظلّت تحظى بتأثير ملحوظ على امتداد عقود زمنية عدة، كما تركت بصماتها على العديد من التخصصات، مثل علم النفس واللغويات والاجتماع. ومن أهم أوجه النقد، التي وجهت إلى هذا النموذج الهندسي غلبة الطابع الإجرائي على حساب الجوانب النظرية، مما ترتب عليه استبعاد السياق الذي تجري في إطاره العمليات الاتصالية، وانتشار المناهج الكمية، التي لا تزال تسيطر حتى اليوم على معظم بحوث الاتصال والإعلام، وذلك بالرغم من تصاعد الاهتمام بالمناهج ذات الطابع التحليلي، والمستندة إلى أطر نظرية، والتوسع في استخدامها في السنوات الأخيرة.

الأداء الإعلامي

تتجلّى فجوة العقل الإعلامي على الصعيد الأدائي في مجالي السياسات والممارسات الإعلامية عالمياً ومحلياً، وتعزى أساساً إلى أسباب عدة، أبرزها:

1 ـ الصراع التاريخي بين الصحفيين من ناحية، والقائمين على السلطة، وأعني بها كل أنواع السلطة «الاجتماعية والاقتصادية والسياسية»، في مختلف المجتمعات والعصور، ويرجع ذلك إلى التناقض الجذري بين مصالح هؤلاء المتسلطين وبين جوهر مهنة الصحافة، التي تستهدف تقصي ونشر كل صور وأشكال الفساد وسوء الإدارة والظلم الاجتماعي والقهر السياسي، مما يصطدم غالباً بمصالح السلطة، التي لا تتوانى عن اللجوء إلى العنف المباشر الذي يصل إلى حدِّ السجن والاغتيال والنفي من الأوطان للصحفيين.

2 ـ الفجوة بين التعليم والبحث العلمي الأكاديمي في حقل الإعلام وبين الممارسة المهنية وضوابطها السياسية والاجتماعية، وضغوطها وإغراءاتها الاقتصادية.

3 ـ العامل الدولي والذي يكمن في تركة التبعية الإعلامية «القيم الإخبارية ـ المسلسلات والمنوعات والإعلانات»، فضلاً عن عدم التوازن في انسياب المعلومات من الشمال إلى الجنوب، ورسوخ الاتجاه الرأسي أحادي الجانب للإعلام القادم من أعلى إلى أسفل من المراكز الدولية المهيمنة على التكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية ومصادر

المعرفة والتراث الإعلامي إلى الأطراف الأفقر في الجنوب، ومن الحكومات إلى الأفراد والشعوب، ومن الثقافة الغربية المسيطرة إلى الثقافات التابعة في الجنوب.

تتجلى فجوة العقل الإعلامي في المواقع الهامشية، التي يشغلها جمهور المتلقين، حيث تتعامل معهم وسائل الإعلام باعتبارهم مستهلكين، وليسوا مشاركين أو محاورين، وتستند في ذلك إلى النظرة التقليدية إلى الاتصال، التي تعمد إلى إفراغه من محتواه كعملية اجتماعية، وذلك بقصر أدواره على الوظيفة الإعلامية ذات الطابع الإقناعي الدعائي في أغلب الأحيان، وذات الاتجاه الرأسي الأحادي. ولا شك أن الطابع الاجتماعي للاتصال باعتباره أحد وجوه التعبير عن الحرية بمعناها المتكامل يطرح ضرورة توافر فرص متكافئة لضمان وتفعيل الحقوق الاتصالية للأفراد والجماعات والدول، كما يؤكد أن ديمقراطية الاتصال ليست مسألة فنية فحسب، كي تترك في أيدي الإعلاميين والمعلوقراطيين «سواء الممارسون أو الأكاديميون»، وإنما هناك ضرورة لتحقيق ديمقراطية الاتصال من خلال اشتراك الجمهور في صنع السياسات الإعلامية والمعلوماتية على مختلف المستويات.

هل الرأي العام العربي خرافة؟

في صحيفة الشرق الأوسط (24/ 1/ 2006) سأل الصحافي غسان الامام:

ما هو الرأي العام؟

هو الاتجاهات والميول السائدة، في وقت ما وظرف معين، لدى الغالبية الكبرى في المجتمع.

كيف يتشكّل الرأي العام؟

عوامل كثيرة تلعب دورها: التراث الديني والسياسي. التقاليد الاجتماعية. الثقافة العامة بما فيها الذهنية والمزاجية وطرائق التفكير والتعبير والسلوك.

هذا هو الثابت في تشكيل الرأي العام. ثم تأتي العوامل والمؤثرات الخارجية المختلفة التي تشكل المتحول والمتغير في موقف الرأي العام.

المجتمع الصحي السليم يملك حداً أدنى من إجماع الرأي العام على مبادىء وثوابت تدخل في تصميم الاعتقاد العام. هناك في مجتمعات أوروبا الغربية والوسطى إجماع عام على الإيمان بالحرية والديمقراطية، وفصل الدين عن السياسة، وفصل النظام السياسي عن

الدولة، وفرض سلطة الدستور والقانون لمنع النظام من احتكار السلطات الثلاث أو الخلط بينها.

منذ نحو نصف قرن، باتت هذه الثوابت والمبادىء راسخة لدى الرأي العام الغربي. فهي قضية حياة أو موت لدى المواطن الأوروبي، بحيث أي مساس فيها كاف لإثارة اضطراب اجتماعي واسع، يتراوح بين الثورة والعنف، وتغيير النظام وتداول السلطة بالسلم عبر الاقتراع الحر.

شيوع هذه القيم السلمية بين حربين أوروبيتين مهلكتين، أتاح المجال لإضافة «قيم إنسانية» إلى اعتقاد الرأي العام الغربي، وفي مقدمتها ثقافة حقوق الإنسان. بات المواطن الغربي يرغب في أن يذهب إلى العالم النامي سائحاً لا جندياً، وداعية لنشر هذه الثقافة في مجتمعات العالم الجديد.

من هنا، يأتي خطر التفكير القاصر لدى المرجعيات الدينية الإسلامية في تكفير منظومة حقوق الإنسان التي أرساها ميثاق دولي بعد الحرب العالمية الثانية. ومن هنا أيضاً، يأتي التفكير والتخطيط المتخلف والخطير لدى المنظمات التكفيرية لمعاقبة المجتمعات الأوروبية المسالمة، ومحاسبتها بالدم والعنف على سياسات حكوماتها التي ورطتها أمريكا، مثلاً، في حرب العراق.

هل المجتمع العربي يملك حداً أدنى من إجماع الرأي العام فيه؟ أو بالأحرى، هل هناك رأي عام في العالم العربي يملك جملة مبادىء وقناعات متفق عليها؟

المجتمع المأزوم، كالمجتمع العربي، لا يستطيع أن يشكل حداً أدنى من الإجماع على مبادىء وقيم تعبر عن اتجاهات وميول عقلانية ومنطقية لديه. بل أذهب إلى الاعتقاد بعدم وجود رأي عام عربي مؤثر أصلاً! ودليلي هذه الآراء والاتجاهات العجيبة المبعثرة التي تعبر عن تناقضاتها وتمزقها في ما تقرأ وتسمع وتشاهد في المجتمع ووسائل الإعلام.

بتفصيل أوضح، أقول إن هناك فارقاً بين الرأي العام والشارع الشعبي. الرأي العام يعبر عن اتجاه التيارات المثقفة والواعية سياسياً واجتماعياً. رجل الشاعر تتملكه العواطف والقناعات التي تشكل ردود فعل اعتباطية على سياسات داخلية وخارجية.

في المجتمع الصحي، يغيب التباين بين الرأي العام والشارع الشعبي، لأن هناك حداً من الإجماع الواعي على مبادىء وقناعات. في المجتمع العربي المأزوم، تتمزق الآراء والمواقف والقناعات لدى النخبة المثقفة والسياسية. هذا التمزق النخبوي، مضافة إليه القناعة الشارعية والشعبية المتزايدة بأن الماضي هو طريق المستقبل، والإحساس بالانحياز الرسمي الغربي الفاضح ضد القضايا العربية. . كل ذلك يجعل موقف النخبة والشارع غائماً وفوضوياً، ويستحيل الركون إليه كتعبير عن اتجاه أو موقف عام نافذ ومؤثر في القرار والسياسة.

أنت لا تستطيع أن تحكم على اتجاهات الرأي العام في غياب السبر والاستفتاء. باستثناء فلسطين والأردن وربما المغرب، تحول سلطوية النظام العربي وخوفه من الرقم، دون حرية السبر، وحتى مراكز

الاستفتاء ووسائله في البلدان المذكورة غير موثوقة في صحتها ودقة رقمها.

وهكذا، فالحرية ليست الهمّ الأول في المجتمع المأزوم. الأمن هاجس النظام. الخبز هاجس المجتمع المحروم. حتى الحرية ليست في المقام الأول لدى المثقف السياسي العربي. هناك على المنابر السياسية، مثقفون قوميون لا يستحون من الدفاع عن الطاغية صدام كـ «بطل قومي»! الشارع الشعبي المتدروش يتقبل براحة ولا مبالاة خطاب ابن لادن ووكيليه الظواهري والزرقاوي في تكفيرهم الحرية والديمقراطية!

قد تقول لي: هناك رأي عام عربي يكاد يجمع على اعتبار الماضي طريقاً للمستقبل، ألا ترى تقدم الحزب الديني حيثما أتيحت له، كما في مصر والأردن والجزائر وفلسطين والمغرب، حرية الاقتراع؟

أجيب بأن الحزب الديني، في تقدمه الانتخابي والشعبي، يعبر أصدق تعبير عن أزمة المجتمع العربي. لو كان هناك رأي عام حر، ولو كان هنالك شارع شعبي مؤمن بالحرية، لما أتاحا لحزب غيبي التقدم في الاستفتاء الانتخابي، وهو على هذه الانطوائية في نهجه وتنظيمه السري، وجمود مشايخه وقياداته، وعدم قدرته على تجديد فكره على مدى يقرب من ثمانين سنة.

وهكذا أيضاً، فالديمقراطية في آلية الاقتراع، لا تعبر عن وجود رأي عام، في المجتمع المأزوم، رأي عام عاقد العزم على تحييد كل اتجاه سياسي أو حزبي يستغل الإيمان لفرض سقف على العقل والفكر،

ويتدخل للحد من الحرية الاجتماعية والشخصية، كما يجري الآن في إيران التيوقراطية.

ما هو السبيل إلى تشكيل رأي عام عربي؟

الرأي العام الواعي ليس سلعة تستورد من الخارج. القناعات العربية العامة لا يمكن صنعها في مراكز البحوث والدراسات والجامعات الغربية التي يفاخر أثرياؤنا بإمطارها بملايين الدولارات. لم أضرب مثلاً بالرأي العام الغربي دعاية وانحيازاً له، أو لصنع رأي عام على شاكلته، إنما فعلت لأحدد المكوّنات الأساسية التي يستند إليها، ولأقول إنه لا بدَّ من مكونات أساسية يقوم عليها رأي عام عربي.

التلفزيون الذي يبالغ في النقل من الخرائب والمغاور خطب التكفير، ويذهب سراً لتصوير قطع رؤوس المخطوفين، ليقدمها إلى العالم والعرب كسبق صحافي، وتحفيظ المقدس للأطفال بلا شرح وتفسير، وتلقين الأجيال الإيمان بالنقل والتقليد، والحجاج الذين لا يضعون النظام على مستوى القداسة، والمثقفون الذين يتبادلون الصراخ من الأفواه التي يتطاير رذاذها من الشاشة على ملايين المشاهدين البسطاء.. كل ذلك لا يساهم في تكوين وتشكيل الرأي العام.

الضمير الاجتماعي يصنع المستحيل. إذا كانت هناك ثوابت معينة في المخيلة العربية، فالمتحول أو المغير يجب أن يكون من صنع التيارات العربية المثقفة، عندما تكون قادرة على الارتفاع بضميرها الاجتماعي، هي أيضاً، إلى مستوى القداسة.

ما من كاتب وحده يستطيع أن يحدد مكوّنات الرأي العام في مجتمعه. عملية تشكيل قناعات الرأي العام واتجاهاته الثابتة والمتغيرة تستغرق وقتاً وتتطلب ظروفاً، وتشارك فيها تيارات ثقافية وسياسية عدّة. وألح على القول هنا إن هناك حداً من الإجماع على هذه المكونات، على أن لا يمنع الإجماع التنوع في الرأي، من دون تجاوز الخطوط الحمر للاختلاف الذي يمزق اليوم المجتمع العربي المأزوم.

النخبة المثقفة الواعية سياسياً واجتماعياً هي، إذن، صانعة الرأي العام، كي لا يظل الأحياء خاضعين «للإدارة الطاغية للأموات»، كما قال غوستاف لوبون قبل مائة سنة. وإذا لم تكن الحرية ملهمة الضمير المثقف والسياسي وأيضاً النظام، وهاجساً يشغل الشارع الشعبي، فأي حديث عن رأي عام عربي نافذ ومؤثر وفاعل في القرار والسياسة، هو مجرد خرافة، مجرد باطل وقبض ريح.

انفجار الشارع

الرسوم المسيئة

قبل أن تبرز إلى الواجهة قضية الكاريكاتير الدانماركي، سبق أن عرفت أوروبا عدة قضايا مماثلة تتعلق بالتهجم والإساءة إلى الرموز والمعتقدات الإسلامية. حيث لم تجد هذه القضايا الصدق المماثل فمثلاً، قضية قانون الحجاب الفرنسي أثارت بعض الضجة، قبل عامين، لكنها كانت تتعلق بتشريع قانوني يندرج ضمن الشأن الداخلي الفرنسي، لذا لم يكن لتظاهرات الاحتجاج والحملات الإعلامية ضد ذلك القانون في العالم الإسلامي، أي تأثير ملموس.

بالمقابل، خلال الموسم الدراسي ذاته 2004 ـ 2005، أثيرت في فرنسا قضية تربوية أخرى تتعلق بقضية مدرِّس تاريخ يدعى لويس شانيون، تسبب في ضجة وحركات احتجاجية من قِبل الجمعيات الإسلامية الفرنسية، بعد أن تهجَّم على الرسول محمد(ص)، في أحد دروس التاريخ، ووصفه بأنه شخص يتّسم بما أسماه «ميولاً قتالية».

وتحت ضغط الجمعيات الإسلامية، وجمعيات حماية الطابع العلماني للتعليم في فرنسا، اضطرت وزارة التربية الفرنسية إلى فصل هذا المدرِّس نهائياً من قطاع التعليم، وهي العقوبة المنصوص عليها

قانوناً في حالات التهجم على الأديان. الشيء الذي يوضح بأن قانون علمانية المدارس الحكومية في فرنسا، وإن كان قد تسبّب للجالية المسلمة في مشاكل بسبب قضية منع الحجاب، إلا أنه في المطلق يعد قانوناً صارماً يمنع أي تهجم على المعتقدات والأديان أو تفضيل أي دين على آخر أو على الترويج له داخل المدارس.

في خريف 2004، أثيرت ضجة أخرى في هولندا، بسبب فضيحة الشريط التوثيقي الذي أنجزه المخرج المثير للجدل ثيو فان غوخ، حول ظاهرة «اضطهاد النساء في الإسلام». وبالرغم من أن هذا الموضوع يُعد إشكالياً، إلا أنه ليس من التابوهات، حيث سبق تناوله مراراً من قبل باحثين غربيين أو مسلمين، وناشطات نسويات كثيرات، لكن فان غوخ، اعتمد أسلوباً استفزازياً تمثّل في تصوير امرأة عارية تعرضت للجلد بالسوط، وقام بتركيب بصري لآيات قرآنية كريمة فوق ذلك الجسد العاري، الشيء الذي أثار غضب واحتجاج الجمعيات الإسلامية في هولندا، لكن كل مساعيها لمنع الفيلم أو تخفيفه لم تلق أي تجاوب. كما أن القضية، بالرغم من كونها بالغة الإساءة، وتفوق خطورتها الرسوم الدانماركية، إلا أنها لم تجد أي صدى في العالم الإسلامي. ولم تشتهر القضية سوى بعد أن أقدم شاب متطرف مغربي الأصل على اغتيال المخرج فان غوخ، يوم 2 نوفمبر 2004.

وفي شهر ديسمبر (كانون الأول) الماضي، في الوقت الذي كانت فيه ضجة الكاريكاتير الدانماركي قد بدأت في التفاعل، بقيت قضية أخرى أكثر إساءة للرسول الكريم، من دون أي صدى في العالم

الإسلامي، ويتعلق الأمر بعرض مسرحي تم تقديمه في جنيف، وهو مقتبس من نص قديم للكاتب الفرنسي فولتير بعنوان: «التطرف أو محمد نبياً». ورغم احتجاجات الجمعيات الإسلامية في جنيف، إلا أن عرض المسرحية استمر، ولم تلق الحادثة أي تعاطف أو تضامن إسلامي خارج سويسرا.

عكست الرسوم الكارتونية جهلاً حقيقياً بشخصية نبي الإسلام وبتعاليم الإسلام، فهو لم يكن إرهابياً بأي وجه من الوجوه، إنما كان داعية للحرية، ومجدداً ومتمّماً لتراث الأنبياء العِظام من قبله، إبراهيم وموسى وعيسى وسائر المرسلين عليهم جميعاً وعلى محمد أتم الصلاة وأزكى التسليم.

نزل الوحي على نبي الإسلام وهو في الأربعين من عمره، فقضى ثلاثة عشر عاماً يدعو أهل مكة للإيمان بالله الواحد والكف عن عبادة الأصنام والأوثان، والقبول بمبادىء المساواة بين البشر، وإقامة العدل، وتحرير المرأة، والكف عن كل أنواع الظلم السياسي والاجتماعي، والالتزام بمكارم الأخلاق.

لكن المستبدين من أصحاب النفوذ في مكة حاربوا النبي(ص) الخاتم واضطهدوا أصحابه وعذبوهم، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية إلى المدينة، وهناك أسّس النبي(ص) أول دولة إسلامية في التاريخ وبناها على دستور موثق ومحفوظ، يضمن العدل والمساواة لكل سكان تلك الدولة، من مسلمين ويهود[1].

---

(1) محمد الهاشمي الحامدي، الشرق الأوسط، 23/ 2/ 2006.

إن المعارك التي اضطر الإسلام لخوضها من أجل حرية الناس وحرية العقيدة كانت أقل الحروب في التاريخ من جهة كلفتها البشرية، إذ قتل فيها عدد قليل جداً من الناس، من المسلمين ومن المعتدين عليهم.

السبب الرئيسي لهذه الظاهرة اللافتة، أن الإسلام دين للحياة، كرامة الإنسان فيه مقررة من عند الله، وهي ثابتة محفوظة للإنسان في كل زمان ومكان، بقطع النظر عن عقيدته ولونه وعرقه ولغته وجنسيته. والسلام هو الخيار الأول للإسلام، بتوجيه قرآني واضح. وقد جسّد النبي محمد(ص) هذه المبادىء عندما حرّر مكة، وبسط السلام والأمان لخصومه الذين اضطهدوه وقاتلوه وشرّدوه، قائلاً لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويشعر المسلمون بالألم أيضاً عندما يتهمون بمعاداة حرية التعبير من طرف بعض الكتّاب والساسة الغربيين. الحقيقة أن حرية التعبير مبدأ شريف ونبيل ينحاز له المسلمون بأغلبيتهم الساحقة، ويكافحون ويقدمون التضحيات من أجله في بلدانهم وفي الساحة العالمية. والحرية أيضاً هدف من أعظم أهداف الإسلام، ومن عظم شأنها في الإسلام أن شرط قبول إيمان الرجل أو المرأة هو أن يكون هذا الإيمان على الإرادة الحرة لصاحبه، لأنه (لا إكراه في الدين)[1].

عن ذات الإشكالية يقول وليد أبي مرشد[2] ربما كان الغرب بغنى

---

(1) المرجع السابق.

(2) وليد أبي مرشد، الشرق الأوسط، 23/ 2/ 2006.

عن مشاهد ردود الفعل العنيفة على الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لمشاعر المسلمين ليعود إلى الترويج لنظرية «صدام الحضارات» انطلاقاً من مسلمة تكاد أن تسمه بما ينكره دائماً: التحيز التعصبي لمفاهيمه فقط، أي مسلّمة أن المسلمين «لا يفهمون» حرص الغرب الديمقراطي على حرية التعبير.

في نظر العديد من المحللين والمفكرين الغربيين، المسلمون «مقصرون» في فهم المبادىء الأساسية للديمقراطية الغربية، وحتى مقصرون في اللحاق بها (إن لم يكونوا معادين لها)... ما حمل بعض المحللين الأمريكيين إلى تصنيف عالم اليوم، بعد تظاهرات الاحتجاج على الرسوم الكاريكاتيرية، إلى عالم «غربي» وآخر «إسلامي» معيدين إلى الأذهان مقولة رديارد كيبلنغ العنصرية بأن «الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا».

مع ذلك، وبعيداً عن أي تصنيف «حضاري» لعالم اليوم، يحق سواء لمن يفهم أو لا يفهم المبادىء الديمقراطية أن يتساءل: لماذا تبيح الديمقراطية الغربية الإساءة إلى مشاعر المسلمين «الدينية» ولا تسمح مطلقاً بالإساءة إلى مشاعر اليهود «السياسية» ـ رغم الفارق الواضح بين دوافع الشعورين؟

تحديداً: لماذا يجوز، باسم الحرص على الحريات الديمقراطية، الإساءة إلى مشاعر المسلمين الدينية ولا يجوز، باسم هذه الحريات نفسها، التشكيك من بعيد أو قريب بما يسمى «بمحرقة» اليهود في عهد النازيين؟

مبرر التساؤل هو تبني معظم الدول الأوروبية الديمقراطية، في التسعينيات تشريعاً يصون، بل يحمي، ما تعتبره حكومات هذه الدول «حقيقة رسمية» بين الروايات التاريخية المتضاربة عن محرقة اليهود.

على سبيل المثال، فرنسا تبنّت عام 1990، بموجب ما يعرف «بقانون غايسوت» Gayssot، ما أسمته «بالحقيقة الرسمية» بين الروايات المتناقضة عن المحرقة فبات أي إنكار علني للمحرقة «جريمة» يعاقب عليها القانون.

وفي «صدفة خير من ألف ميعاد»، سرعان ما لحقت بفرنسا في اعتماد تشريع مماثل كل من ألمانيا وسويسرا، ثم النمسا وبلجيكا وتشيكيا وليتوانيا وبولندا وسلوفاكيا بحيث أصبح إنكار وجود المحرقة، أو حتى التقليل من حجمها، «جريمة» في كل هذه الدول.

باختصار لم تعد اليهودية العالمية بحاجة للنزول إلى الشارع، وربما إثارة حساسيات «لاسامية»، كلما شكّك سياسي ما أو مفكر ما بمصداقية المحرقة أو قلل من حجمها. مسؤولية الدفاع عن المحرقة، أصبحت، تشريعياً، منوطة بالحكومات «الديمقراطية»... الأمر الذي اختبره الرئيس الإيراني، محمود أحمدي نجاد، لدى اقتراحه مؤتمراً لبحث حقيقة هذه المحرقة، ودفع ثمنه من حريته الشخصية الكاتب البريطاني ديفيد ايرفينغ (أمام محكمة نمساوية) ولم يسلم من تهديداته السياسي الفرنسي اليميني، جان ماري لوبن، لمجرد قوله يوماً أن محرقة اليهود «أحد تفاصيل التاريخ».

إلا أن اللافت يبقى أن هذا الاستثناء التشريعي لحرية الرأي شكل سابقة قانونية في فرنسا توسلتها جهات قومية وعرقية منطلقاً للمطالبة باستثناءات مماثلة في تحليل العديد من الأحداث التاريخية التي تعنيها، فكان أن أقرّ البرلمان الفرنسي، عام 2001، قانوناً اعتبر أن القمع التركي لانتفاضة الأرمن إبان الحرب العالمية الأولى عملية «إبادة جماعية»، وكان أن توالت الأحكام القضائية على «جرائم الرأي» في أكثر من مناسبة وأشهرها إدانة محكمة فرنسية للمؤرخ المعروف، برنارد لويس، بجرم رفض استعمال تعبير «الإبادة الجماعية» في وصفه للمجازر التي تعرض لها الأرمن في تركيا.

العبرة السياسية لمبدأ «الحقيقة الرسمية» المفروضة بقانون «ديمقراطي» على الإعلاميين والمؤرخين في الغرب ليست في مدى صحتها أو خطئها بل في إثباتها أن أرقى الدول الديمقراطية مستعدة للتنازل عن ذلك «الحق المقدس» في التعبير الحر عن الرأي إذا كانت هذه الحرية تسيء إلى معتقدات شريحة ما قومية أو عرقية ـ ولا نقول إذا كانت تخدش مشاعر الصهيونية العالمية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا كان المساس بالمشاعر السياسية لفئة ما يبرز تخلي الديمقراطيات الغربية عن الحرية المطلقة للتعبير عن الرأي.. فكم بالحري الإساءة إلى المشاعر الدينية لمئات الملايين من المسلمين؟

في جريدة «الفاينانشال تايمز» اللندنية الرصينة، كتب كريستوفر كولدويل مقالاً مهماً جداً، ينتقد فيه الغرب وموقفه من الازدواجية في

تعطيل «حرية الرأي»، حين يأتي الأمر لموضوع المراجعات التاريخية لمسألة محرقة اليهود، ويطالب بفتح المجال للكتابة فيه وبالتالي عدم «تجريم» هذا الأمر، وينتقد فيه بشكل رئيسي قانون جيسو الفرنسي، وهو أول من حرم هذا الأمر. صحيفة «الهيرالد تربيون» نشرت مقالاً لافتاً لروبرت رايت، وهو محافظ متدين إنجليكي أمريكي يبدي تعاطفاً مع غضب المسلمين، ويتفهم موقفهم ويستشهد بحادثة حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية بعد سلسلة تفجيرات لعيادات الإجهاض في الولايات، (والتي كانت تقوم بها جماعات أصولية مسيحية يمينية)، ظهر كاريكاتير للنبي عيسى(عليه السلام)، تم استبدال تاج الأشواك على رأسه وهي الصورة الذهنية له عند المسيحيين في ساعاته الأخيرة، بأصابع ديناميت، وطبعاً لم ينشر هذا الكاريكاتير في الصحف الكبرى والشعبية، لأن ذلك «سيهين الأمريكان المسيحيين».

حتى الكاتب الأمريكي جيمس كارول، كتب في صحيفة «البوسطن جلوب»، كيف أن علاقة المسلمين بنبيّهم محمد(ص)، هي غير علاقة المسيحي بعيسى(عليه السلام)، ويدحض تسمية المستشرقين للمسلمين بالمحمديين في محاولة لشخصنة الدين الإسلامي. هذا النوع من الكتابات المهمة والرصينة، هي الحجارة التي يجب أن تستخدم في بناء جسور الحوارات والتواصل مع الحضارات والأديان، بدلاً من استخدامها كمعاول هدم ودمار.

وفي قراءة هادئة لمحمد علي الأتاسي[1]، ينطلق من التعداد السكاني

(1) محمد علي الأتاسي، ملحق النهار، 5/ 3/ 2006.

حيث يراوح عدد أفراد الجالية المسلمة في الدانمارك من 150 إلى 200 ألف نسمة، وتبلغ نسبتهم من عدد السكان الإجمالي بين 3 و5 في المئة. وهم يعانون، كما هي الحال في معظم الدول الأوروبية، مشكلات التمييز والبطالة والاندماج الثقافي. وقد ازدادت في الأعوام الأخيرة التصريحات العنصرية الموجهة ضدهم في الخطاب الإعلامي والسياسي من دون أي قيود قانونية رادعة. يكفي في هذا المجال أن نورد ما صرحت به مرشحة اليمين المتطرف إلى بلدية كوبنهاغن لويز فريغر، عندما شبهت الجالية المسلمة بورم سرطاني ووصفت رجالها بالمغتصبين الكامنين، ومع ذلك فإن الشرطة الدانماركية رفضت اتخاذ أي إجراءات قضائية في حقها! وفي ظل هذه الأجواء اندلعت قضية الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي(ص).

تعود فكرة رسم النبي محمد(ص) في الأساس إلى روائي دانماركي اسمه كاربلوتكن حاول عبثاً في العام 2005 البحث عن فنان يضع رسوماً لكتابه الجديد، «القرآن وحياة النبي محمد»، والموجه إلى الشباب الدانماركي عموماً وللشباب المسلم خصوصاً. وكالة الأنباء الدانماركية عممت الخبر في إحدى برقياتها، وعلى الأثر قامت صحيفة «يولاند بوستن» ذات التوجه اليميني باستغلال القصة ودعت عدداً من رسامي الكاريكاتور إلى تصوير النبي محمد(ص) بحجة امتحان رقابتهم الذاتية. استجاب أربعة رسامين لهذه الدعوة ونشرت الجريدة رسومهم بتاريخ 30 أيلول 2005 تحت عنوان «الوجوه الاثنا عشر لمحمد». وعلى الفور تحركت الجمعيات الإسلامية في الدانمارك احتجاجاً على نشر هذه

الرسوم المسيئة للرسول، وطالبت الصحيفة بالاعتذار، في ظل تجاهل معظم الأوساط السياسية والإعلامية المؤثرة وغياب تضامنها مع الجالية المسلمة. من هنا بدأت الأزمة.

بؤس المضمون

ليست الإساءة إلى النبي محمد(ص) هي الشيء الوحيد الذي يتبادر إلى الذهن لدى رؤية هذه الرسوم المسمّاة كاريكاتورية، لكن أيضاً خلو هذه الرسوم من الكاريكاتور واحتواؤها على قدر هائل من العنصرية والأفكار النمطية في حق الإسلام والمسلمين المعاصرين. وإذا كان معظم التعليقات الإعلامية توقف عند الرسم الكاريكاتوري الذي يصور النبي محمد(ص) مرتدياً عمامة على شكل قنبلة، فإن بقية الرسوم تنطوي هي الأخرى على الصور النمطية الاستشراقية التي تماهي بين الإسلام كديانة وكتعاليم، مجسّدةً بالرسول العربي، والإرهاب والانتحاريين واضطهاد المرأة والشبق الجنسي. فالرسول الكريم يصوّر في معظم الرسوم في شخوص تشبه حكايات «ألف ليلة وليلة». فتارة نرى هذا الشخص ممسكاً بخنجر معكوف، وخلفه امرأتان متشحتان بالسواد، وطوراً نراه يقف على أبواب الجنة مانعاً قوافل الانتحاريين من الدخول بحجة نفاد مخزون العذراوات، ومرة ثالثة في قفص الاتهام مع حفنة من المجرمين، ورابعة في صورة ملاك وشيطان.

تجمع معظم هذه الرسوم ليس فقط على الإساءة المباشرة إلى شخص النبي(ص)، لكنها تحتوي على مجمل عناصر الرؤية الاستشراقية

للشرق المتخيل لا الحقيقي، كما صنعتها لوحات الفنانين الأوروبيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم استعادها في ما بعد التصوير الفوتوغرافي وفن البطاقة البريدية والسينما الهوليوودية. لا بل إن هذه الرسوم تشبه إلى حدٍّ بعيد، في لغتها البصرية وفي مضامينها العميقة وفي آلية تعبيرها، الرسوم المعادية للسامية التي كانت يمتلىء بها العديد من الجرائد الأوروبية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وأصبح من المستحيل اليوم أن نرى شبيهاً لها في المطبوعات الأوروبية بسبب الخوف من الوقوع تحت عاقبة الملاحقة القضائية بتهمة معاداة السامية أو بتهمة التحريض على الكراهية العنصرية.

وبحسب صديق صحافي دانماركي عمل لسنوات طويلة مراسلاً لجريدة «يولاند بوستن» في منطقتنا قبل أن يقدّم استقالته حديثاً بسبب مواقف صحيفته، فإن هيئة تحرير الجريدة لم تكن تبغي من نشرها هذه الرسوم المسيئة أن تمتحن قدرة رساميها على تجاوز حاجز الرقابة الذاتية بحسب ما ساقته هي من مبررات، لكن هدفها الحقيقي كان إفهام الجالية المسلمة في الدانمارك أن عليها أن تقبل بالتخلي عن مقدساتها وأن ترضى بشتم نبيّها إن هي أرادت أن تندمج في المجتمع الدانماركي.

خارج الحدود

بالطبع لم ترض الجالية المسلمة في الدانمارك بهذه المعادلة، وحاولت عبثاً من طريق جمعياتها وممثليها أن تنتزع من الصحيفة اعتذاراً بسبب نشرها هذه الرسوم، لكن من دون أن تلقى جواباً شافياً. كان أن

هذه الجالية لم تلقَ آذاناً صاغية لا من الحكومة الدانماركية ولا من الطبقة السياسية التي تلطت خلف شعار حرية الرأي والتعبير في تجاهلها مطلب إدانة نشر الرسوم والتضامن مع المسلمين الدانماركيين. بناءً على ذلك، دعت الجالية المسلمة إلى تظاهرة حاشدة في مدينة كوبنهاغن بتاريخ 14 تشرين الأول 2005 شارك فيها ألوف من المتظاهرين، كما حاولت هذه الجالية من طريق السفراء العرب إيصال صوتها إلى رئيس الحكومة الدانماركي، لكنه لم يرفض فقط إدانة نشر هذه الرسوم وإنما رفض أيضاً استقبال 11 سفيراً عربياً طلبوا مقابلته ووجهوا إليه رسالة احتجاج على نشر الرسوم المسيئة للرسول، وعلى أجواء معاداة الإسلام والمسلمين السائدة في الدانمارك.

بناءً على ذلك، أرسلت الرابطة الإسلامية في الدانمارك مبعوثين عنها إلى دول عربية إسلامية بحثاً عن التأييد وسعياً وراء المساندة لثني رئيس الوزراء الدانماركي عن موقفه الرافض مبدأ إدانة الصحيفة.

في بداية شهر كانون الأول 2005 انعقدت القمة الإسلامية في مكة وصدر بيان عنها أشار في إحدى فقراته إلى قضية الرسوم وحذّر من الانجرار وراء شتم الأديان. ومنذ ذلك التاريخ بدأت الحكومات العربية والإسلامية بوضع يدها على الملف وتوظيفه خدمة لمصالحها، وبدأت كرة الثلج بالتضخم.

في 10 كانون الثاني 2006 أعادت إحدى الصحف النروجية نشر الرسوم المسيئة، وبعدها بأيام بدأت حملة مقاطعة البضائع الدانماركية في أسواق المملكة العربية السعودية بدعوة من بعض الهيئات الدينية

وبموافقة ضمنية من الحكومة وبتغطية إعلامية واسعة، ثم امتدت منها إلى دول عربية وإسلامية، وعمد عدد من أفراد «كتائب الأقصى» إلى احتلال مقر المفوضية الأوروبية في غزة. وسحبت دول عربية من بينها السعودية وليبيا وسوريا سفراءها من الدانمارك واندلعت في العديد من العواصم العربية والإسلامية تظاهرات صاخبة كانت ذروتها في العاصمة السورية في 4 شباط حيث أحرقت السفارتان الدانماركية والنرويجية، ثم اندلعت أحداث الأشرفية في بيروت التي كان آخر همومها الاحتجاج على الرسوم وأول همومها تهديد السلم الأهلي. وفي أفغانستان وليبيا أدّت التظاهرات إلى سقوط عشرات القتلى، وفي نيجيريا سقط العديد من أبناء الطائفة المسيحية ضحايا عمليات الثأر الطائفي العمياء.

التوظيف السياسي

لا شك أن شخصية النبي محمد(ص) الاعتبارية تتجاوز في جوانبها الرمزية والإيمانية كل الحدود الجيوسياسية، ومن الطبيعي أن يشعر المسلمون في أصقاع الأرض بأنهم أهينوا وشتموا في مقدساتهم عندما يطّلعون من خلال الإعلام على حقيقة الإساءة التي حاولت النيل من نبيهم، وإن كان هذا لا يبرر لبعضهم حرق السفارات ولا الاعتداء على حرمة الأبرياء.

إذا قبلنا بأن نشر صور النبي محمد(ص) في الصحيفة الدانماركية لم يكن الهدف من ورائه انتهاك حرمة تصوير الرسول في الإسلام، بل كان هدفه الإساءة إلى النبي، ومن خلاله التعرض بشكل عنصري إلى الجالية

المسلمة في الدانمارك، فإن معركة مواجهة هذه الإساءة يجب أن تستند أساساً إلى القوانين المدنية التي تمنع في معظم الدول الأوروبية التحريض على الكره الطائفي أو العرقي وتعاقب القذف والشتم العنصريين.

من العبث وعدم القدرة على فهم أسس الحضارة الغربية، أن نحاول الضغط على الدول الأوروبية لفرض قوانين تمنع نقد الأديان ومسألة مسلّماتها تحت حجة احترام معتقدات الآخرين، لأننا في ذلك نكون نطالب، لا أكثر ولا أقل، شعوب هذه الدول بالتراجع عن الكثير من المكاسب التي حققتها في نضالها الطويل من أجل فصل الدين عن الدولة وكسر هيمنة الكنيسة والفكر التيولوجي على العقل والحياة المدنية.

لكن، في الآن نفسه، فإن الضغط بكل الوسائل المتاحة والمشروعة من أجل احترام معتقدات الجاليات المسلمة وصون حقوقها من خلال القانون وعدم التعرض لها بالشتم والقذف والعبارات العنصرية، هو واجب وضرورة ملحة، وخصوصاً في هذه الفترة الحرجة حيث يسود التطرف والعنصرية والعنف في كل اتجاه.

شروخ عميقة

لا شك أن تفجر قضية الرسوم المسيئة للنبي محمد(ص) بهذا الشكل وأخذها أبعاداً دولية خطيرة في العلاقة بين الدول الأوروبية والعالم الإسلامي، يتم على خلفية شروخ عميقة باتت تضرب جذورها

في التاريخ الحديث للعلاقة بين الطرفين والتي طالما تحكّم بها ميراث المغامرة الاستعمارية وما تبقّى منها إلى اليوم في فلسطين. ثم جاء زلزال 11 أيلول وما تلاه من احتلال عسكري لبلدين إسلاميين هما أفغانستان والعراق، وما تخلله من ممارسات قميئة في سجون غوانتانامو وأبو غريب، هذا من دون أن ننسى تفجيرات مدريد ولندن التي ضربت، بوحشية، المدنيين العزّل في قلب عاصمتين أوروبيتين.

لماذا ثار الرأي العام الإسلامي على الكرتون؟[1]

لماذا يُصر المحرر الثقافي في الصحيفة الدانماركية التي نشرت الرسوم الكرتونية المسيئة للرسول الكريم على أن الموضوع هو حرية تعبير؟ ولماذا كان رد الفعل في الشارع الإسلامي بهذا الحجم؟ هل يُقدّم نظام القيم الذي يتعلمه الناس في البلدان الإسلامية وغير الإسلامية تفسيراً لعدم فهم المحرر للمجتمعات الإسلامية ولعدم فهم المجتمعات الإسلامية للمجتمع الدانماركي ونظامه القيمي فيما يتعلق بالدين؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال تقديم بعض الأدلة العلمية المستقاة من المسح العالمي للقيم. ففي هذا المشروع البحثي الكبير قمنا بطرح سؤال على المستجيبين للدراسة في أكثر من 74 بلداً في العالم تغطي كافة الثقافات والديانات واللغات والقوميات والقارات لتحديد نوع القيم التي يرغب الناس في تعليمها لأطفالهم. وكان نص السؤال كالتالي: «فيما يلي قائمة بمجموعة من الصفات التي يمكن

---

(1) فارس بريزات، المجلة 19/2/2006.

تشجيع الأطفال على تعلمها في المنزل، أرجو أن تختار من هذه القائمة أهم خمس صفات / قيم ترى بأنه يمكن تشجيع الأطفال على تعلمها» وهذه الصفات هي: الأخلاق الحميدة، الاستقلالية، العمل بجدٍ، الشعور بالمسؤولية، المقدرة على التخيل، التسامح واحترام الآخرين، الاقتصاد في الإنفاق وادخار المال، التصميم والمثابرة، الإيمان الديني، عدم الأنانية، والطاعة. وسنقصر الحديث هنا على موضوع أهمية تعلم «الإيمان الديني» لما له من أهمية في الحوار الدائر هذه الأيام حول حرية التعبير واحترام الأديان.

نلاحظ أن المجتمعات الإسلامية تضع قيمة أكبر على تشجيع تعلم الإيمان الديني أكثر من جميع المجتمعات الأخرى. ويحتل تعليم الإيمان الديني مرتبة متقدمة جداً عند المجتمعات العربية والإسلامية مقارنة بالقيم والصفات الأخرى الخاضعة للمفاضلة في هذا السؤال. فنجد أن 93٪ من الأندونيسيين قد اختاروا تعليم الإيمان الديني للأطفال كأحد القيم التي يمكن أن يتعلمها الأطفال، مقارنة بـ 87٪ من المصريين، وبـ 86٪ من الباكستانيين، وبـ 85٪ من الأردنيين، وبـ 81٪ من الجزائريين، وبـ 77٪ من المغربيين، و71٪ من السعوديين ومثلهم من الإيرانيين، وبـ 90٪ من مستجيبي الدراسة في بنغلاديش. وهكذا يتضح أنه برغم التفاوت بين مجتمع مسلم وآخر إلا أن الأغلبية الكبيرة من المسلمين ترى أن تعليم الإيمان الديني للأطفال مهم كقيمة. ولهذه القيمة أبعاد اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية. ومن الجدير بالذكر أن المجتمع التركي هو المجتمع المسلم الوحيد الذي كانت فيه نسبة

القائلين بتعليم الإيمان الديني للأطفال أقل من 50٪، إذ بلغت 41٪ وربما يعود ذلك إلى أن تركيا دولة علمانية ولا تشجع التعليم الديني للأطفال.

وعند مقارنة المجتمعات الإسلامية بغيرها نرى أن المجتمعات المسيحية أقل تركيزاً على تعليم الإيمان الديني للأطفال من المجتمعات الإسلامية بشكل عام. فالمجتمعات التي تنتمي للإرث الديني المسيحي مثل البيرو والمكسيك والولايات المتحدة الأمريكية ترى نسبة قريبة من النصف أن تعليم الإيمان الديني مهم للأطفال. بينما في بقية المجتمعات المسيحية المشمولة في هذه المقالة فإن نسبة من يرون بأهمية تعليم الإيمان الديني للأطفال تقل عن 50٪ وبنسبة كبيرة من التفاوت. ففي فنزويلا بلغت نسبة من يقولون بأهمية تعليم الإيمان الديني للأطفال 45٪، مقارنة بـ 43٪ في الأرجنتين، وبـ 41٪ في تشيلي، وبـ 33٪ في كندا، و21٪ في إسبانيا، وبـ 21٪ في كوريا الجنوبية، وبـ 7٪ في اليابان.

أما المجتمعات الاسكندنافية التي كانت البادئة في نشر الرسوم الكرتونية المسيئة للمسلمين فبلغت نسبة من يرون بأهمية تعليم الإيمان الديني للأطفال 8٪ في الدانمارك، و5٪ في السويد. وهنا تكمن أهمية عدم فهم الصحفيين الدانماركيين والسويديين الذين قاموا بنشر الرسوم. حيث إن هؤلاء ينتمون إلى ثقافة لا ترى الدين كعامل مهم في الحياة اليومية للناس. وبناءً على هذا الفهم، يمكننا تصوّر الحالة الذهنية لهؤلاء الصحفيين ومدى إصرارهم على أن نشر الرسوم يأتي في باب

حرية التعبير. ولكن هذا التصور لا يعني أن لهم الحق في توجيه الإساءة للآخرين الذين يعني لهم الدين الكثير.

وتشير هذه البيانات إلى أننا أمام موقف من الصعب تجسير الهوة بين أطرافه من الناحية المفاهمية. فالإطار الثقافي المعرفي للمجتمعات الاسكندنافية (الدانمارك والسويد هنا) يختلف بشكل كبير عن نظيره في المجتمعات الإسلامية. ففي حين تولي المجتمعات الإسلامية أهمية كبيرة للمبادىء الدينية وتُعلمها لأطفالها، نجد أن المجتمعات الاسكندنافية تركز على مفاهيم أخرى مثل الاستقلالية، والمقدرة على التخيل، والعمل بجدٍ. وربما تفسر هذه المنظومة القيمية السلوك الذي أقدم عليه عدد من الصحفيين الغربيين الآخرين الذين أعادوا نشر هذه الرسوم تضامناً. ولكن لا بدَّ من القول أن هذه المنظومة القيمية الغربية لم تستطع إيصال فكرة أن عدم أهمية الدين بالنسب للأغلبية من المواطنين الغربيين، لا تعني بالضرورة أن الدين غير مهم للناس الآخرين في هذا العالم.

وفي المحصلة لا بدَّ من القول أن اتساع الهوة الثقافية بين المسلمين من جهة والغرب من جهة أخرى لا يبشر بنتائج إيجابية على مستوى حوار الحضارات. فهناك الكثير من أبجديات الحوار المعرفي التي لا بدَّ من إنجازها لخلق حالة من التفاهم الحضاري غير العدائي بين المسلمين والغربيين. ولا بدَّ أيضاً من الإشارة إلى أنه لا يمكن لنا القول أن الغرب هو العالم المسيحي. لأن العالم الغربي اليوم هو ذو إرث ديني مسيحي على الأغلب ولكنه ليس مسيحياً. فهو غرب علماني ديمقراطي متقدم

ولم يعد لدين فيه أهمية كبيرة. وفي رد الشارع المسلم على الرسومات الكرتونية لم يظهر أنه شارع يقارع المسيحية ولا حرية التعبير ولكنه انتفض ضد ما عده إساءة لنبي الإسلام. ولم تأخذ ردة الفعل الاحتجاجية بعداً دينياً مناهضاً للمسيحيين. بل أكد جميع المتحدثين باسم المحتجين أنهم ضد هؤلاء الأشخاص الذين قاموا بنشر الرسوم وليسوا ضد المسيحية أو الديمقراطية.

توابع الواقعة الدانماركية

وفي مجلة المجلة (19/ 2/ 2006) كتب جمال سلطان:

أستطيع أن أقول اليوم بكل اطمئنان إن قضية حرية الرأي والتعبير في أوروبا والعالم بعد الواقعة الدانماركية هي أمر مختلف إلى حدٍّ ملموس عنها قبل الواقعة. هناك صدمات حقيقية حدثت في الوعي الأوروبي، وفي أوساط الميديا بالذات، خاصة في ما يتعلق بخلل الميزان الأخلاقي في هذه المسألة، إذ أصبح يطرح على نطاق واسع مسألة الحساسيات الدينية في قضية حرية التعبير، ولماذا تكون واقعة تاريخية معاصرة مثل الهولوكوست لها قدسية وحرمة في الوعي والضمير والفكر والإعلام، ولها حصانة تمنع أي رؤية نقدية لها فضلاً عن الاستهزاء أو السخرية، بينما مقدسات الآخرين تستباح تحت لواء حرية التعبير وحرية النشر، هذا ميزان غير عادل على الإطلاق.

إذا كنا نؤمن بأن حرية الرأي والتعبير مطلقة، فلا ينبغي أن نضع شيئاً، أي شيء، في منأى عن هذه الحرية وتوابعها، أما إذا قررنا أن هناك استثناءات، فمن حق الجميع أن يطرح التساؤلات حول طبيعة هذه الاستثناءات ومبرراتها ولماذا لا تشمل حرمات الآخرين، الأمر شائك

جداً في هذا الموضوع، ومن العسير أن يقع الانقلاب الحدي في الوعي الغربي بهذه القيمة فجأة، إلا أن الباب فتح بالفعل بعد واقعة نشر الصحيفة الدانماركية للرسوم المسيئة للرسول، وما تبعها من موجة غضب هائلة في العالم كله، سواء من قبل الجماهير المسلمة التي شعرت بجرح عميق لمشاعرها الدينية تجاه أهم رمز ديني لديها، أو من قبل النخبة التي رأت أن الأمر تحول إلى نوع من الابتزاز والبحث عن الشهرة، وهو موقف التقت فيه قطاعات كبيرة من النخب المثقفة في العالم الإسلامي والعالم الغربي على حد سواء.

وبشكل خاص كان للصحافة البريطانية موقفها الأخلاقي المهم في الحافظ على كرامة مهنة الصحافة، بابتعادها عن استغلال هذه الموجة التي غاصت فيها صحافة صغيرة ورخيصة، وأظن أن هذا الباب الذي فتح من الجدل حول هذه النقطة من المهم للغاية أن يتم دفع الحوار فيه حتى منتهاه، ليس فقط لوقف عملية الاستباحة للمشاعر الدينية في الإعلام الغربي، وإنما أيضاً للانتهازية التي تقع على نفس الوتيرة في الإعلام العربي ذاته.

لقد كان لافتاً للنظر أن بعض الصحف العربية قامت بنشر نفس الصور تحت أسباب أوهى من تلك التي قالتها الصحف الأوروبية، من ذلك صحيفة مصرية كبرى، تم إدراك كارثتها في المطبعة قبل نزول العدد إلى الأسواق، حيث أعدمت قرابة أربعين ألف نسخة كانوا قد فرغوا من طبعها، ولولا خوف صحف أخرى من إجراءات إدارية قاسية تصل إلى حد إلغاء ترخيص الصحيفة، مدعومة بطوفان من المشاعر

سيدعم أي إجراء قاس ضد الصحيفة، لولا ذلك لقامت صحف عربية أخرى كثيرة بنشر الصور، لأنها سبيل رخيص ومجاني للشهرة والربح.

وقد حدثت أمور عديدة من هذا القبيل، حيث سبق لبعض الصحف أن نشرت فصولاً من روايات محظورة لإهانتها للمقدسات معتبرة أن نشرها بطولة، وأنها تتحدى الغضب الشعبي، كما أن ظاهرة استسهال الشهرة عن طريق استباحة المقدسات وإيلام الضمير الديني والمشاعر الدينية، أصبحت عادة متوطنة في المنطقة العربية، من قبل شعراء وروائيين وكتاب وصحافيين، ولذلك أقول إن هذه الأزمة ربما ينطبق عليها قول القائلين: رب ضارة نافعة، فلا بدّ من الإفادة مما حدث للعمل على ترسيخ دستور أخلاقي جديد في التعامل مع المقدسات الدينية، لأنها الأكثر استباحة الآن، ولأن استباحتها ليس ضد سلطة أو نظم أو حتى مؤسسات، وإنما ضد مشاعر إنسانية بحتة، لها حقها الأكيد في الحماية والاحترام، فالذين تحركوا في الشوارع في العواصم الأوروبية والعربية والآسيوية وغيرها، لم تحركهم سلطات ولم تحشدهم أحزاب، وإنما حركتهم مشاعر فياضة جرحها بقسوة استهزاء غير مسؤول بمقدساتهم.

ولا بدَّ من أن يكون هناك تمييز بين النقد العلمي وبين السخرية والإهانة للمحرمات الدينية، فالثقافة الغربية مترعة بالمقالات والأبحاث والمؤلفات التي تنتقد عقائد إسلامية أصيلة وحتى تنتقد رسالة الرسول، ولم تثر مثل هذا الغضب الواسع الذي أثارته الرسوم الكاريكاتيرية مثلاً، لأن النقد العلمي والحوار الفكري مفهوم، ودعا إليه القرآن الكريم

نفسه، وأما السباب والإهانات، فهي أعمال غير علمية وغير أخلاقية وغير إنسانية، ولا بدّ من وجود دستور أخلاقي يحمي مشاعر الإنسان وكرامته في أي مكان من استهتار أي مستهتر يجرؤ على مشاعر ملايين البشر بما لا يجرؤ به على مشاعر امرأته أو جاره، ثم يمسح ذلك في عباءة حرية التعبير.

وأظن أن الجدل الذي يتمدد الآن في أوساط النخبة الأوروبية ووسائل الإعلام سوف يفضي إلى معادلة متوازنة وراشدة وأكثر إنسانية، تحمي حرية الرأي والتعبير كمكتسب إنساني لا يمكن التراجع عنه، في نفس الوقت الذي تحمي فيه مشاعر الإنسان الدينية من الانتهاك والاستباحة، وتقطع الطريق أيضاً على تجار الكراهية الذين يوظفون الفكرة النبيلة عن حرية التعبير إلى «بيزنس» خاص لتنشيط مشروعهم التجاري.

أما الأستاذ الجامعي سمير سليمان فقد كتب في «السفير» (19/ 3/ 2008):

معتبراً أن لافتة «صدام الحضارات»، لازمة مبتذلة تتردد في كل مناسبة أو قضية تتعلق بالعلاقات بين الإسلام والغرب، وبين المسلمين والغربيين. ما أكثر الجهل في المردّدين، وما أبعد النظرية عن موضوعها الحقيقي في أكثر الأحيان.

ولأننا قيد الخوض في قضية الرسوم الكاريكاتورية، فإننا نعتقد في هذا السياق أن نسبتها إلى «صدام الحضارات» هراء «مثالي»، فلا

«الصدام» المفترض أن يكون بين طرفين متقاربين في القدرة والموقع. . . ، قائم فعلاً وذلك لانتفاء شرطه التأسيسي، ونظراً لغياب التكافؤ بين الحضارتين المعنيتين ما دامت إحداهما مهيمنة والثانية مستضعفة مدافعة من جهة، (اللافت الطريف أن صامويل هانتنغتون ـ صاحب نظرية صدام الحضارات ـ يبني نظريته على أساس أن الإسلام دين هجومي حدوده دائماً دموية)، ولأن الغرب ليس المسيحية من جهة ثانية، فحضارته علمانية مادية.

في مسألة «صدام الحضارات» يمكن أن نتقبل طرح قضية الرسوم من زاويتها إذا كان المعني بالإسلام الدين، كونه مشروعاً أو حضارة إلهيين، بينما الغرب هو مسمى آخر للحضارة المادية، فعندها يجوز الكلام على «صدام الحضارات» لا صدامها. لأن ثمة حضارة صادمة من نوع معين وحضارة مصدومة هي من نوع مختلف. والفرق بَيِّنٌ. وفي كل حال نرى أنه حتى لو افترضنا أن الحضارة دين، فإن ما بين العالمين الغربي والإسلامي من تدافع هو ليس صداماً بين دينيهما، ولا كان كذلك في التاريخ.

أما اعتبار الرسوم الدانماركية أحد مظاهر التنازع بين المقدس والزمني في الغرب، فقول نقبل بوجاهته لكننا لا نراه في كبد الحقيقة بل في ظل واحد من ظلالها المتعددة.

في التفسير الثالث المردود إلى ازدواجية المعايير، معيار ينشىء الغرب قياساً إليه في بعض الجوانب صورة للإسلام وموقفاً منه وخطاباً، لا يستطيع منصف أو شاهد عدل إلا أن يتلمس حجم الظلم والتجنّي

الناتجين عن تلك الازدواجية، سواء ما كان منها صادراً عن الوعي أم عن اللاوعي الغربيين. وهذه منهجية منظمة وتاريخية لطالما وُضع فيها الإسلام والمسلمون في مرتبة دنيا، يُنْظَرُ إليهم من عَلٍ يقطر فوقية واستعلاء، الوعي أو اللاوعي فيها يقولان شيئاً واحداً، ويعبران عن «حقيقة» واحدة لا يمكن لها أن تُسوّي خلافاً، أو تقيم سلاماً علائقياً، وإنما من شأنها تفخيخ الروابط بين الجماعات بالكراهية والكمائن وتحيُّن الفرص للارتداد عليها وتمزيقها، مع ما يرافق ذلك من صدامات وتداعيات تبدو فيها محاولات الإصلاح واسترجاع الثقة المفقودة بين الناظر والمنظور، وبين الذات والآخر كأحلام الأبالسة.

إبان انفجار أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية كان واضحاً للعارفين بشؤون «الغرب» أن ازدواجية المعايير كانت توائم تطور الأزمة، وتواكبها أنّى تكون وفي كل موضع تحل. تظهر إلى جانبها في كل صورة، وتلمح في كل وجه بدا، وتنضح من كل خطاب، وتسهم في صناعة كل موقف إلى درجة أن الباحث ليتعجب من كثافة كل هذا «النفاق» الفكري والثقافي والسياسي الذي استُنزل دفعة واحدة إلى ساح السجال، ولسيتفظعه. فكيف لهذا «الغرب» ذي الحول والطول والفعل الحضاري الكبير أن يتحول في لحظة إلى كتلة من النفاق.. يكاد كل ما فيه، ومن فيه يتحول إلى داهية سياسي يحمل حملة رجل واحد، ويتماهى في قوله: وموقف يكادان يلامسان حداً مقلقاً مما يشي بـ «الإجماع». ولقد أقرّت قلّة من المثقفين والأكاديميين الغربيين بممارسة هذا الاقتراف، لكن إقرارها دِيس تحت سنابك الخيل السياسية والأسنة

الإعلامية التي سُلّت في وجه الاحتجاجات التي صدرت عن مسلمي العالم المعترضين بشدة على ارتكاب فعلة تهين مقدساتهم. فقد فضحت بعض الكتابات نفاق الصحيفة الدانماركية Jyllands Posten التي سبق لها أن رفضت قبل ثلاث سنوات نشر رسوم كاريكاتورية تمثل السيد المسيح(عليه السلام) بأشكال اعتُبرت مهينة، إلا أنها استسهلت إجراء «استدراج عروض كاريكاتورية» ممن يعرف أو لا يعرف أنها مهينة لنبي المسلمين(ص).

كتابات أخرى ذكّرت بحادثة وقعت سنة 2005 نفسها عندما تمكنت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية من استصدار حكم قضائي يسحب من التداول إعلاناً تجارياً لماركة ألبسة جاهزة يستخدم مشهد «العشاء السري» للسيد المسيح(عليه السلام) وحوارييه الذين استبدلوا في الإعلان بنساء يرتدين ثياباً غير محتشمة... ويومها لم تقم لأحد قائمة في الغرب تعترض على موقف الكنيسة أو تندد بالحكم الصادر بحجة الدفاع عن حرية الرأي والتعبير والحريات الإعلامية، ولم ترتفع أصوات تذكر بذريعة الذود عن حقوق الإنسان، حتى كتب أستاذ القانون في جامعة باريس العاشرة Paris X Nanterre، البروفسور Daniel Borrillo، تعليقاً على الرسوم الدانماركية: «إن حرية الرأي عندنا تسير بسرعتين مختلفتين».

ثم أليس ذا دلالة جهاراً نهاراً كيف يُعامل الإسلام والمسلمون في «الغرب» معاملة مختلفة عما تعامل به الأديان الأخرى وأتباعها؟!

وأما التفسير الرابع: التفسير السياسي، فهو ذاته تفسير الرئيس

الأمريكي جورج بوش ووزيرة خارجيته كونداليسا رايس، وهو على قدر كبير من التبسيط، وذلك بقدر ما فيه من ذرّ للرماد في العيون من خلال إلقاء اللائمة على مسلمي الشرق والغرب على السواء، وذهاب في إسقاط المسؤولية على غير المسؤول الحقيقي. فحتى ولو كانت بعض دول الشرق الأوسط قد غطت ردات الفعل لجماهيرها الثائرة أو شجعت عليها، فإن ذلك يعتبر حجة لهما لا عليهما سواء تعلقت ردات الفعل بالرسوم الكاريكاتورية أو بخلفيات وترميزات تلك الاحتجاجات التي كانت مترعة بثرائها الرمزي المذهل، وذلك من خلال رفع أعلام فلسطين وحزب الله والعراق وإحراق أعلام الولايات المتحدة وإسرائيل وبريطانيا ودول أوروبية أخرى، ناهيك باليافطات والشعارات التي رفعت في المظاهرات. . وكلها رموز عبرت عن ما هو قبل الرسوم وما هو تحتها وفيها، وذلك في جيوبوليتيك يبدأ بعهد الرسول(ص)، وصولاً إلى آخر عدد نشرته وسائل الإعلام لضحايا مذابح الشوارع في العراق.

بانوراما الاحتجاجات هذه ترسم خطوط الفوارق بين تفسيرات المتساجلين في «الغرب» حول ظاهرة الرسوم الكاريكاتورية، وبين الحقائق الفعلية لما يدور في العالم الإسلامي والعربي وتلك التي صدحت بها الحناجر الغضبى، وعبرت عنها الأنفس المحتقنة والذاكرة والوعي الجمعيان للناس.

حتى عندما انبرت النخب الغربية لتظهير حدث الرسوم وتحليل أبعاده، وبعض ما توصلت إليه يتضمن الكثير من الصواب، فإنها ظلت عاجزة عن تحديد المشكلة العلائقية بين العالمين الحضاريين

والإيديولوجيين وعن تشخيصها بدقة، وعن التقاط أبعادها كافة. فثلاثة من التفسيرات الأربعة التي نوّهنا بها اتجهت إلى الغرب نفسه حضارياً وقانونياً وأخلاقياً، وهذا الاتجاه لا ريب في حصته من حيث المبدأ. لأن الغرب بكل ما يتضمنه المصطلح من دلالات وتعدد هو في موقع الفعل والمبادرة والغلبة منذ قرون، غير أن محاولة فهم كل هذا التاريخ العلائقي المأزوم بالتجارب والصدامات والمآسي المتنقلة من مستوى إلى مستوى، ومن بلد مسلم أو عربي، إلى بلد آخر، ومن حرب ماحقة إلى حرب أمحق.. هذه المحاولة لا ينبغي أن تُرى على أساس ما ذهبت إليه التفسيرات الثلاثة الجزئية فقط. وإنما ينبغي أن تتجه الأنظار بمنهج وعي نقدي جديد إلى ما هو خارج المركزية الغربية ونرجسيتها. لأن البقاء في نطاق أسوارها المقفلة يعني أن شيئاً لم يتغير ولم يتبدل، قياساً إلى ما كانت عليه التجارب والممارسات العلائقية السابقة. فنعود ـ طبقاً لقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، فيبقى الجهل المركب قائماً، وتمتد عدوى التجاهل إلى ما لم تكن قد أدركته بعد، أما توليدات الاحتقان بتنوعاتها الكثيفة فهي قائمة على قدم وسائق، بل هي كامنة تنتظر فسحة أو فسخاً تنفجر من فوهته.

من معادلة التوازي بين المعرفي والسياسي، وبينهما وبين القيمي.. ينبغي لهذا الوعي النقدي الجدي أن يبدأ بالتصحيح والترشيد باتجاه سوية علائقية حقيقية تتكامل فيها الذات بالآخر الحضاري وتعترف به وتعرفه، فلا تسطو عليه ولا تهيمن. ولا يبدو لنا هذا الوعي قريب التحقق بكل أسف لأننا لا نزال تائهين عن وعي سنن التاريخ، ناهيك

بالنأي عن المواقف الصحيحة منه، ولأننا ما نزال منخرطين حتى العظم بتفاضلات تكوينية أو حضارية أو سياسية أو مسيسة ليست صحيحة دائماً، نريد عبرها لأنفسنا وأهوائنا التسيُّد والرفاهية وضمانات التفوق الاستراتيجي المطلق على الآخرين، وكلها مدفوعة من حساب حقوقهم المعنوية والمادية وثرواتهم، وحتى من دون الاعتراف بهم أيضاً.

ما دامت المعادلة العلائقية بين العالمين الغربي والإسلامي العربي في هذا الدرك من الاختلال، ثمة «رسوم كاريكاتورية» كثيرة قادمة.. وربما لن تكون ردات الفعل عليها مسلية دائماً بالزبدة الدانماركية.

وبشيء من التجربة الشخصية كتب سلامة أحمد سلامة، (وجهات نظر، آذار 2006) عن حرب الكاريكاتور وتحوّل الثقافات، فقال:

منذ أعوام بعيدة، قضيت أزهى سنوات شبابي في بعض دول أوروبية. ما بين دراسة وعمل وارتحال، معظمها كان في ألمانيا وما جاورها.. فما صادفت على كثرة ما التقيت بأناس من مختلف الطبقات والشرائح، موقفاً ينضح بالكراهية والعنصرية، أو بالعداء والتباغض. وما صدمتني كلمة نابية أو نظرة متعالية أو سخرية بالتقاليد والمعتقدات.. كانت أوروبا قد خرجت من ثقب العنصرية الفاشية الأسود الذي بسط أجنحته حينذاك على مناطق واسعة من العالم، تعرضت الثقافة الأوروبية فيه لضروب مختلفة من الأفكار العنصرية ونقاء الجنس واحتقار الشعوب الأخرى، التي تنتمي ـ بفكرهم ـ لأجناس أقل رتبة وأدنى ذكاء، أو لأديان غير مسيحية!

ولكن أهوال الحرب ومآسيها جاءت فغسلت عقول الناس ونفوسه وطهّرتها من نوازع الغرور والغطرسة بعد الهزيمة الماحقة التي نزلت بهم، فأعادت إلى هذه الشعوب إنسانيتها التي شوهتها النازية وزرعت فيها بذور الحقد والعداء بين الأجناس والأديان والشعوب. وأسقطت كثيراً من دعاوى العنصرية التي زرعتها أفكار فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر لتبرير المد الاستعماري.

كان ذلك حتى السبعينيات من القرن الماضي ـ العصر الذهبي لغير الأوروبيين في أوروبا. حين كانت العمالة التي أعادت بناء الاقتصاد والصناعة في أوروبا الصاعدة على طريق الوحدة، هي تلك العمالة القادمة من دول أوروبية فقيرة: من إسبانيا والبرتغال واليونان قبل انضمامها للجماعة الأوروبية، وقبل أن يشهد الاقتصاد الأوروبي طفرة هائلة فتحت الأبواب لتدفق العمالة الكثيفة القادمة من تركيا، وبأعداد أقل من مناطق الصراع في الشرق الأوسط من العرب والفلسطينيين واللبنانيين والمغاربة والأكراد. ثم لحقت بهم جموع الهاربين من حرب البلقان بعد تفكك يوغوسلافيا. وقد غلبت على هذه الموجة من المهاجرين واللاجئين نسبة كبيرة من المسلمين، مثّل فيها الأتراك الأغلبية الغالبة وتفرقت هذه الموجة في دول الغرب الصناعية كلها بدون استثناء، لتسد الثغرات وتعوض الحاجة الماسة لأيدٍ عاملة مدربة وغير مدربة ولكنها رخيصة. ولحقت بها موجة من الدارسين وطلاب الجامعات والباحثين، استقرت منهم أعداد كبيرة واندمجت في جامعاتها ومصانعها ومؤسساتها.

لم تكن نظرة الأوروبيين والسلطات الأوروبية إلى هؤلاء المهاجرين تضيق بأصولها الثقافية ذات الطابع الإسلامي كما هي الحال الآن، بل كان كل همها ـ أثناء الحرب الباردة ـ مطاردة اليساريين والشيوعيين وغلاة القوميين. وأفسحت القوانين المنظمة للجنسية والإقامة والعمل الطريق لاستيعاب هذه الهجرات، وهيّأت لها وساعدتها على الاحتفاظ بثقافاتها وعاداتها وتقاليدها. فانتشرت المراكز الثقافية والمساجد والمدارس والجمعيات الخيرية في العواصم الأوروبية وحيثما وجدت تجمعات مسلمة. وساعدت حالة الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي التي عمّت أوروبا الغربية حينذاك على الاحتفاظ بدرجة معقولة من السلام الاجتماعي والوئام الثقافي بين الشعوب الأوروبية و«ضيوفهم الأجانب»، الذين بمرور الوقت تحولوا إلى الإقامة الدائمة واكتسبوا الجنسية وأصبحوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الجسد الأوروبي المُنعَّم. لا تستطيع المجتمعات الغربية أن تهضمها هضماً كاملاً، ولا تستطيع في ذات الوقت أن تستغني عنها مهما تضخمت.

وهي مشكلة بدت هيّنة غير ذات خطر في بادىء الأمر. ولكنها مع تغير البيئة الدولية في الثمانينيات والتسعينيات تفاقمت وتحولت إلى معضلة.. حين تعرضت الاقتصادات الأوروبية لأزمات متتالية، لعب فيها ارتفاع أسعار النفط، وصراعات الشرق الأوسط، ثم سقوط الاتحاد السوفياتي وحائط برلين أدوراً مؤثرة. وجاء انضمام دول أوروبا الشرقية إلى المنظومة الأوروبية وإعادة توحيد ألمانيا عبئاً على دول أوروبا القديمة.. واكبتها مشكلات إعادة هيكلة الاقتصادات الأوروبية في ضوء

العولمة وثورة الاتصالات، مما أدّى إلى ارتفاع معدلات البطالة والتراجع عن كثير من مكاسب الرفاه الاجتماعي وإعانات البطالة.

هذه خلفية ضرورية لفهم التحولات الاجتماعية والثقافية التي غيّرت المزاج الأوروبي. فأخذت تلح على إبراز الاختلافات والفروق الثقافية والحضارية بين الأوروبيين والأقليات المسلمة.. غذّتها عناصر يمينية أعادت إنتاج الأفكار العنصرية ذات الطابع الفاشي، والتي وجدت في «الضيوف الأجانب» الذين ما عادوا ضيوفاً بل أصحاب حق، هدفاً سهلاً لتحميلهم مسؤولية الآثار الاقتصادية السلبية. وهكذا فبينما كانت حركة اليسار والألوية الحمراء والماويين وغيرهم من موضة الستينيات والسبعينيات، أصبحت الأحزاب اليمينية والنازيون الجدد والمعادون للأجانب هي موضة نهاية القرن والألفية الجديدة. وقد وصل بعضهم في الانتخابات إلى مستوى الحكم المحلي والفيدرالي.

ففي الدانمارك التي انطلقت منها أزمة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة، يشارك حزب يميني متطرف هو حزب الشعب الدانماركي في حكم ائتلافي. وقد وصفت رئيسة هذا الحزب المسلمين الدانماركيين بأنهم خلايا سرطانية وأشبه بحصان طروادة، وهو ما يفسر الموقف المتخاذل لرئيس وزراء الدانمارك الذي رفض الاعتذار بحجة احترام الحق في حرية التعبير.

وفي إيطاليا التي لم يتورّع رئيس حكومتها بيرلسكوني عن التهكم والتحقير للإسلام والمسلمين في مناسبات مختلفة، لم يكن غريباً أن يرتدي روبرت كالديروني ـ أحد وزرائه ـ وهو من حزب الشمال

المتطرف، قميصاً طبعت عليه الرسوم المسيئة (أرغم بعد ذلك على الاستقالة).

وهي ظاهرة تكررت بدرجات متفاوتة في معظم الدول الأوروبية، حيث انفتح الطريق أمام الأحزاب اليمينية ذات الأفكار العنصرية للوصول إلى الحكم والحصول على نسبة كبيرة من المقاعد في الانتخابات البرلمانية. وهو ما تجلّى على أشده في هولندا التي عرفت تاريخياً بالتسامح والتنوّع الثقافي، وكذا في فرنسا التي ظلت في التاريخ الحديث ملاذاً لعناصر المهاجرين النازحين من أفريقيا والمغرب العربي وبوتقة للثقافة الأوروبية المنفتحة على الشرق وعلى أفريقيا.. فقد شهدت السنوات الأخيرة في هاتين الدولتين اضطرابات اجتماعية ذات طابع عنصري ضد مواطنيها من أصول أفريقية وعربية وآسيوية.. في الأولى قتل مخرج سينمائي استفزّ حفيظة المسلمين بكتابة آيات قرآنية على أجساد مومسات عاريات. وفجّرت فرنسا قضية الحجاب وتحريمه ـ دون سائر الرموز الدينية الأخرى ـ كغطاء للرأس بحجة الحفاظ على التقاليد العلمانية الفرنسية لغير أسباب مقنعة، بدا من خلالها أنها موجهة ضد الفرنسيين المسلمين من أصول عربية وأفريقية وآسيوية لصدّهم عن البقاء في فرنسا.

ولا يوجد شك في أن التفجيرات التي وقعت في أمريكا في سبتمبر 2001 كانت علامة فارقة في تحويل التيارات التي أخذت تتجمع تحت سطح المشاعر الأوروبية، مفعمة بالشكوك وعدم الارتياح والاغتراب ضد المسلمين والعالم الإسلامي الذي ركزت وسائل الإعلام عليه

كمصدر للإرهاب وللخلايا الإرهابية القابعة والناشطة في أوروبا. وسلّطت الأضواء على التجمعات الإسلامية بين المهاجرين واللاجئين والمتجنسين الذين استقروا وأقاموا لهم مراكز وجمعيات للحفاظ على هويتهم وثقافتهم، باعتبارهم تربة خصبة للإرهاب وتنظيماته الدولية. ثم جاءت تفجيرات مدريد ولندن لتعمّق الشكوك والكراهية وتخلق حالة من الاستقطاب الحاد بين الجانبين.

أيّاً ما كان الأمر فقد بات واضحاً أن الإناء الفائر أوغلت فيه أصابعُ كثيرة. وأن بخار الغليان أخفى الحقيقة التي ربما كانت الأولى بالعناية والاهتمام، والمتمثلة في أن هذه الرسوم ـ وأستأذن في التعبير القانوني ـ كانت «كاشفة لا منشئة». فالكارتون ـ تعريفاً ـ اختزال وتجسيد «للصورة الذهنية» لما يتم التعبير عنه رسماً. وهنا المشكلة، فأصل القصة، وعلينا أن ننتبه لذلك، أن المحرر الثقافي للجريدة الدانماركية عندما دعا رسامي الكارتون الأوروبيين إلى التعبير عن صورة نبي الإسلام(ص) كما يرونه، كانت تلك الرسوم، «المشوّهة والمشوِهة». والتي ـ إن استبعدنا سوء القصد ـ لكانت، وهذا هو الأهم «كاشفة» عن مدى الخطأ والتشويه الذي يعتري صورة الإسلام وعن مدى جهل الغرب بدين محمد وبنبيّه الكريم الذي لم يبعث حاملاً قنبلة بل «رحمة للعالمين» ولم يكن أتباعه يوماً ـ كما هي تلك الصورة الذهنية السائدة في الغرب ـ بأجلاف قساة غلاظ القلوب. بل هم، بحكم الأمر الإلهي: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: 63].

أيّاً ما كان الأمر، فإن الرسوم التي نشرت في سبتمبر الماضي كاشفة

مدى (الجهل) الغربي بالإسلام، وجدت من يذكر بها بعد أربعة أشهر كاملة. وبغض النظر عن أسئلة مهمة من قبيل: لماذا الآن؟ ولماذا الدانمارك (الصغيرة) بالذات؟ ولماذا لم نر رد فعل بهذا المستوى أمام الأمريكيين الذين اعترفوا بإهانة القرآن الكريم في جوانتانامو؟ ولماذا لم نسمع سفراء عرب في واشنطن يصرّون على «اعتذار أمريكي واضح» مثلما رأينا اليوم في كوبنهاغن؟ فإن العجلة الإعلامية كانت قد دارت لتندلع الحرائق البشرية في العالم أجمع من نيوزيلاندا إلى السودان، ومن الهند وأفغانستان إلى ليبيا، ومن النيجر ونيجيريا إلى بروكسل ولندن. أحرق الغاضبون سفارات.. وفقد متظاهرون حياتهم.. ورصد البعض مليون دولاراً لمن يأتي برأس الرسّام الدانماركي. ثم كان ـ والحال هكذا ـ أن انتقلت «الرسوم اللعينة» من صفحات جريدة دانماركية لا يعرفها غير الدانماركيين إلى صفحات أكثر من صحيفة أوروبية (عناداً أو انتصاراً لما يرونه حرية للتعبير، أو حتى لأسباب مهنية بحتة ـ كما قال بعضهم ـ تستوجب اطلاع قرائهم على «موضوع» صار محلاً لجدل عالمي) وسمعنا من يطلب من الفاتيكان تدشين حرب صليبية جديدة «دفاعاً عن قيمنا»[1].

وهكذا بدا المشهد باتساع العالم كله محتقناً ومتوتراً.. وكاشفاً، وهذا هو الأهم: «كم يجهل كل منا الآخر».. والذي هو بحكم كونه «آخر» مختلفٌ في ثقافته، وقيمه، وموروثه، ومقدساته، وثوابته.

---

(1) أيمن الصياد، وجهات نظر، آذار 2006.

فالمقدس هنا غير مقدس بالضرورة هناك. والجائز هنا ليس بالضرورة جائزاً هناك. والعكس كذلك صحيح تماماً. فما يراه المسلمون ـ بل ومسيحيو الشرق ـ مثلاً مقدساً دينياً وله حرمة خاصة ولا يجوز المساس به، تراه أوروبا «العلمانية» جائزاً لا حرمة فيه.

لم تكشف الرسوم فقط عن مدى جهل الغرب الأوروبي بحقيقة الإسلام «دين الرحمة»، بل بدا الغرب في فعله ورد فعله «جاهلاً» أو «متجاهلاً» حساسية المسلمين لمقدساتهم الدينية. كما بدا رد فعل «الشارع الإسلامي، غير مدرك لحساسية الغرب الأوروبي تجاه قيم حرية التعبير وحرية الصحافة. وبدا البعض «جاهلاً» أو غافلاً عن حقيقة أنه في الموروث الثقافي الأوروبي يتجذّر الإحساس بأن أوروبا العلمانية لم تعرف نهضتها الحديثة إلا بعد أن تحررت من سطوة الكنيسة ومقدساتها الدينية. تجاهل الكثيرون عندنا أو جهلوا أن أي حديث عن قداسة لثوابت دينية يستدعي فوراً إلى الضمير الأوروبي العلماني ذكريات محاكم التفتيش ومشهد إحراق كتب جاليليو (1633) بعد أن حجرت الكنيسة على حريته في نشر آرائه التي خالف فيها المقدس الديني مؤكداً أن «الأرض كروية وليست مسطحة».

وهكذا.. وعلى خلفية واقع كان متوتراً أصلاً تسكن في زواياه تفجيرات مدريد ولندن، والقوانين التمييزية التي استهدفت الزي الإسلامي في فرنسا، وصعود تيارات النازية الجديدة واليمين المتطرف في معظم بلدان أوروبا، والموقف الأوروبي من حماس، جاء ما جرى في الدانمارك، أو بالأحرى إعادة إحياء ما جرى في الدانمارك لتكشف ـ

أيضاً ـ مدى «جهل» كلا الطرفين بثقافة الآخر.. وحساسياته.. وثوابته، ومدى «تعصب» كلاً منهما لما يراه.. «وفقط»[1].

(1) المرجع السابق.

رأي «الإيكونوميست»

قضية الرسوم المسيئة، كانت موضوع غلاف مجلة «الإيكونوميست»[1] التي قالت:

عندما نشرت الصحيفة الدانماركية، جيلاندز. بوسطن، في أيلول (سبتمبر) الماضي 12 رسماً كاريكاتورياً تمثل النبي محمد(ص)، كانت تعلم أنها تختبر حدود حرية التعبير والذوق السليم. إلا أنها لم تكن تتصور أبداً مدى هذه الحدود. وبالنسبة للدانمارك نفسها، كانت هذه أكبر أزمة منذ الاحتلال النازي خلال الحرب العالمية الثانية. إلا أن المعاني الضمنية للعلاقة المشوشة أصلاً بين الغرب والإسلام تتعدّى حدود هذا. وقد لخصها رئيس وزراء الدانمارك، أندريه فوغ راسموسين، كالتالي: «نحن نواجه اليوم أزمة عالمية قد تتصاعد لتخرج عن سيطرة الحكومات».

وحتى الآن، مات على الأقل عشرات الأشخاص في مظاهرات ضد هذه الرسوم. كما قتل العديد في أفغانستان حين أطلقت الشرطة الرصاص على حشد يحاصر قاعدة جنود حفظ السلام النرويجية. وقُتل

(1) أعيد النشر في مجلة «المجلة»، 19/ 2/ 2006.

آخرون رمياً بالرصاص عند محاولة اقتحام القاعدة العسكرية الأمريكية في جنوب البلاد، وإشعال النار في السيارات وقذف الحجارة.

وتمت مهاجمة السفارات الغربية في سوريا ولبنان وأندونيسيا وإيران. وتضمنت الخطب التي ألقيت في المساجد من السنغال إلى سومطرة بأندونيسيا انتقادات عنيفة لإهانة الدين بهذه الطريقة. وفي الخرطوم، هتف بعض المتظاهرين الغاضبين في مظاهرة ضمّت 50,000 شخص قائلين «اضرب، اضرب يا بن لادن». وقد سحبت السعودية وسوريا وليبيا وإيران سفراءها من الدانمارك، ومنعت إيران رسمياً الاستيراد من الدانمارك، فيما تسببت مقاطعة المستهلكين في أنحاء الشرق الأوسط بإفراغ رفوف المتاجر من جميع المنتجات الدانماركية.

وجاء رد فعل الحكومات الغربية مزيجاً بين الصدمة والارتباك. وهناك شعور متنامٍ في أوروبا القارية بأنه كان يتوجب على بريطانيا وأمريكا اتخاذ موقف قائم على مبادىء معينة على أساس حرية التعبير، ولكنهما فشلتا في ذلك. وفي فرنسا، موطن أكبر أقليّة مسلمة. إذ تبلغ نسبتها 10 في المئة تقريباً من عدد السكان. كان هناك شعور بالاستغراب من استجابة وزير الخارجية البريطاني جاك سترو، والذي يتميز بالاستعطاف نوعاً ما، إذ سمّى نشر الرسومات بأنه تصرف «لا ينم عن شعور الإحساس» وأنه «غير ضروري». ويشعر العديد في فرنسا بالحيرة جرّاء امتناع الصحافة البريطانية والأمريكية عن نشر الرسومات نفسها. (في الثامن من فبراير (شباط) استقال ثلاثة محررين وصحفي من صحيفة

نيويورك بريس بسبب قرار بعدم إعادة نشر الرسومات، ودعا الرئيس جورج بوش حكومات العالم لإيقاف العنف ولأن «تلتزم الاحترام»).

ولا شك أن رد الفعل الفرنسي الرسمي كان مدروساً. فقد أعلن الرئيس الفرنسي جاك شيراك أن حرية التعبير هي «أحد أسس الجمهورية» ولكنه دعا إلى «الاحترام والاعتدال» في تطبيقها. وتمّ طرد أحد المحررين في صحيفة فرانس سوار، وهي صحيفة صغيرة كانت أول من طالب «بحق تمثيل الآلهة من خلال رسوم كاريكاتورية»، وقامت الصحيفة بإعادة نشر الـ 12 رسماً كاريكاتورياً. ولكن يبدو أن صاحب الصحيفة، وهو مصري فرنسي، كان يبحث عن عذر للتخلص منه على أية حال. أما بقية الصحف، مع أولئك الذين يعتبرون الموضوع اختباراً لقدرة الديمقراطية الفرنسية على مجابهة مطالب الإسلام السياسي، فقد اتخذوا موقفاً عدائياً تجاه مواقف الحكومات.

وقد أعادت بعض الصحف الوطنية الفرنسية الكبيرة، بما فيها لوموند وليبيراسيون، نشر بعض الرسوم الكاريكاتورية وذلك لإثبات وجهة نظرها فيما يتعلق بحقها في فعل ذلك. وانضمت إليها لاحقاً صحيفة شارلي هيبدو، وهي صحيفة ساخرة. على الرغم من محاولتها في اللحظات الأخيرة للحصول على أمر قضائي ضد فعل ذلك من قبل عدة منظمات إسلامية فرنسية. وأعادت شارلي هيبدو نشر نص من بيان جمعية الحريات، وهي هيئة مسلمة علمانية، وينص على أن العنف المُنظّم كان إنذاراً لمسلمي أوروبا من الخارج بأنكم «لا تملكون حق

التفكير» مثل الأوروبيين، ويحث الغرب على التأكيد على ممارسة أوروبا لحرية التفكير.

ومن المفهوم أن يشعر البعض بالإهانة، فمعارضة المسلمين لتصوير الأنبياء المعترف بهم معروفة جيداً. إلا أن الهدف من منع الصور هي ضمان ألا تصبح مقدّسة بحد ذاتها. فالمسلمون يستهجنون دون تمييز التصوير المسيحي لعيسى وموسى(عليهما السلام)، اللذين يجلّهما المسلمون.

ولكن في هذه الحالة، فإن رسم النبي محمد(ص) كان المقصود به التحدي كما هو واضح. فالعديد من هذه الصور كانت مهينة بصورة صريحة، خاصة تلك التي تصوّر النبي المسلم كإرهابي. وتزيد مثل هذه الرسومات شعور المسلمين بأن دينهم بحد ذاته أصبح موسوماً بالعنف والإجرام، وذلك منذ أن أطلقت أمريكا حربها ضد الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) 2001. بالإضافة إلى ذلك، يعتقد المسلمون المتدينون بأن محمداً(ص)، وإن كان بشراً، إلا أنه يجسّد الكمال الإنساني، وهو في نفس الوقت رسول، ومثال بشري وقائد سياسي.

كما أن المسلمين في جميع أنحاء العالم أصبحوا حساسين بصورة كبيرة تجاه ما يعتبرونه المعايير الغربية المزدوجة. ويقول أحد أعضاء البرلمان السوري إن حرية التعبير أمر جميل، ولكن لماذا تمنع الدول الغربية التشكيك في المحرقة اليهودية (الهولوكوست)؟ ولماذا يتم سجن الواعظين المسلمين بتهمة التحريض فيما لا يتم معاقبة الأفعال المضادة

للإسلام؟ وكامتداد طبيعي لهذا التفكير، يتساءل لماذا يغض الغرب الطرف عن الأسلحة الذرية لإسرائيل فيما يشكك بالطموحات النووية لإيران؟

وفي الوقت ذاته، هناك القليل من الفهم في العديد من الدول الإسلامية، فيما يتعلق بالكيفية التي تعمل بها الأنظمة الديمقراطية الغربية، أو الطريقة التي تطورت فيها على مر التاريخ تجاه إغناء الحرية الشخصية لأقصى حدٍّ. وتُقابل الاحتجاجات الدانماركية القائلة بأنه لا توجد قوانين تحكم تدخل الحكومات بعدم التصديق. ففي كل من اليمن والأردن، تم اعتقال المحررين الذين أعادوا نشر الرسومات فوراً (والتي ظهرت الآن في 22 دولة مختلفة) وتم إغلاق صحفهم.

حوار مع
رسّام الكاريكاتورات المسيئة(1)

أكثر من عام ونصف مرّ على أزمة نشر الرسوم في إحدى الصحف الدانماركية ولا تزال تداعياتها تصيب الحياة السياسية والاجتماعية في الدانمارك على أكثر من مستوى، في أحاديث الدانماركيين، في تفاعلهم مع محيطهم، في رؤيته للعالم الإسلامي، في تعاطيهم مع الأقليات المهاجرة إلى مجتمعهم، في علاقاتهم الاقتصادية وشركاتهم التجارية.

إنها المرة الأولى التي يتحدث فيها صاحب الفكرة، رئيس قسم الثقافة في صحيفة «يولاند بوستن» الدانماركية، فليمنغ روز، إلى صحيفة عربية. لم يتم إحراق الرجل، كما تناقلت الخبر شبكة الإنترنت. لا يزال مقتنعاً بما قام به، لا يبدو نادماً على فعلته؛ فحرية التعبير بالنسبة له أغلى من المحرّمات الدينية.

القصة بدأت، مثلما يرويها بنفسه، عندما علم بأن أحد مؤلفي كتب الأطفال الدانماركيين لم يتمكّن من العثور على رسّام لرسم النبي

(1) حوار نادر صباغ، جريدة «الأخبار»، بيروت، 12/ 3/ 2007

محمد(ص) كي يضمنه كتاباً كان يضعه عن الرسول. أثار هذا الأمر حفيظة روز، قرر المبادرة، «لا يحق لهم فرض قوانينهم علينا في بلداننا الديموقراطية».

وجّه رسالة إلى 42 رساماً في «اتحاد رسامي الكاريكاتور في الدانمارك» طالباً من كل واحد منهم أن يرسم النبي(ص) كما يراه، وجاءت الردود مثلما نشر بعض منها؛ «أنا لم أطلب السخرية، لكنهم رسّامو كاريكاتور ورسومهم انتقادية بطبيعتها، جميع الرسوم كانت مقبولة، بحسب المعايير الدانماركية التي تنطبق على الرسوم الدينية ورسوم العائلة المالكة والمشاهير. وأعتقد أنه حصل سوء فهم كبير في هذا الموضوع. كانت الرسوم معدّة للنشر في صحف دانماركية وكانت موجهة إلى جمهور دانماركي، لكن تم استخدامها خارج سياقها».

حق الانتقاد

يتابع روز: «لم نتوقع إطلاقاً ردود الفعل العنيفة هذه، فقد نشرت هذه الرسوم في صحفنا قبل 30 أيلول 2006 ولم تثر حولها مشكلة. نحن مسؤولون أمام القانون، فكل ما ننشره يخضع لقوانين الصحافة الدانماركية. لم نتعمّد السخرية من أحد، وهذا مهم في الثقافة الأوروبية. فإذا نظرنا إلى تاريخ أوروبا لفهم الحريات، نرى أن حق انتقاد السلطة الدينية وتحدّيها كان أمراً مهماً جداً وهذا يتعارض تماماً مع العادات التي أدّت إلى قيام المحرقة والعنصرية وتهميش الأقليات وقمعهم». ويضيف روز: «أنا من مؤيدي إلغاء كل الكتب والقوانين

الأوروبية التي ترى عدم الاعتراف بالمحرقة عملاً إجرامياً. أفهم تماماً المسلمين الذين يقولون إن المعايير المزدوجة موجودة، فمن الصعب شرح سبب السماح بالسخرية من الرسول فيما نكران حصول المحرقة جريمة، لكن هذه القوانين غير موجودة في الدانمارك أصلاً».

يقول روز، إن صحيفته نشرت صوراً كاريكاتورية عن المحرقة ولم يؤد الموضوع إلى مشكلة مع المجتمع اليهودي. «لم نتلق أي اتصال أو استنكار، لا لأنهم (اليهود) أكثر ديموقراطية من المسلمين، بل لأنهم يعيشون في مجتمع أكثر علمانية. أعتقد أن بعض اليهود شعروا بالإهانة، أنا مثلاً أشعر بالإهانة يومياً حين أقرأ الصحف بسبب مواضيع مختلفة، لكني لا أنزل إلى الشارع وأحرق السفارات وأطالب باعتذار رسمي. هذا جزء من المجتمع التعددي المتحضّر الذي يضم مجموعات مختلفة تتعايش في ظل معطيات محددة وحيث من الممكن التعرّض للإهانة بين الحين والآخر».

وعن نفسه وعلاقته بالدين، يقول الرسام الدانماركي: «لست مؤمناً، لكني أؤمن بحرية اختيار الديانة، وأساس حرية الديانات هو رفض الديانات. في مختلف أنحاء العالم، إذا نظرنا إلى الدول التي تسيطر فيها السلطات الدينية، نرى غياباً تاماً للحرية الدينية». ويتابع «لا يمكن مقارنتي بحالة سلمان رشدي، فهو مسلم أما أنا فلست مسلماً ولا مسيحياً ولا يهودياً».

ويستطرد: «سأكرر ما قلته سابقاً، لم أقلق جراء نشر الرسوم على رد فعل المسلمين في الدانمارك، بل ركزت على ما أشعرني بالإهانة حين

تصوّرت خضوع بعض رسامي الكاريكاتور للرقابة بسبب المحظورات الدينية. أخبرني أحدهم أنها كانت المرة الأولى منذ القرن الرابع عشر التي يقرر فيها المسلمون معاقبة غير المسلمين على عدم تطبيق القوانين الإسلامية في بلد غير إسلامي».

ويتابع: «المشكلة هنا أن بعض المسلمين يصرّون على فرض معتقداتهم على الجميع. نحن لا نجبر أحداً على شراء الصحيفة، ومن المضحك أن أكثر الذين شعروا بالإهانة من الرسوم هم الذين أصرّوا على توزيعها بين المسلمين».

إضافة إلى المجتمع الإسلامي، في الدانمارك اليوم نحو 250 أقلية إثنية أخرى، «فهل أنا مجبر على معرفة جميع المحظورات في كلّ من تلك الأقليات؟ لا أعتقد ذلك، لذا قلت إن علينا تقبل السخرية في مجتمع حضاري».

عن الإسلام

لا يعرف فليمنغ روز الكثير عن الإسلام، وهو يقرّ بأنه ليس خبيراً بشؤونه أو بشؤون الشرق الأوسط، لكنه يشير إلى أنه زار الأردن والضفة الغربية وإيران. يعلم أن هناك فرقتين في الإسلام هما السنّة والشيعة، وأن النبي(ص) أقام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ثم عاد إلى مكة.

«إن أرادوا الانتقال إلى عالمنا فعليهم أن يحترموا قوانيننا ويقبلوا بها. بالنسبة إليّ، هذه القواعد هي الديموقراطيات المقدسة المذكورة

في دستورنا، منها حرية التعبير وحرية الديانة والمساواة بين الجنسين، ومساواة جميع المواطنين أمام القانون». ويتساءل «إذا كانت الأقليات المهاجرة مهمّشة في مجتمعاتنا، فلماذا تسافر آلاف الأميال للعيش هنا والتعرّض للإهانة كما يقال؟».

ويضيف: «شعرت بالصدمة أمام ردّات الفعل التي شاهدتها، وهذا ليس شعوراً جميلاً. أؤكد أنه لا رسم في العالم يستحق أن يقتل لأجله إنسان، ولا أقبل بإقامة علاقة بين هذه الرسوم وخسارة حياة أبرياء. هناك أسباب داخلية في الشرق الأوسط أكثر أهمية لإحداث العنف الذي شهدناه غير نشر رسوم كاريكاتورية في صحيفة دانماركية».

«حين أُسأل إن كنت نادماً على ما نشرته، أعتقد أن بإمكاني الإجابة بطرق عديدة، الأولى استفزازية، مثل سؤال ضحية اغتصبت عن سبب ارتدائها تنورة قصيرة، وهذا أمر غير مقبول. عادة أجيب أن هذا سؤال افتراضي ولا أجيب عنه. فإن أجبت بالنفي، سيعتقد الناس أني قاس ولا أتعاطف مع ما حصل، وهذا ليس صحيحاً. وقد عبّرت صحيفتنا عن أسفها لإهانة الناس. وإن قلت إني شعرت بالندم، فسيكون من يحاول إخافتنا وتهديدنا قد نجح بفعلته، فيعدّ أنه بالتخويف والتهديد يمكنه الحصول على مبتغاه. لذا إجابتي ستكون خاطئة في كلتا الحالتين».

ما الذي تغيّر؟

ما الذي تغيّر في الدانمارك بعد الحادث وتداعياته؟ يجيب روز بأن

ما تغيّر في الجوهر هو النقاش بشأن المسلمين والإسلام. يوضح: «كانت أهم نتائج هذه الظاهرة تأسيس منظمات جديدة تتركز حول المعتقدات الديموقراطية وترفض بصراحة أن تتمثل بأئمة المساجد، فقد كان خطأ وسائل الإعلام الدانماركية قبل نشر الرسوم أنه كلما تمت مناقشة موضوع يتعلق بالإسلام تلجأ إلى عدد من الأئمة لأخذ رأيهم فيتكلمون بالنيابة عن المجتمع المسلم بأكمله، وهذا أمر غير صحيح».

هل ساهمت الأزمة في اعتناق الكثيرين للإسلام وبالعكس؟ لا يعتقد روز أن هذا الأمر صحيح «أنا لا أشعر بذلك أبداً. أرى أن المسيحية في ما يتعلق بالمعتقدات والهوية الدينية والانتماء تزداد أهمية عند الناس اليوم، لكني لا أعتقد أن هذا سببه الهجرة وعلاقة المهاجرين بجذورهم وديانتهم. نحن مجتمع علماني، وفي رأيي لن يعود الدين ليفرض نفسه على مجتمعنا في المدى المنظور. جميع الإحصاءات تشير إلى أن الدول الاسكندنافية هي الأكثر علمانية في العالم. لا أعتقد أن الغرب يعتنق المسيحية في وجه الشرق المسلم».

آراء حول الحدث والتداعيات

1 ـ شيتل كولسرود[1]

الصورة التي حملها الأئمة معهم وداروا بها في بلدان الشرق الأوسط ليحضّوا الناس على النقمة من جراء الإساءة للرسول محمد لم تكن لها علاقة من قريب أو بعيد بالرسوم الكاريكاتورية التي نشرتها صحيفة «يولاند بوستن» الدانماركية. تلك الصورة كانت لتخلق أكبر قدر من رد الفعل. وهي صورة مهينة بالفعل. ثمة رجل يحمل وجه خنزير. كانت رسالة الأئمة هي الآتية: انظروا ماذا فعلوا بنبيّنا. ولكن الصورة كانت لرجل فرنسي يدعى جاك ماروت كان ارتدى قناع خنزير للمشاركة في كرنفال ينظمه المزارعون في الريف الفرنسي. لقد دسّها الأئمة بين الصور التي جالوا بها العالم الإسلامي عن سابق تصوّر وتصميم. إنهم يتقنون لعبتهم.

يقول الإمام أحمد عكاري الناطق باسم المركز الإسلامي إنهم تلقوا الصورة بالبريد ولم يكن لهم علم بماهيتها لهذا فقد اعتقدوا أنها من

(1) كاتب وصحافي.

الصور المسيئة للرسول. لا ترافق ذلك مع حملة غريبة زعمت أن الحكومة الدانماركية بصدد إنتاج فيلم يشوه الإسلام وأن التحضيرات جارية لنشر ترجمة محرّفة للقرآن وأشياء من هذا القبيل.

زعم الأئمة أنهم يمثلون مئتي ألف مسلم في الدانمارك. إن كان هذا صحيحاً فإن مسؤولية كبيرة تقع على عاتقهم. عليهم بدلاً من نشر الكراهية والتحريض السعي لزرع بذور التفاهم بين المجتمع الذي أرادوا العيش فيه وبين من يزعمون أنهم يمثلونهم.

2 ـ على الأئمة أن يكنسوا أمام بيوتهم

آني ليف غامليم[1]

اجتمع كل من الإمام محبوب الرحمن والسيد محمد حمدان من المركز الإسلامي في النروج مع وزير الخارجية يوناس غاهر ستوره وشرحا له كيف يمكن خلق حوار بين الأديان. بعد الاجتماع بقليل ذهب الإمام إلى الجامع ليلقي خطبة الجمعة وفيها قال إن حرية التعبير لا يمكن أن تستخدم للإساءة للآخرين وإنه يجب ألا يكون في مقدور أعداء الإسلام نشر دعايتهم المضادة للإسلام. إذا كان هذا صحيحاً فإن المنطق يقتضي أن يكون الإمام العتيد واعياً لما ينشره في خطبه التي يلقيها في الجامع كل يوم تقريباً.

(1) باحثة في الأديان.

يقوم الإمام محبوب الرحمن ورئيس المركز الإسلامي بتوزيع كتابات الداعية الإسلامي الباكستاني مولانا المودودي. وقد شاهدت ذلك بأم عينيّ أثناء زيارة قمت بها للإمام في الجامع في عام 2004 حين كنت مشغولة بكتابة أطروحتي عن المودودي.

أحد الكراسات التي يجري توزيعها هي باللغة الأوردية بعنوان: «مسلم أور كافر كا أصلي فرق»، ويعني: «الفرق الأساسي بين المسلم والكافر». يرد في الكراس قولة المودودي الآتية: «المسلم أعلى طبقة من الكافر. والله يسعد بلقاء المسلم ويغضب من لقاء الكافر». وكما هو واضح في الكراس فإن الكافر هو غير المسلم أياً كان دينه ومعتقده.

في الكراس يتحدث المودودي عن الدولة الإسلامية وموقع غير المسلمين فيها. هناك تمييز بين المسلمين الذين يحتلون الموقع الأول وغير المسلمين الذين ينزلون إلى منزلة المواطنين من الدرجة الثانية. كان المودودي أسّس حزباً إسلامياً سمّاه الجماعة الإسلامية.

وقد قام الزعيم الحالي للحزب، قاضي حسين أحمد، بزيارة النروج بدعوة من المركز الإسلامي بالذات. إنه لنوع من الكيل بمكيالين حين يصرخ الإمام داعياً إلى المساواة والاحترام والتسامح وينشر في الوقت نفسه كتابات تطعن في صميم المساواة والاحترام والتسامح وتحط من قيمة غير المسلمين.

يتحتّم على الأئمة أن يبدأوا بالتنظيف من باب بيتهم.

3 ـ حرية التعبير معكوسة

أريك ساغفلات[1]

النزاع الذي أحدثته الرسوم الكاريكاتورية ظهر في هيئة الصراع من أجل حرية التعبير. الواقع هو العكس. . إنه خطوة إلى الوراء على طريق الحق في التعبير.

كان نشر هذه الرسوم بالنسبة للأنظمة الاستبدادية هدية من السماء. أخيراً بات من الممكن الوقوف في وجه الضغوط الخارجية الداعية إلى الديموقراطية والمزيد من الحرية للناس. وضعت الرسوم ذريعة لا تقدر بثمن بين أيدي الأنظمة الطاغية كي تقف أمام شعوبها وتقول لهم: هذه هي حرية التعبير التي يطالبوننا بها. إن الشعوب التي ترتبط بالدين بشكل قوي وتحترم المقدسات سوف تبادر على الفور إلى التذمر من حرية لا تجلب لها سوى الإهانة للمقدسات وجرح المشاعر. في وسع المستبدين الديكتاتوريين أن يتنفسوا الصعداء.

حرية التعبير ليست وصفة واحدة للجميع بما في ذلك في مجتمعنا. لقد انتاب الغضب المسلمين في الدانمارك لأنهم اعتبروا أن السلطات الدانماركية لم تعر احتجاجهم بالاً. وهم زعموا أن الصحافة الدانماركية لم تعط فسحة كافية لوجهة نظرهم. ولهذا أرادوا الانتقام بطريقتهم واختاروا الذهاب إلى من يمكن أن يصيخ السمع إليهم. كانت الأبواب

---

(1) محرر الشؤون الخارجية في صحيفة «داغس أفيسن».

مفتوحة لهم على مصراعيها هناك: وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية. ولقد نجحوا في مسعاهم حقاً.

الصحف التي تخضع لهيمنة السلطات والتلفزيونات التي تخضع للرقابة في تلك البلدان وجدت في قضية الرسوم فرصة ذهبية كي ترفع صوتها أخيراً. فالأمر يتعلق بالنبي يا جماعة. ولا يمكن لأحد أن يقف في الطريق. الكل يتفق في هذا. فلنضرب ضربتنا ولنتحدث كثيراً عن جرح المشاعر مع أن احترام مشاعر الآخرين هو آخر شيء يهمهم.

4 ـ كاريكاتور حرية التعبير

بيتر نورمان ووغه[1]

لقي ما يقارب سبعين شخصاً حتفهم في مانيلا، عاصمة الفيليبين. كان هناك طابور من مئات من الناس الواقفين من أجل الحصول على بطاقات لحضور عرض لإحدى الفرق الفنية. ويبدو أن أحدهم صرخ بأن الباب قد فتح ويمكن للجميع الدخول. وهو ما لم يكن صحيحاً. تدافع الناس من الخلف ووقعت الكارثة.

في النقاش حول حرية التعبير غالباً ما يتم الاستشهاد بالمثال الآتي: في مسرح مكتظ بالمتفرجين يصرخ أحدهم: حريق. يسيطر الفزع على الجميع فيبدأون بالتدافع في كل الاتجاهات. يسقط كثيرون ويلفظون أنفاسهم تحت الأقدام. ليس ثمة حريق. كان الأمر مزحة أطلقها أحدهم.

(1) كاتب وصحافي.

الاضطرابات التي نتجت عن الرسوم الكاريكاتورية وقعت في الأماكن التي يسود فيها عدم الاستقرار السياسي وحيث يشعر المسلمون، لأسباب مختلفة، بأنهم يتعرّضون للإذلال، إما من الغرب مباشرة أو من أنظمة مستبدة مدعومة من الغرب.

لم تكن الرسوم سوى القطرة التي طفح بها الكيل، الكأس كان امتلأ من قبل.

المسلمون في النروج، من جانبهم، تصرفوا كما يفعل النروجيون عادةً: النأي عن العنف، الانغماس في الحوار والنقاش، الكتابة للصحف والمشاركة في البرامج التلفزيونية. وقد شعروا بالانزعاج، شأن النروجيين بالعموم، لرؤية مشاهد حرق العلم النروجي وإضرام النار في السفارة النروجية في دمشق. العلم النروجي هو علمهم والسفارة سفارة بلدهم الذي اختاروا العيش فيه بإرادتهم.

بشأن العلاقة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين يقول القرآن ما معناه إن الله لو شاء لكان جعل الناس كلهم فريقاً واحداً ولكنه خلقهم جماعات مختلفة.

لقد حمل ثلاثة أئمة من الدانمارك اثنتي عشرة صورة قالوا إنها تمثل الرسوم الكاريكاتورية عن الرسول محمد. وهم فعلوا ذلك لتعبئة الرأي العام الإسلامي ضد «بلدهم» الدانمارك. بين الصورة كانت واحدة تصوّر رجلاً يحمل وجه خنزير. لم تكن تلك الصورة من الرسوم الكاريكاتورية. كانت في الواقع لرجل فرنسي يرتدي قناعاً يمثل خنزيراً

في مسابقة للمزارعين وكانت نشرت في مجلة فرنسية لا علاقة للدانماركيين بها من قريب أو بعيد. لماذا فعل الأئمة ذلك؟

إن الأمر يشبه إلى حدٍّ كبير المزحة القاتلة في المسرح المكتظ بالمتفرجين: حريق.

5 ـ أبناء إبراهيم

توربيورن ياغلاند[1]

كان الفيلسوف برنار هنري ليفي على حق حين قال إننا نعيش في مختبر كبير تصطدم فيه الجزيئات وتحطم بعضها بعضاً وتتشكل جزيئات أخرى بأشكال جديدة. ما معنى ذلك؟ هل في وسع المؤمنين وغير المؤمنين أن يتآلفوا؟ هل بمقدور المسلمين والمسيحيين واليهود أن يتعايشوا من دون صدام؟

من المفيد أن نذكر أن الديانات التوحيدية الثلاث تستند إلى إرث ديني وثقافي واحد. أبناء هذه الديانات هم «أهل الكتاب» كما يقول المسلمون. إنهم من ذرية إبراهيم وأتباع عقيدته.

الكلمة الأكثر إيحاء للتشديد على ما ينبغي أن نقوم به من أجل التغلب على العقبات هي كلمة التسامح. غير أن هذه المفردة غالباً ما تترافق مع معاني التعالي والقبول المشروط. فالأقليات التي تتمتع بالتسامح من لدن الآخرين غالباً ما تشعر أنها مقبولة بدافع الشفقة من دون أن يكون وجودها مضموناً بشكل نهائي.

---

(1) وزير خارجية النروج السابق ورئيس البرلمان النروجي الحالي.

كلنا نعرف أن اليهود تعرضوا للمجازر بعد قرون من التسامح الشكلي في أوروبا الغربية. والبوسنيون الذين تعايشوا بسلام زمناً طويلاً هبوا فجأة ليذبحوا بعضهم بعضاً في نهاية القرن العشرين.

إن هناك حاجة لما هو أكثر من التسامح. هناك حاجة لاحترام الآخرين وتقبّل أفكارهم وعقائدهم. يمكننا أن ندرك أن الديانات التوحيدية الثلاث تملك قواسم مشتركة تتمثل في قيم السلام والتعاطف مع المظلومين والفقراء. تتأسس اليهودية والمسيحية والإسلام على مبدأ يقوم في عدم الفصل بين الإيمان والمعاملة. إنه مبدأ أخلاقي يشترك فيه غير المؤمنين أيضاً. الاحترام المتبادل على المستوى الديني يمكن أن ينسحب على ما هو دنيوي أيضاً. ولكن الطريق الذي يجب قطعه هنا ما زال طويلاً. بعد الأحداث الأخيرة بدأت أسأل نفسي: هل من الممكن لشخص ما أن يصير نروجياً أو سويدياً أو دانماركياً؟

إن الغالبية منا ترحب بالمهاجرين واللاجئين الذين يأتون للعيش بيننا وهم يرون أن من حقهم التمتع بالحقوق نفسها سواء في نظرنا أو في قرارة أنفسهم. وهذه النظرة لا تقتصر على اللاجئين الذين يحملون معهم ثقافة مختلفة عن ثقافتنا. إنها تشمل الأقليات التي تعيش في المجتمع النروجي نفسه. لقد عانى المثليون جنسياً كثيراً قبل أن يتم الاعتراف بهم. والآن انقلبت الآية. فالذين لا يقبلون بالمثلية الجنسية لأسباب دينية أو غيرها باتوا أقلية تتعرض للتمييز ولا تحظى بالاحترام.

وفي مستهل العام الجديد خضنا غمار مناقشة حامية عن علاقة الكنيسة بالدولة. وفي رأيي أن هذا النقاش ينبغي أن يتوسع ليشمل

علاقة الدولة بالدين بشكل عام وكذلك العلاقة التي ينبغي أن تنهض بين الديانات والعقائد المختلفة في المجتمع. كان الفيلسوف يورغن هابرماس قال: ينبغي على الدولة الليبرالية أن لا تجعل من الفصل الضروري بين الكنيسة والدولة عبئاً ذهنياً ونفسياً على كاهل كل من يتبع عقيدة ما.

أنا أدعو إلى علاقة جديدة أكثر انفتاحاً بين الدولة والكنيسة وذلك من أجل ضمان حرية الاعتقاد والتأكد من أن الدولة تقف على مسافة واحدة من جميع المعتقدات. ولكن ينبغي أن لا يتم ذلك بطريقة تدفع بالغالبية التي تشعر بالارتباط بالدين المسيحي بشكل أو بآخر إلى إخفاء طقوسها وشعائرها من أجل إرضاء الأقلية. أمر كهذا سوف يجعل الأكثرية تعاني مما تعاني منه الأقلية. إن التسامح يجب ألا يدفع بنا إلى إلغاء الاحتفال بعيد الميلاد أو عيد الفصح أو التخلي عن دعاء الخبز على مائدة الطعام وما شابه. ويتحتّم على الأكثرية، من جانبها، أن تحترم طقوس الأقليات وممارساتها وعلى الدولة أن تساعد هذه الأقليات مادياً كي تستطيع البقاء. إن التسامح والاحترام الآخر يتطلبان أفراداً واعين يستطيعون ملاحظة الفروق القائمة في المجتمع ويتكيفون مع وجهات نظر الآخرين. وهنا نأتي إلى نقطة أخرى كان يورغن هابرماس أشار إليها وهي إمكان أن تقوم الدولة والسوق بغزو المجتمع المدني. وأن تكون لنا مؤسسات ووسائط إعلام مستقلة وصحافة حرة. هل نحن في وضع كهذا؟ ألم يتحوّل المال، أي السوق، إلى إله يعلو فوق الجميع؟

ما زالت وسائل الإعلام تفرد مساحات واسعة للسجال والحوار. غير أن الطابع الذي يهيمن أكثر فأكثر هو ويا للأسف التصادم والشجار. وفي مثل هذه الحالات يخلق كل طرف بورتريهات نمطية عن الطرف الآخر. في هذه الأجواء يظهر الميل إلى الاعتقاد بعدم وجود ما هو مشترك بين ثقافتنا والأصولية الإسلامية: نحن نؤمن بالقيم الغربية إذن نحن ضد الإسلام. ونجد هذه الظواهر في حالات كثيرة أخرى تتجاوز الدين. فإذا كان المرء ضد المثلية الجنسية فهذا يعني أنه من أنصار التجنيد. وفي المقابل فإن من يؤمن بحرية المثليين جنسياً يوسمون غالباً بمعاداة المسيحية.

ونشهد ارتفاع أسهم المتطرفين في الكثير من المجتمعات فيما المعتدلون يجدون صعوبة بالغة في إسماع صوتهم.

ينبغي أن نفتح المجال لحوار يواجه المصاعب ويسمي المشاكل بأسمائها من دون المبالغة في تصوير حجمها بطريقة مصطنعة. وبصفتي رئيساً للبرلمان أرى أن مسؤولية كبيرة تقع على عاتقنا بصفتنا ساسة ومسؤولين وذلك من أجل تعميق أسس الاحترام والاهتمام بالآخر في معزل عن الاختلافات الدينية والثقافية.

6 ـ عن التسامح

لارس غوله[1]

تظاهر المسلمون ضد الدانمارك والنروج لأن رساماً دانماركياً وضع

---

(1) رئيس مركز التعددية الثقافية في أوسلو.

رسوماً كاريكاتورية للنبي محمد وقامت صحيفة دانماركية ومجلة نروجية بنشرها. وأرسل وزير خارجيتنا توجيهات إلى السفراء النروجيين في الشرق الأوسط يطلب منهم تفهم مشاعر المسلمين وإبداء الأسف للاضطراب الذي نتج عن ذلك. ولكن الملاحظات التي عبر عنها الوزير افتقدت إلى إدراك كامل لمعنى حرية التعبير وقيم الاحترام والتسامح. والمؤسف أن المبعوث الفلسطيني الجديد إلى النروج، ياسر نجار، لم يفصح عن تشبث بمثل هذه القيم. لا يمكن لأحد أن يطالب الآخرين باحترام معتقده. الاحترام يعني: «التقدير، التمجيد، التخوف». من البديهي أن المؤمنين لا يحترمون عقائد غير المؤمنين ومن المتوقع أن يفعل غير المؤمنين الأمر نفسه في ما يتعلق بعقائد المؤمنين. المطلوب هو احترام حق المرء في أن يؤمن أو لا يؤمن بعقيدة ما. هناك على الدوام إمكان أن يؤمن واحدنا بعقيدة لا تحظى باحترام الآخرين بل تستفزهم وتثير حنقهم. المؤمنون لا يستطيعون كظم غيظهم من ناس ينكرون وجود إلههم وغير المؤمنين في المقابل لا يستطيعون إخفاء تذمرهم من ناس يؤمنون بأشياء تعد في نظرهم مضحكة.

في واقع كهذا تعدّ حرية التعبير مسألة جوهرية. حرية التعبير هي حرية اختيار طريقة العيش التي تروق لنا. ولا حاجة للقول إن حرية التعبير هذه، مثلها مثل حرية الدين، يمكن أن تستعمل للتعبير عن آراء قد لا تروق للآخرين بل ربما تستثيرهم. والحق أن لا قيمة لحرية التعبير من دون إمكانها في أن تستفز وتثير الخلاف. لا شيء أكثر رثاثة من فكرة يتفق الجميع بشأنها.

من هنا تأتي أهمية التسامح. التسامح يعني تقبّل أفكار الآخرين وعدم اللجوء إلى حجبها أو إقصائها بالرغم من أنها تثير استياءنا وتستفزنا. هذا التسامح هو شرط أساسي للتعايش السلمي في عالم يكتظ بوجهات نظر وعقائد مختلفة. مثل هذا الأمر جعل من حرية التعبير والتسامح قيمتين أساسيتين في المجتمع العصري. ولكن حين تتعرض حرية التعبير للتحديد ويتلقى الكتاب والصحافيون تهديدات بالقتل ثم يقوم مسؤولون حكوميون بإرسال توجيهات تعبر عن الأسف بذريعة تفهم «المشاعر المجروحة» لبعض الناس فإن الحرية الفردية تهتز وتتأرجح. حين تعتذر السلطات الحكومية التي تمثل مواطنين انتخبوها بحريتهم من أوساط إسلامية وتقول مرتبكة إن «مجلة نروجية مغمورة» ارتكبت خطأ فإنها تصادر تلك الحرية وتسيء استخدام التمثيل.

الصراع بين الأوساط الإسلامية المحافظة والمجتمع العالمي الحديث تعبير عن صراع ثقافي. إنه ليس «صراع حضارات» بين أقاليم جغرافية متباعدة. فالصراع قائم بين المسلمين أنفسهم. وموقف السلطات النروجية إنما يسيء للملايين من المسلمين الذين يتوقون إلى مساحة أوسع من حرية التعبير والتسامح من لدن الناطقين باسمهم. كيف يمكن للسلطات النروجية بعد الآن أن تدافع عن شخص مسلم تحاكمه حكومته بدعوى التجديف أو تتم المطالبة بفصله عن زوجته بل حتى قتله في وقت يجري فيه التنازل للمتطرفين هنا بالذات؟ حرية التعبير تنطوي على إمكان أن نثير غضب الآخرين وحنقهم وأن يثير الآخرون غضبنا وحنقنا. هذا هو جوهرها الحقيقي. حرية التعبير ليست إرضاء وتعزية

بل تحدياً وتحريضاً. هذا ما يتحتم على الأوساط المحافظة المسلمة أن تدركه وتتعلم التكيّف معه.

العين الأمريكية

المسلمون الأمريكيون

ذكرت «نيوزويك»[1] الأمريكية أن المسلمين الأمريكيين قد يكونون الجالية المسلمة الأقوى اندماجاً في مجتمع غربي، وذلك في المقارنة بينهم وبين أقرانهم في الدول الأوروبية، فهم على مستوى اقتصادي واجتماعي واحد مع من هم أمثالهم من الأمريكيين الآخرين، ويتبنون بعض القيم الاجتماعية الأمريكية الأساس مثل التعويل على العمل والجهد في سبيل التقدم الاجتماعي. وتخالف المساواة بين المسلمين الأمريكيين وبين مواطنيهم الآخرين، تدّني حال المسلمين الفرنسيين والألمان والبريطانيين، قياساً على مواطنيهم تباعاً، بما لا يقل عن 20 في المئة. ولا ينجم عن المساواة هذه قبول سياسي، فالمسلمون الأمريكيون لا يكتمون استياءهم من سياسات الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان والأراضي الفلسطينية. ويقدمون على رأي الحكومة في المسائل، رأي «الجزيرة» أو أحكام بعض مواقع الإنترنت. وتخلّف موجة الاستياء هذه قلقاً واضطراباً يصيبان علاقات الشبان والمعمرين

(1) ليزا ميلر، نيوزويك، 31/ 7/ 2007.

المسلمين أنفسهم، على نحو ما يصيبان المهاجرين الجدد والمولودين في الولايات المتحدة، والجيل الثاني والجيل الثالث.

ويبلغ عدد المسلمين الأمريكيين، بحسب بعض الإحصاءات المتداولة، 2,35 مليون. ويرجح أن يكون عددهم أكثر بما لا يقل عن 20 إلى 30 في المئة. وثلثا هؤلاء ولدوا خارج الولايات المتحدة، وحلّوا بها في أعمار متفرقة قبل اكتساب جنسيتها أو تابعيتها. وبدأ قدومهم إلى البلاد الأمريكية على نحو موجات هجرة في 1965، مع تيسير القانون الأمريكي استقبال المهاجرين الجدد. وفي أثناء العقود الأربعة المنقضية قدم معظم المهاجرين المسلمين من باكستان والهند، ثم من بنغلاديش وإيران، في المرتبة الأولى، ومن العالم العربي، والأراضي الفلسطينية ولبنان ومصر، في المرتبة الثانية. وبعضهم قدم من أوروبا وأفريقيا. وهم هاجروا إلى المهجر الأمريكي طلباً للدراسة والارتقاء، وهرباً من الحرب والاضطهاد في بلادهم الأم. ويلاحظ كيث أليسون، النائب الديموقراطي والمسلم عن ولاية مينيسوتا (وهو أول نائب مسلم)، أن مصدر قوة «الحلم الأميركي» تعريف الرابطة الوطنية الأمريكية بمنظومة أفكار ومبادىء، وليس برابطة عرقية دموية أو بآصرة نسبية وتاريخية وثقافية.

والمسلمون المتحدّرون من أصول أفريقية هم معظم المسلمين المحليين المولودين على الأراضي الأمريكية. وأولاد المهاجرين المسلمين تتعاظم نسبتهم من جملة المسلمين الأمريكيين. ويشترك هؤلاء في حداثة سنهم. ونصفهم أعمارهم بين 18 و29 سنة. وعلى

هذا، تكاد الجماعات التي يتألفون منها تستوي نفوذاً ومكانة، فلا يفوق نفوذ الجماعة منها نفوذ نظائرها. ويرعى هذا تنوع جماعة المسلمين الأمريكيين، ويحول دون سيطرة جماعة، أو لون، على الجماعات أو الألوان الأخرى، على نحو ما يحول دون انفراد جماعة بمسار اجتماعي أو سياسي خاص يصم الجماعات الأخرى بوصمة عامة. فبعض اليمنيين حلّوا، منذ ثلاثينات القرن العشرين، لاكاوانا، بالقرب من نيويورك، وعملوا في مصانع فولاذ هناك. والمصانع في هذه الأثناء، أغلقت أبوابها وسرَّحت عمالها. ولكن الجالية اليمنية تأمركت، وتنامت عدداً وذرية. وأصاب شبانها ما يصيب أمثالهم في أوروبا جراء البطالة، وتردّي فرص العمل، فأدمنوا المخدرات، وخالطوا عصابات الإجرام، وأقام 35 في المئة دون خط الفقر.

ولعل إحدى المزايا البارزة التي تقرب المسلمين الأمريكيين من المجتمع الأمريكي العريض، وتدعوهم إلى الانخراط فيه، هي تديّن عامة الأمريكيين، فهؤلاء، من وجه، يرتابون في الشعائر الدينية التي تخالف شعائرهم المعروفة والمعتادة. ولكنهم، من وجه آخر، يحترمون المتدينين وشعائرهم، ويقدمونهم على من يجهرون التحلّل من التديّن، وينصرفون عنه. فـ 69 في المئة من الأمريكيين استطلعوا رأيهم في الحجاب، ولباسه، قالوا بإجازة التحجّب في المدارس والجامعات (وهذا ما حمل رجب طيب أردوغان، رئيس الحكومة التركي، على إرسال بناته إلى الجامعات الأمريكية للدراسة، وتركهن تركيا حيث يحظر القانون العلماني الحجاب).

ونَعِم المسلمون الأمريكيون بسلام نسبي نجم معظمه عن عزلتهم، إلى 11/ 9/ 2001، والهجمات الإرهابية. وخسر المسلمون الظل الذي كان يلفهم إلى حينه، فمذ ذاك اضطر المسلمون، ومن كان منهم لا يرى داعياً إلى إشهار دينه أو دين آبائه وأهله، إلى إشهار إسلامهم، ومسلمات شابات كثيرات، ولدن لأمهات تقليديات كن يدعونهن إلى ترك الحجاب، لبسن الحجاب جواباً عن قيام المجتمع الأمريكي على الإسلام، وتنديده به، وتحميله المسؤولية عن الهجمات الإرهابية. وقدرت دراسة أنجزتها جامعة هاملتون في 2002 أن ثلث المسلمات الأمريكيات يرتدين الحجاب في هذا التاريخ يومياً. ولكن المسلمين الأمريكيين عمدوا إلى الرد على التمييز العنصري الذي أصابهم، رداً أمريكياً. فلجأت كثرة منهم إلى القضاء. وأحصى مجلس العلاقات الأمريكية ـ الإسلامية، وهو جمعية حقوقية ومدنية، 2500 دعوى مدنية رفعها مسلمون أمريكيون في 2006 وحده. ويتقدم بهذه الدعاوى نساء يدافعن عن وثائق شخصية، مثل الصور الفوتوغرافية على رخص القيادة، يبدون فيها محجبات. وهذا قرينة على اعتدال أصحاب القضايا المدنية، شأن أئمة مساجد ستة حالت شركة طيران في مينابوليس بينهم وبين الصلاة في ردهة مطار المدينة، فقاضوا شركة الطيران ومجلس المطار بدعوى انتهاك حق مدني أمريكي هو حرية العبادة والحق في إشهارها وإعلانها. وكسب الأئمة الستة الدعوى، وانتصرت لهم المحكمة . وعلّل الشيخ ديدمار فاجا، أحد الستة، فعله بقوله: «السبب في رفع دعوانا القضائية هو اقتناعنا بعدالة القضاء (الأمريكي»).

والمسلمون الأمريكيون الشبان أو الفتيان، وهم الباعث على الخشية والحذر، حملهم الانتباه إليهم على اعتناق ديانتهم علناً وعلى رؤوس الأشهاد، من غير الخروج على أمريكيتهم إلى اليوم، فـ 60 في المئة من المسلمين بين 18 و29 عاماً يعرفون أنفسهم مسلمين في المرتبة الأولى. وثمة 40 في المئة نظيرهم فيمن تخطوا الـ 30 عاماً. وفئة 18 ـ 29 عاماً يميلون إلى ارتياد المساجد أسبوعياً، وإقامة صلاة الجماعة، ولكنهم لا يتقيدون بالتقاليد أو الفروض التي تميز النساء من الرجال، وقد يتمسك بها أهلهم. فإذا أنكر الوالدان زواجاً عرقياً مختلطاً بين مسلمة ومسلم، احتجّ الأولاد بالقول إن الإسلام لا ينهى عن مثل هذا الزواج بل يحبذه. ووجه بارز من مشكلة المسلمين الأمريكيين، وانخراط شبانهم في الحياة الأمريكية، مصدره إعداد الأئمة وعلماء الدين، فقلّة من هؤلاء درست في الولايات المتحدة، ونشأت فيها، وألفت عاداتها وسننها وثقافتها. ويشكو آباء مسلمون ولد أبناؤهم وبناتهم في أمريكا بعد الشقة بين أولادهم وبين شيوخهم وعلمائهم.

وإلى هذا، فنحو 50 في المئة من المساجد في أمريكا تموله مساعدات من خارج أمريكا ومسلميها وجمعياتهم ومواردهم. ويأخذ مسلمون محليون على الهبات الأجنبية إنشاءها «نوعاً من التبعية»، وإلحاقها المساجد وأئمتها بميول أصحاب الهبات والمساعدات. وفي مسجد الصفاة، بأحد أحياء ترنتون الفقيرة (من ولاية نيوجرزي)، انتبه مصلّون أفغان ومصريون وصوماليون وفلسطينيون على إمام مسجدهم، وهو أمَّهم طوال 20 سنة، وقد ترك سيرته السابقة إلى سيرة جديدة،

متشددة ومنكفئة. فأغلق مدرسة المسجد بذريعة تهاونها في العمل بالفرائض. ودعا إلى أحكام وضوء وطهارة لم يعهدها المصلّون من قبل. فما كان من «رعية» إمام المسجد إلا أن قاضته، على نهج أمريكي مشترك، وطلبت تنحيته ونزوله عن دفاتر المحاسبة ومدوّنات المسجد إلى مجلس إدارة المسجد المنتخبة. وطرفا الخلاف هما مسلمون مولودون خارج الولايات المتحدة، وآخرون من أصول أفريقية ومولودون في أمريكا، والجماعة الثانية تميل إلى التشدد بينما تميل الأولى إلى الاعتدال. فالمسلمون السود يذهبون إلى أنهم لم يشعروا قط بالانتساب إلى المجتمع الأمريكي، على حين يرغب المسلمون المهاجرون في الاندماج في مجتمعهم الجديد.

ولعل أشد ما يصيب المسلمين الأمريكيين الشبان هو إحساسهم بنبذهم من الكيان الأمريكي. ويعتقد 39 في المئة من المسلمين المهاجرين ممن بلغوا 18 إلى 29 سنة أن الانكفاء عن المجتمع الأمريكي خير لهم من السعي إلى الانخراط فيه، نظير 17 في المئة من الذين تجاوزت سنهم 55 سنة. فالأهل الذين ولدوا في بلاد مسلمة، وقدموا الولايات المتحدة فتياناً، وشقّوا طرقاً فيها، معظمهم صرف النظر عن العودة إلى مناشئهم ومسارح حياتهم الأولى. وهم يعرفون أنفسهم بنسبتين، واحدة إلى أمريكا والثانية إلى بلادهم الأولى. وبعض أولاد هؤلاء عانوا من لا مبالاة عامة الأمريكيين، وخشونة بعضهم الآخر، وتمييز أولادهم وفظاظتهم، وقسوة السياسة الأمريكية في بلاد آبائهم، وخسارة أمريكا هؤلاء الأولاد نذير شر ينبغي تفاديه.

في كتابه «الإسلام الأمريكي»[1]، يبدد بول باريت، الصحافي السابق في وول ستريت جورنال، الكثير من المفاهيم الخاطئة فيما يتعلق بالمسلمين الأمريكيين.

فعلى سبيل المثال أوضح، وعلى العكس من الاعتقاد السائد، لا يمثل الأمريكيون السود أغلبية المسلمين في أمريكا (20 في المائة فقط، معظمهم من معتنقي الإسلام الجدد)، أما أكبر تكتل للمسلمين في الولايات المتحدة، 34 في المائة، فهو من الهنود والباكستانيين، وهم من المهاجرين الجدد الذين بدأوا في الوصول بأعداد كبيرة في السبعينيات. وباقي العدد من الأتراك والإيرانيين وآخرين.

واحد من الكوابيس التي كانت تؤرق آية الله الخميني الذي حكم إيران بيد من حديد لعقد من الزمن كان ما وصفه بـ «أمركة الإسلام».

وكان الخميني يخشى أن يؤدي تسلل بعض الأفكار الأمريكية مثل حكم القانون والديموقراطية وحق الفرد وأسلوب الحياة البديلة وفصل الدين عن الدولة في المجتمعات الإسلامية إلى إضعاف الالتزام بالدين. وبالنسبة لرجل الدين العجوز، كان شعار «الموت لأمريكا» مهماً مثل أي بيّنة على الإيمان.

غير أن بول باريت الصحافي السابق في وول ستريت جورنال يوضح أن ملايين المسلمين يعيشون في الولايات المتحدة وطن «الشيطان الأعظم». دون التخلّي عن إيمانهم. وبطريقة ما يستمتع المسلمون

(1) قراءة في الكتاب لأمير طاهري، الشرق الأوسط (منتدى الكتب)، 25/ 4/ 2007.

بمزيد من الحرية الدينية في الولايات المتحدة أكثر من تلك التي يستمتعون بها في الجمهورية التي شيّدها الخميني (في الولايات المتحدة كل المذاهب الإسلامية حرة في ممارسة تقاليدها والانتشار. أما في الجمهورية الإسلامية في إيران فإن مذهب الخميني فقط هو الذي يتمتع بحرية كاملة).

مفاهيم خاطئة

لا يعرف أحد عدد المسلمين بالضبط في الولايات المتحدة، ولا يقدم باريت رقماً قاطعاً. وتتراوح التقديرات بين 3 إلى 6 ملايين. ومن سوء الحظ أن باريت لم يبد اهتماماً أكبر بالحاجة إلى تحديد رقم مقبول للمساهمة في إنهاء الجدل حول تلك القضية. يبدأ باريت كتابه بتبديد الكثير من المفاهيم الخاطئة فيما يتعلق بالمسلمين الأمريكيين. فعلى سبيل المثال أوضح، على العكس من الاعتقاد السائد، أن الأمريكيين السود لا يمثلون أغلبية المسلمين في أمريكا (20٪ فقط، معظمهم من معتنقي الإسلام الجدد). أما أكبر تكتل للمسلمين في الولايات المتحدة، 34٪، فهو من الهنود والباكستانيين، وهم من المهاجرين الجدد الذين بدأوا في الوصول بأعداد كبيرة في السبعينيات. وباقي العدد من الأتراك والإيرانيين و«آخرين».

وطبقاً لباريت، فإن 85٪ من المسلمين الأمريكيين من السنة، بينما يمثل الشيعة 15٪. والأمر غير الواضح، هو ما إذا كان باريت ضم أمة الإسلام وهي حركة من الأمريكيين الأفارقة، ضمن السنة.

ويقدم باريت عدداً من الحقائق المفاجئة، فعلى سبيل المثال، فإن 60٪ من الأمريكيين المسلمين يحملون شهادات جامعية أو عليا، وهو ضعف المتوسط الأمريكي. ويعمل معظم المسلمين الأمريكيين في قطاع الخدمات، ولا سيما في مواقع إدارية، ويحصلون على دخل يزيد 20٪ على متوسط أجر الأمريكيين.

وبسبب الهجرة الضخمة ولا سيما من الهند وباكستان، وبسبب حجم الأسر الكبير، أصبح الإسلام أكثر الأديان نمواً في الولايات المتحدة. كما أنه يجذب أكبر عدد من المعتنقين، في منافسة ليس فقط ضد المسيحية والهندوسية والبوذية والبهائية، ولكن أيضاً ضد بعض الاتجاهات الدينية الجديدة مثل كنيسة «الساينتولوجي». ويذكر باريت القرّاء بأن الإسلام هو أسرع الأديان نمواً في العالم.

وكتاب باريت ليس له بنية واضحة ويمكن اعتباره سلسلة من التقارير المنفصلة. ويخصص الكاتب جزءاً كبيراً من الكتاب لتقديم 7 مسلمين، من المفروض أنهم يمثلون المسلمين الأمريكيين. ويعطي لكل واحد منهم صفات: العالم والناشط والناشطات في حقوق المرأة.

ومن بين السبعة يوجد شيعي واحد هو أسامة سيبلاني. وهو لبناني الأصل، هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1976 واستقرّ في ديربورنس بمتشيغان، وهي معقل الأمريكيين العرب في منتصف القرن الماضي. وينشر سيبلاني صحيفة «آراب أميركان»، وهي أكبر صحيفة عربية في الولايات المتحدة. ويظهر سيبلاني كشخصية معقدة. فمن ناحية هو من أشد المعجبين بـ «الحلم الأمريكي» إلا أن صحيفته، من ناحية أخرى،

تلوم الولايات المتحدة على معظم الأخطاء في العالم الإسلامي وأماكن أخرى من العالم، كما أنه من أشد المناصرين لحزب الله، وهو جزء من الحركة الخمينية. وينتقد سيبلايني السياسيين والأحزاب اللبنانية التي تقاوم محاولة حزب الله الاستيلاء على السلطة في لبنان.

ومن بين الشخصيات الطريفة التي يقدمها مؤلف الكتاب، شخصية سرج وهاج، وهو أفريقي أمريكي مسلم يروّج لعديد من النظريات مثل الاعتماد على النفس والعمل الشاق، وهي من الأفكار التي طورها في البداية مالكوم أكس. ويعتقد وهاج أن الولايات المتحدة ستتبنى في يوم ما الشريعة كقانون أساسي لإنقاذ نفسها من الخمور والمخدرات والقمار والإباحية والدعارة.

ومن الصعب رؤية كيف يمثل هؤلاء الأشخاص المسلمين في أمريكا. وفي الواقع، فإن الحديث عن مجتمع إسلامي واحد في الولايات المتحدة أو في أي مكان آخر يمكن أن يكون مضللاً، وهذه الحقيقة يجب التركيز عليها لسببين:

السبب الأول: يتعلق بالاندماج. فما يسمى بـ «البوتقة الأمريكية» لا يمكنها دمج مجموعات. إنها تدمج أناساً من خلفيات وثقافات وأعراق ولغات متعددة باعتبارهم أشخاصاً فقط.

وهناك سبب آخر يفسر خطأ التركيز على الشكل الجماعي للإسلام في أمريكا، وهذا يرجع لحقيقة أن المسلمين في الولايات المتحدة لديهم تطلعات ثقافية وسياسية مختلفة. ففي عام 2000 على سبيل

المثال، صوّت المسلمون الأمريكيون من أصول عربية وإيرانية بأغلبية لجورج بوش بينما صوّت المسلمون من أصول أفريقية لآل غور. وفي 2004 صوّت معظم الأمريكيين العرب والأمريكيين الأفارقة ضد بوش بينما صوّت المسلمون من أصول هندية باكستانية وإيرانية لصالح بوش.

تحليلات غير مقنعة

خصص باريت جزءاً أساسياً من الكتاب لأفكاره حول ما يجب القيام به لتحسين العلاقات بين المسلمين الأمريكيين وواقع أميركا الأوسع. لكن ما يؤسف له أن التحليل كان مهزوزاً عند تقديمه عدد من الاقتراحات. وزعم باريت أن الطلبة القادمين من الشرق الأوسط يجلبون معهم التطرف إلى الولايات المتحدة هو بالتأكيد عسير على الإثبات. وهناك دليل على أن الأمور تعمل بطريقة معاكسة، فالطلبة المسلمون يصبحون متطرفين في الجامعات الأمريكية.

وهنا مثالان لتوضيح الصورة: أولاً، هناك تسعة أعضاء من قيادة تنظيم تروتسكي إيراني، ساعد الملالي على قلب حكم الشاه عام 1979، متخرجون من جامعات أمريكية، بينما هناك 5 أعضاء في أول حكومة شكّلها الخميني بعد الثورة يحملون جنسيات أمريكية.

ثانياً: بين عامي 1970 و2002 كانت الولايات المتحدة البلد الوحيد الأكثر أهمية من حيث كونها مصدراً لتمويل الحركات الإسلاموية خارج الشرق الأوسط.

الإسلام في حرب
الولايات المتحدة على الإرهاب[1]

القناعة المستتبة في الوسط الحكومي في واشنطن، ومن خلاله في كافة الأوساط الأمريكية، هي أن الولايات المتحدة تعيش اليوم حالة حرب. وفي حين أن ثمة إقراراً بأن هذه الحرب تختلف صنفاً عن الحروب الاعتيادية «الساخنة»، وكذلك عن الحرب «الباردة» مع الاتحاد السوفياتي، فإن إدراك خطورتها واحتمال تأثيرها الفادح على الاقتصاد ونمط الحياة في أمريكا أصبح من المسلّمات. وإذا كانت الحكومة قد سمّت هذه المواجهة «الحرب على الإرهاب»، فلا اختلاف في عامة الأوساط بأن هذه التسمية جاءت بهدف تجنب الإحراج الذي كانت لتواجهه الثقافة الأمريكية لو أن تحديد العدو في هذه الحرب كان صريحاً بالإشارة إلى إسلاميته.

طبعاً، كان بإمكان الثقافة الأمريكية تجنب الإحراج لو أنها اعتمدت تصنيفاً، وبالتالي مصطلحات، تجنبها التنميط والتعميم. إذ يمكن بالطبع

---

(1) حسن منيمنة، الحياة، 4/ 9/ 2005.

التمييز بين الانتماء الديني والحضاري الإسلامي، وهو الانتماء الجامع لعموم المسلمين في كل الأقطار وعلى مدى القرون، وبين الالتزام العقائدي الإسلامي المسيّس، وهو التزام مقترن بالحداثة شكلاً ومضموناً، وذلك رغم إصرار دعاته على تأصيله وإنكار أصالة ما دونه. فالتمييز المبدئي المطلوب هو بين «الإسلام» كدين ودنيا، وبين «الإسلامية» كرؤية سياسية. والإسلامية، أساساً، هي التقرير بأن الإسلام رسالة ذات مضمون سياسي لا يمكن للمجتمعات المسلمة تجاهله. وهذا التقرير كان ولا يزال على قدر متفاوت من القبول، لاعتبارات نظرية حيناً وتطبيقية أحياناً، وحتى إذا جرى التسليم بمعياريته المبدئية، وهو ما يدعو إليه الإسلاميون من منطلق عقائدي، فلا بد من الإقرار بأن هذه المعيارية لم تكن ملزمة للتاريخ الإسلامي في معظمه. فالإسلامية جزء من واقع الإسلام الفكري والسياسي، لكنها في اعتمادها على تصور سياسي عقائدي مؤطّر لا يسعها أن تختزل الناتج الحضاري الإسلامي الواسع المتنوع، لا بيومه ولا بطبيعة الحال بأمسه الطويل، وذلك رغم القراءات التي تعود بالإسلامية إلى الأصول التاريخية للدولة والمجتمع والفكر في الإسلام، والتي تطالب ضمناً أو صراحة بتشذيب التاريخ والواقع الإسلاميين ليندرجا ضمن التصور المؤطّر للإسلامية. وبغض النظر عن القبول العام في المجتمعات المسلمة لهذا التأطير الذي تعتمده الإسلامية للدين والحياة، فإن الإسلامية كحركة فكرية شعبوية أدّت دوراً تصحيحياً على مستوى الثقافة والمجتمع في غير مكان، بعد أن كانت العقائديات القومية واليسارية والحداثية بمنحاها النخبوي

استأثرت بالخطاب السياسي والفكري. فعدم إنتاج المجتمعات المسلمة إلى اليوم معارضة فاعلة للإسلامية ليس دليلاً على علاقة تطابقية بينها وبين المجتمعات المسلمة، بقدر ما هو انعكاس لقبول هذه المجتمعات بقدر من التصحيح في الصورة الثقافية والأخلاقية والتي تنادي به الإسلامية.

ورغم وجود تقليد راسخ في الولايات المتحدة في حقل الدراسات الإسلامية، فالتمييز الديني الحضاري السياسي بين الإسلام والإسلامية لم يتحقق في الثقافة الأمريكية. والواقع أن هذا التمييز يكاد أن يكون غائباً في الكثير من الخطاب السياسي العربي نفسه. فما رشح إلى المتداول الثقافي الأمريكي، بدلاً من ذلك، هو مقولة تمييز بين «إسلام معتدل» و«إسلام متطرف»، بما يسمح للمستهلك الثقافي الأمريكي الاطمئنان إلى أن العداوة ليست بين «الإسلام» و«الغرب» بل هي بين الاعتدال والتطرف. لكن المعضلة أن البحث عن «الإسلام المعتدل» وفق المواصفات التي يرتضيها هذا المستهلك، قلّما يجد ضالته. وليس السبب اندثار «الاعتدال» أو انعدام وجوده، بل هو أن هذا المفهوم نفسه وليد تطبيق قالب غربي على الفكر والمجتمع في العالم الإسلامي، وليس نتيجة لقراءة متأنية لواقع الحال فيه. على أن غياب الاعتدال بالمفهوم المتوقّع أفسح المجال أمام التصويرات التعسفية للإسلام، والتي تنكر عليه أي اعتدال وتجعله مرادفاً للاعتداء والإرهاب والتطرف. وهذه التصويرات استقرت كبديل فعلي باطن لمقولة الاعتدال والتطرف. فالثقافة الأمريكية تعتمد، بالتالي، فوقية مزدوجة في تقييمها للفرد

المسلم والمجتمعات المسلمة. فالمسلم «المعتدل» هو وحسب المسلم غير المدرك لحقيقة دينه، أي أن الفرد المسلم مادة خام مفعول بها وليس صاحب القرار والاعتبار لتراثه. كذلك المجتمعات المسلمة، فدفعها نحو التطرف عائد إلى أموال جمعيات تتستر بالعمل الخيري، وفق هذا التقييم، وتنشىء المدارس والمساجد التي تبث العداء والبغض، أي أن المجتمعات المسلمة أيضاً مادة خام مفعول بها وليست عاملة بما يتفق مع مصالحها.

وانطلاقاً من افتراض الجهل على مستوى الفرد والطواعية العمياء على مستوى الجماعة، يصبح بإمكان الثقافة الأمريكية أن تشخص الداء والدواء. فالداء عندها هو «الوهابية» ومتفرّعاتها التي تنتشر بفعل المال، والدواء، وفق ما صرّح به في مجلس خاص مسؤول سابق ذو وزن وتأثير في الحياة السياسية الأمريكية، هو «دفع السعودية إلى الإفلاس». والإشارة المتكررة إلى «الوهابية» ليست دليل استيعاب لتنوع ضمن الحركة الإسلامية، بقدر ما هي نجاح في إيجاد المصطلح المرادف للإسلام المتطرف، أو للإسلام عموماً، والذي لا يخضع مستعمله بشكل مسيء لنفور ثقافي أو اجتماعي. وإذا كان ثمة إبهام بين الإسلام والإسلامية، فلا يمكن توقع إدراك أمريكي للتنوع في الإسلامية نفسها.

أما مقدار وعي هذا التنوع أمريكياً، فيكاد أن يقتصر على الافتراق المذهبي بين السنّة والشيعة. بل هذا الافتراق تدركه الثقافة الأمريكية وتبالغ في إيلائه الأهمية. وإذا كان هذا الافتراق قد أدّى إلى تشكل جمهورين للإسلامية، في وسطي السنّة والشيعة على التوالي، فإن أوجه

التعدّد والاختلاف لا تقتصر طبعاً عليه. فعدم التطابق بين السلفية، وهي المقصودة أحياناً بالإشارات إلى الوهابية، وبين سائر التوجهات الإسلامية غائب عن المتداول الثقافي الأمريكي، وكذلك الاختلاف ضمن السلفية، كحركة فكرية تنظيرية تأطيرية للإسلامية، بين التوجهات «الولائية» و«البرائية» أيضاً غائب. والتلاقي والتفارق بين مختلف التيارات والتوجهات في أوساط السنّة والشيعة، السلفية وغير السلفية، على أساس المنهج والدعوة والموقف من الإمامة والجهاد والتكفير كذلك غائب. فالطروحات الإسلامية تراوح في حساباتها لسبل التوفيق بين النصوص والوقائع بين تغليب صارم للنص، لا سيما في أوساط السلفية، وبين التركيز على استنباط للعلل والأصول، في معظم أوساط غيرها، بما يتيح مجالاً لحركة أوسع في التطبيق.

وهذه الاعتبارات التفصيلية، خصوصاً العبء الفكري المتعلق بها، تبقى على الغالب خارج ميزان صياغة الرأي والقرار، فيما تغييب الجانب التفصيلي يؤدي إلى إساءة تقييم طبيعة الحرب المعلنة، بغض النظر عن الخطابيات المتداولة، هل هي حرب على الإسلام، أم الإسلامية، أم السلفية، أم الحركات الجهادية، أم التوجهات التكفيرية؟ فخطوط التماس في هذه الحرب أمريكياً ناقلة لغياب التبيّن التفريقي لطبيعة «الآخر» الموضوع بمثابة الخصم. لكن تغييب الجانب التفصيلي يؤدي أيضاً إلى اعتبار حلول عبثية نابعة من عدم إدراك طبيعة الخلفية المعنية. فبما أن ثمة تطرفين، سنياً وشيعياً، وبما أن العداء بينهما «تاريخي» (بشكل تقريري تعسفي)، وبما أن أحدهما، وتحديداً السنّي

يبدو عاقداً العزم على إنزال الفظائع بجمهور الآخر، في باكستان حيناً والعراق أحياناً، يبدو إذاً أن احتواء مزدوجاً مشابهاً لذلك الذي أبقى العراق وإيران منشغلين ببعضهما البعض طوال الثمانينيات، في طريقه إلى الاستتباب. فأصحاب هذا التقييم قد لا يكونون بموقع دفع هذا الشرخ إلى المزيد من التعمق (وأي مزيد هناك حين تطفح صفحات الإنترنت وبيانات «المجاهدين» وأعمالهم بتكفير مسهب وإهدار دماء مستفيض للرافضة والمجوس على حد تعبيرهم النابي). لكن بعضهم قد يكون في موقع التأثير على الحكومة الأمريكية باتجاه عدم اعتراض هذا التعمق دون اعتبار للثمن الفاحش بالأرواح.

إذا كان واجب الحكومة تلك منازلة من أعلن عليها الحرب، فواجب الثقافة الأمريكية توضيح طبيعة هذا العدو وموقَعته في سياقه الفعلي. فإذا كانت غير قادرة على هذا الأمر، فواجب الثقافة العربية، وهي المعنية الأولى بنتائج الحرب، تولي هذه المسؤولية.

أجهزة الإعلام الغربية وموضوع الإرهاب[1]

يقول نبيل دجاني:

هذا نص رسالة بالبريد الإلكتروني استلمتها أخيراً:

ـ هاجم كلب شرس طفلاً في حديقة في مدينة نيويورك.

ـ رأى أحد المارة ما حدث فهرع للمساعدة وانقضّ على الكلب الشرس وقتله.

ـ صحافي في إحدى الصحف المحلية بمدينة نيويورك شاهد ما حصل وأخذ بعض الصور للحادثة ليضعها في الصفحة الأولى من الجريدة التي يعمل بها.

ـ اقترب الصحافي من الرجل وقال له: شجاعتك البطولية سوف تنشر في عدد يوم غد تحت عنوان: «شجاع من نيويورك ينقذ ولداً». أجابه الرجل الشجاع إنه ليس من نيويورك. فقال الصحافي: في هذه

---

(1) نبيل دجاني، العرب والإعلام الفضائي (مع آخرين) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004، ص77 ـ 83.

الحالة سوف نضع العنوان: «شجاع أمريكي أنقذ ولداً من كلب شرس».
أجاب الرجل الشجاع: «أنا لست أمريكياً أيضاً، أنا من باكستان».

ـ في اليوم التالي صدرت الصحيفة وكان عنوان الخبر في الصفحة الأولى: «مسلم متطرف ينقض على كلب في حديقة نيويورك ويودي بحياته. مكتب التحقيق الاتحادي FBI بدأ التحقيق بإمكانية وجود علاقة بين هذا الرجل ومنظمة «القاعدة» التي يرأسها أسامة بن لادن».

الكاتب والناقد اليهودي جيف كوهين يعرّف الإرهابي بأنه «ذلك الذي يستهدف الطائرات والسفن المدنية، إلا إذا نسف طائرة مدنية كوبية، مما أدّى إلى مقتل 73 مدنياً، ومن ثم أطلق النار على سفينة شحن بولونية، كما فعل أورلندو بوش. في هذه الحالة فإن وزارة العدل الأمريكية تعامله برفق وتطلق سراحه وتسدّ سبل تسليمه. . . إنه ذلك الذي يسهل قتل المدنيين، إلا إذا كانت الضحايا 900 فلسطيني تمّ قتلهم وتقطيعهم إرباً أمام مشهد من جنود وزير الدفاع الإسرائيلي أريئيل شارون، كما حدث في مخيمي صبرا وشاتيلا. إن شارون الذي حمّلته لجنة تحقيق إسرائيلية مسؤولية غير مباشرة عن هذه المجزرة أصبح رئيس وزراء إسرائيل وحليف أمريكا في حربها على الإرهاب ولقّب رجل سلام».

نادراً ما يمكن التمييز الواضح بين مصطلحي «الحرب» و«الإرهاب»، فالإرهاب، من أرهب أو أخاف، والحرب، من حارب أو قاتل، يستعملان العنف ضد العدو. وقد يدّعي البعض أن للحرب قواعد متعارفاً عليها من حيث إنها تتجنب إيذاء المدنيين، إلا أن حروب

القرن العشرين قد خالفت كل هذه القواعد من حيث اتباعها مبدأ «الحرب الشاملة» Total War، فرأينا الدول الغربية في الحرب العالمية الثانية تقصف أهدافاً مدنية لإضعاف معنويات العدو وتعجيل استسلامه من خلال عمليات أسمتها «القصف الاستراتيجي»، كما حدث في ألمانيا بتدمير مدن تدميراً شبه كامل مثل درزدن وبرلين، وفي اليابان بإلقاء قنابل ذرية أمريكية على هيروشيما وناكازاكي. ويدّعي ميخائيل والزر، واضع نظرية «الحرب العادلة» أن اتّباع مبدأ الحرب الشاملة هذه أنتج «عهد الإرهاب».

مصطلح «الإرهاب» لا يمكن أن يكون حيادياً. هنالك توافق على أنه عمل مخزٍ وغير شرعي لأنه يتعرّض للمدنيين الأبرياء. غير أنه لا يوجد توافق على تعريف ما هو فعل «الإرهاب»، وبالتالي على إعطاء هذا الفعل تقييماً اجتماعياً أو أخلاقياً، ومن المستبعد حصول مثل هذا التوافق، إذ إنه من الصعب تحديد من هو «المدني البريء». هل يمكن أن تقنع عربياً بأن الصهيوني المدني الذي أتى من أقاصي الدنيا واحتل منزل فلسطيني هو مدني بريء؟ وهل بإمكانك إقناع الفرنسي أو الأمريكي بأن المقاومة الفرنسية والأمريكية للمحتل الألماني أو البريطاني هي عمل إرهابي؟ الإرهابي عند شخص ما هو «فدائي» أو «مقاتل من أجل الحرية» عند آخر. تعبير «الإرهابي» يعني ضمناً اللاشرعية، بينما تعبير «المقاتل من أجل الحرية» أو «المقاوم» يتضمن معنى الاستحسان والشرعية.

يقول الناقد الأمريكي مايكل بارينتي في كتابه «اختراع أو فبركة

الحقيقة» (وأنا أنقل حرفياً الترجمة للنص من كتابه)، «إن تحديد من هو إرهابي ومن ليس إرهابياً أمر تقرره سياسة وسيلة الإعلام التي تصفه. فحرب العصابات الشعبية تصفها وسائل الإعلام الغربية عادة بالإرهابية، بينما يوصف المرتزقة في أنغولا ونيكاراغوا وموزمبيق ممن توظفهم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA بالثوار. وهذه الوسائل تنعت عمل الدول اليسارية التي تدافع عن نفسها في وجه هؤلاء «الثوار» «بإرهاب الدولة»، ولا تستعمل هذا النعت لما تقوم به الولايات المتحدة من كبت للحركات التحررية الشعبية في العديد من الدول».

في العام 1999 كتب صموئيل هانتنغتون، واضع نظرية «صراع الحضارات»، في دورية «فورين أفيرز»: «تشجب الولايات المتحدة على نحو منتظم بلدان مختلفة على أنها «دول مارقة»، غير أنها في أعين دول كثيرة «قوى عظمى مارقة»... إنها الخطر الخارجي الأكبر والوحيد لمجتمعات هذه الدول».

قبل أن يكون هنالك إرهاب، كان هنالك فقدان للعدالة واحتلال ومصادرة حقوق أبرياء. الإرهاب هو نوع خاص من أنواع الحرب. ومن هنا لا بد للوسيلة الإعلامية من وضع معترضتين حول تعبير «الإرهاب»، على الأقل في تفكير محرريها إن لم يكن على الورق. ومن الخطر أن تقبل الوسيلة الإعلامية فرض دولة ما حالة طوارىء لمواجهة ما تسميه إرهاباً كما فعلت الولايات المتحدة في إعلان «الحرب على الإرهاب». إن هذا القبول يستحث، كما يقيّد ويجبر، هذه الوسيلة على تبنّي تقييم جماعة أو دولة لأفعال عنف على أنها

أعمال إرهاب، بينما قد تقيّمها جماعة أو دولة أخرى على أنها أعمال تحرير أو مقاومة احتلال.

وكما أن الحرب والإرهاب متشابهان، فكذلك العنف والدعاية متشابهان، العنف يهدف إلى تغيير السلوك عن طريق الإكراه، والدعاية تهدف إلى تغييره عن طريق الإقناع. والإرهاب يجمع بين الاثنين، فهو يسعى إلى إحداث حالة خوف لدى الجماهير لكي تضغط على الدولة للقبول بطلباتها. الهدف من العمل الإرهابي إذاً ليس العنف بحد ذاته، بل نشر حالة ذعر لدى الجماهير المستهدفة، وكلما كانت تغطية وسائل الإعلام لحدث العنف أوسع كان نجاح العمل العنيف أكبر.

قيل للجمهور إن الإرهاب «شر»، وإن مرتكبيه هم أشرار، وهذا صحيح، غير أن التعريف الأمريكي للإرهاب ينتهي هنا ويبقى معلقاً وخالياً من أي بعد تاريخي ومن غير تعريف لفعل الإرهاب. التعبئة الأمريكية في وسائل الإعلام أدّت إلى طغيان رؤية الحرب على الإرهاب كما يراه المحافظون الجدد الذين يسيطرون على الإدارة الأمريكية. وكذلك طغى الطابع أو الصورة الدينية (الإسلامية)، والعربية بالتحديد، على وصف الإدارة الأمريكية وأبواقها من وسائل إعلامية وكتاب رأي للحرب على الإرهاب.

وانعكس هذا الوصف كذلك على الصور النمطية والتعليقات التي تقدمها وسائل الإعلام الأمريكية، مما أدى إلى ربط الإرهاب بالمسلمين والعرب وتعزيز روح وطنية شعبوية باتت تميل إلى العنصرية لا إلى التمسك بقيم ديمقراطية.

هذا بعض ما ورد في الوسائل الأمريكية:

في كتيّب بعنوان «لماذا يهدد الإسلام أمريكا والغرب»؟، يقول اثنان من قادة المحافظين في أمريكا، هما بول ويريش ووليام لند: «بكل بساطة، الإسلام دين حرب... يجب أن نشجع المسلمين الأمريكيين على المغادرة. إنهم طابور خامس في هذا البلد». والمعلقة الصحفية المعروفة آن كولتير قالت في إحدى مقالاتها: «يجب أن نغزو بلادهم، نقتل قادتهم ونحوّلهم إلى المسيحية». أما القس فرانكلن غراهام، ابن القس بيللي غراهام، أحد أشهر الإنجيليين في أمريكا، فإنه يصف الإسلام في إحدى عظاته بأنه «دين كثير الشر والخبث». والمبشّر الأصولي جيري فالويل قال في برنامج «60 دقيقة» الذي تبثه محطة «سي. بي. إس» إن النبي محمداً إرهابي. والقس المتطرف بات روبرتسون الذي يملك أكبر شبكة فضائية دينية وصف الإسلام في إحدى مقابلاته التلفزيونية بأنه «خدعة كبيرة»، وأن النبي محمداً «كان مجرد متطرف. لقد كان سارقاً وقاطع طرق»، وتقول آن: «هؤلاء لا يحرّفون الإسلام! إنهم يطبقون ما في الإسلام».

الخطر في الأمر أن الإدارة الرسمية الأمريكية أصبحت تعرّف المنطقة العربية والإسلامية بأنها الموقع الرئيسي للعدو في حربها على الإرهاب. الإدارة الأمريكية وأبواقها تبنّت تعريف إسرائيل للصراع في فلسطين بأنه «إرهاب» وليس مقاومة مشروعة للمحتل، بل إنهم اعتبروا ما يقوم به المحتل الإسرائيلي جزءاً من حرب أمريكا العالمية على الإرهاب. ووصفوا التدمير الإسرائيلي للمدن والمخيمات الفلسطينية بأنه شكل من أشكال الدفاع عن النفس.

ما يدعو إلى الأسف هو أن ما يعتبر عنيفاً من الأفعال يعكس عادة الإجماع المجتمعي. والصور التي ترسمها وسائل الإعلام لـ «العنف» و«الإسلامي» و«العربي» تتأثر بالمعاني الثقافية السائدة لتعابير «العرب» و«الإسلام» و«العنف». أحد معلقي «نيويورك تايمز»، نيكولا كريستوف، أبدى تخوّفه من مثل هذه التصريحات ويقول «بكل بساطة إن إطلاق الصوت العالي بأن الإسلام في جوهره دين عنيف لن يساعد على تفهم هذا الدين، بل إنه يطلق عقال التفكير العنصري والريبة بالأجانب وتاريخ أمريكا القريب يشهد فصولاً محزنة نتجت من مثل هذا التفكير».

من يتفحص تغطية الأحداث في وسائل الإعلام الغربية في الوقت الحاضر يدرك مدى تقصير هذه الوسائل في القيام بوظيفتها في تقديم المعلومات بصورة صحيحة وغير متحيّزة. ويمكن المرء أن يرى بسهولة كيف أنه في كثير من الأحيان يتناقض عرض وقائع الحدث نفسه في صحافة الدول الغربية مع عرضه في صحافة دول العالم الثالث. وتتفاقم المشكلة بالتعصب ليس من قبل وسائل إعلام الدول المحرومة والفقيرة، بل أيضاً من قبل وسائل إعلام الدول الغنية والقوية، خاصة بعد أحداث 11 أيلول / سبتمبر 2001 عندما أعلن الرئيس جورج بوش في جملة ما أعلن أن الاعتداءات على نيويورك وواشنطن تهدد «نمط حياتنا».

افترضت أجهزة الإعلام الأمريكية التي تضم بالإضافة إلى وسائل الإعلام الخاصة مسؤولين وهيئات متخصصة في الإدارة الأمريكية، أن الثقافة الأمريكية هي ثقافات عالمية وأن الجميع يطمح إلى أن يصبح مثل الأمريكيين. فبدأت الحملات تشن على الصحفيين الذين يعتمدون تغطية

موضوعية ومتوازنة لما أسموه «الحرب على الإرهاب». فجأة انقلبت المفاهيم، فأصبح الصحفي الذي يرفض التحيز في تقاريره ويتمسك بالموضوعية خائناً لا يحب وطنه، في رأي المسؤولين وقادة الرأي في أمريكا. وبدأت المطالبة بتقييم الأحداث في التقارير الصحفية من خلال ما أسموه «المصلحة الوطنية». وهذا الموقف ليس غريباً، ففي العام 1970 أعلمت الحكومة البريطانية مؤسسة «بي. بي. سي» B.B.C. أنها لا تستطيع أن تأخذ موقفاً حيادياً في صراعها مع الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA وأن الآراء التي تذيعها يجب ألا تتعارض مع قيم وأهداف المجتمع الذي تخدم.

النقد الأول والأساسي لطغيان الخطاب الأمريكي أنه يضع أمريكا في تناقض أخلاقي اقتصادي وسياسي مع العالم، خاصة مع العالم الثالث. والنقد الثاني هو استسلام وسائل الإعلام لتحكم المسؤولين والقبول بتقييمهم للأحداث، خاصة تلك التي تتعرض للحرب أو الإرهاب.

إن مهنة الإعلام تتطلب أن يواجه سعي المسؤولين للتحكم بالأخبار بسعي من الصحفيين والمؤسسات الإعلامية للتحرر من هذه السيطرة في إطار جهود الصحفي الهادفة إلى تقديم أخبار ذات مغزى تؤمن حسن سير المجتمع الديمقراطي. غير أن وسائل الإعلام الغربية، وخاصة الأمريكية منها، قد استسلمت إلى ما تقدمه لها الإدارة الأمريكية من تفسيرات للأحداث، ربما بداعي حماسة قومية أو انجرار وراء تيار رأي عام عاطفي.

تقول الصحفية اللبنانية التي غطت أحداث الحرب على أفغانستان،

ديانا مقلد، إن إحدى الصحافيات الإيطاليات أسرّت إليها أن إدارة التحرير في مؤسستها في روما طلبت منها الإقلال من التقارير التي تتحدث عن اللاجئين الأفغان ومعاناتهم والتركيز على حركة «طالبان» و«القاعدة». التبرير الذي قدمته إدارة المؤسسة الإيطالية هو أن إيطاليا تدعم الأمريكيين في تلك المرحلة، ومن هنا يجب عدم تأليب الرأي العام ضد واشنطن.

وتصف هذه الصحفية اللبنانية كيف أن مقتل المئات من أسرى «طالبان» و«القاعدة» في ما سمي انتفاضة غانجي، لم يثر الكثير من الاهتمام لدى وسائل الإعلام الأمريكية. وتذكر صور الجثث الملقاة في ساحات المعركة، وكيف جالت على هؤلاء الأسرى كاميرات الصحفيين في شكل استفزازي، فيما صحفية أمريكية تنتقل أمام الكاميرا على هؤلاء الأسرى من «طالبان» و«القاعدة» وتمارس عليهم دور المحقق العسكري، سائلة أحدهم وهو يحاول تغطية وجهه: لماذا تغطي وجهك؟ هل أنت خجل مما فعلت؟ هل أنت عربي؟

لقد جسدت تلك الصحفية الأسلوب الذي طغى على كيفية تعامل الإعلام الأمريكي، تحديداً مع الحرب. وتضيف أنها حين حاولت زيارة مكاتب شبكة «فوكس نيوز» في نيويورك للسؤال عن كيفية تبرير الشبكة لأسلوب تعامل صحفييها ومقدميها مع الأحداث عقب أحداث أيلول / سبتمبر، أجابها المسؤول الإعلامي أنه لا يرى جدوى في أن يضيع وقت منتجيه وصحافييه في الحديث معها.

لقد كشفت أحداث 11 أيلول / سبتمبر عن مدى هيمنة القوى

الحكومية الأمريكية الفاعلة على وسائل الإعلام وتمكنها من فرض نظام جديد لعمل هذه الوسائل، بعيداً عن العدالة والدقة. وهنا بعض الأمثلة: ذكرت «واشنطن بوست» أن رئيس «سي. إن. إن» C.N.N.، والتر أزاكسون، طلب من مراسلي مؤسسته أن يذكّروا جمهورهم بالأمريكيين الذين قتلوا في أحداث 11 أيلول / سبتمبر كلما تكلموا عن الإصابات المدنية في أفغانستان، وقال لهم ما نصه: «إنه من الحماقة أن نركز كثيراً على إصابات الأفغانيين وظروفهم الصعبة».

وكيف يمكننا أن نفسر طلب وزير الخارجية الأمريكي، كولن باول، من أمير قطر، في تشرين الأول / أكتوبر 2001، أن يمارس ضغوطاً على هيئة أخبار «فضائية الجزيرة»، فيبعد عنها من أسماهم بالعناصر المعادية لأمريكا؟ لقد فسّر إريك ديغنز من صحيفة «سانت بيترسبرغ تايمز» هذا الطلب على أنه «عمل يدعو إلى السخرية، لأنه يأتي من مسؤول في بلد لديه صحافة حرة».

نادراً ما يحصل الجمهور الغربي، وخاصة الجمهور الأمريكي، من مسؤوليه أو من وسائل إعلامه على تفسيرات متعمقة وخارج الصور النمطية السطحية للأحداث العنيفة. إن أحداث 11 أيلول / سبتمبر وما نتج منها مما يسمى الحرب على الإرهاب، قد استحدثت مصطلحاً أمريكياً جديداً يصف ما تقدمه وسائل الإعلام حالياً، وهذا المصطلح هو «Militainment» الذي يشكل مزيجاً من كلمتي «Military» (العسكري) و«Entertainment» (التسلية) للإشارة إلى واقع ما يجري تقديمه إلى الجمهور الغربي، خصوصاً إلى جمهور شاشات التلفزيون.

دور الإعلام
في التفريق بين الكفاح الوطني والإرهاب

في دراسة مطولة لفيصل المقداد[1]، يقول إنه بعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر عام 2001، صبت أمريكا جام غضبها وقوتها على العرب والمسلمين دولاً وحركات وأفراداً، وذلك على خلفية اتهامها أفراداً عرباً ومسلمين بالوقوف وراء ذلك الهجوم. وبحسب الولايات المتحدة وحلفائها الأساسيين فإن الإرهاب «إسلامي» من ألفه إلى يائه، ومن هنا جاءت ذريعتها لاحتلال كل من أفغانستان والعراق وتدمير هذين البلدين. وأصبح العربي والمسلم في وعي الإنسان الغربي من خلال دعاية إعلامية منهجية ومخططة هو ذاك «الإرهابي» الذي لا حرفة له سوى القتل والتدمير، وتولدت أزمة ثقة وشكوك بسبعة ملايين مسلم من مختلف الأعراق يعيشون في الولايات المتحدة ويحملون جنسيتها.

وقد فند السيد الرئيس هذه المسألة بوضوح في مقابلته مع التلفزيون الروسي في 12/ 11/ 2005 عندما قال:

---

(1) فيصل المقداد، شؤون الأوسط، خريف 2007.

(طبعاً لا يوجد إرهاب إسلامي، لأن الإرهاب ينفصل عن الإسلام، إنه إرهاب فقط، ولكن درجت التسمية على وصفه بالإرهاب الإسلامي. هذا النوع من الإرهاب خطير كان يستهدفنا في السبعينيات والثمانينيات، وفي ذلك الوقت قمنا بحملة على مستوى بعض الدول الأوروبية الغربية لكي نقنع تلك الدول بأن احتضان بعض قيادات التطرف والإرهاب في أوروبا سيرتد عليهم في وقت من الأوقات وقد عانينا منه، وبدأوا يضربون في عدد من الدول العربية في نهاية الثمانينيات وفي التسعينيات، ورأينا النتائج الخطيرة والكبيرة في نيويورك وفي لندن وفي مدريد).

ومن هذا يتبين أن الإرهاب ليس له دين معين أو جنس أو جنسية أو منطقة جغرافية محددة، وأية محاولة لربطه بدين معين هو أمر مرفوض.

فعندما يتعلق الأمر بتبرير سياسته لا يشعر الغرب بأي حرجٍ. ففي الوقت الذي كان الإسلاميون يقاتلون في الثمانينيات في أفغانستان ـ بوسائل فظيعة جداً ـ ضد ما سمي «الاحتلال السوفياتي» كانوا ينالون أعلى درجات الثناء والإعجاب من الغرب ومن معظم وسائل الإعلام هناك، وكان أولئك المقاتلون ذوي اللحى الطويلة يحصلون من الأجهزة الأمنية الغربية على كل ما يحتاجون من دعمٍ عسكري ومادي، بما في ذلك الصواريخ.

آنذاك، لم يكن هذا القتال يوصف بأنه (إرهاب) إلا من دول المعسكر الشيوعي وبعض الشيوعيين في الغرب.

أما بالنسبة للديموقراطيات الغربية فقد كان القتال ضد قوات (الاحتلال السوفياتية) نضالاً في سبيل الحرية. ولكن من الناحية الأخرى عندما يدافع مقاتلو حزب الله في جنوب لبنان عن أرضهم ضد الاحتلال الإسرائيلي (يوصفون بأنهم إرهابيون)، وعندما تقاوم مجموعة فلسطينية الاحتلال الإسرائيلي لا يسأل أحد عن الأسباب.

إن العالم الغربي مع القيم التي يتغنّى بها سيحظى باحترام الشعوب العربية والإسلامية لو جعل هذه القيم تنطبق على الجميع على قدم المساواة، على البيض والسود، وعلى المسلمين والمسيحيين واليهود. وليس مقنعاً على الإطلاق التوجه الغربي وخاصة الولايات المتحدة إدانة ما يقوم به الفلسطينيون دفاعاً عن حقهم واستقلالهم، وفي الوقت نفسه السكوت عن إرهاب الدولة الإسرائيلية أو التقليل من أهميته.

ومن هنا ننتقل إلى الموضوع الأبرز والأهم وهو الفرق بين الإرهاب والحق في الكفاح الوطني ومقاومة الاحتلال.

إن النصوص والأعراف الدولية والإنسانية وأحكام الشريعة الإسلامية كلها تؤكد التباين بين المقاومة والجهاد من جهة، والإرهاب من جهة ثانية، وذلك في مختلف الجوانب القانونية والسياسية والاجتماعية، وبالوسائل التي تستخدم في الحالتين والأهداف المرجوة.

ومع الإقرار العالمي بحق تقرير المصير في مداولات الأمم المتحدة وفي الاتفاقيات الدولية المعنية بحقوق الإنسان، وعلى رأسها «العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية» و«العهد الدولي الخاص

بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية» لعام 1966، وبتحوله من مجرد مبدأ سياسي إلى حق قانوني، فقد أصبح من المحتم القول بأنه يقع على عاتق كل دولة واجب الامتناع عن الإتيان بأي عمل قسري يحرم الشعوب غير المستقلة من حقها في تقرير مصيرها، سواء أكانت خاضعة للاحتلال أم للاستعمار.

وقد ميّزت الأمم المتحدة بين الإرهاب بوصفه جريمة دولية، والكفاح المسلح بوصفه نشاطاً من أنشطة حركات التحرر الوطني المشروعة، وهو بلا شك اختلاف جوهري في الطبيعة والمقاصد.

وفي هذا السياق اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة مراراً بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف مثل قرارها الرقم (3236) لعام 1974 وقرارها الرقم (39/ 17) لعام 1984 وقرارها الرقم 49/ 149 لعام 1995 وبحقه في استرجاع حقوقه بالوسائل المتاحة كافة بما في ذلك الكفاح المسلح.

كما أن القانون الدولي ومنذ قيام الأمم المتحدة قد حظر اللجوء إلى القوة المسلحة أو التهديد بها في إطار العلاقات الدولية، غير أنه أجاز اللجوء إلى القوة بأشكالها المختلفة في حالات الدفاع الشرعي ضد الاحتلال، بوصفها وسيلة لممارسة حق تقرير المصير، والوصول إلى الاستقلال الوطني، وهذا ما أكدت عليه المادة (51) من ميثاق الأمم المتحدة. وقد أقرّت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقديم دول العالم المساعدات للشعوب التي تناضل في سبيل تقرير المصير، وأن تساعد جهود الأمم المتحدة في هذا المضمار، حيث يمكن لهذه الشعوب أن

تتمتع بدعم خارجي في الكفاح المسلح الذي تخوضه ضد دولة استعمارية أو عنصرية أو ضد الاحتلال الأجنبي دون أن تحتج هذه الأخيرة بأن هذا الدعم يعد من قبيل التدخل في شؤونها الداخلية وذلك وفق قرار الجمعية العامة الرقم (3070) لعام 1973.

وإزاء هذه الجهود المبذولة من الأمم المتحدة لحصر مفهوم الإرهاب وعدم خلطه بحق المقاومة ومشروعيتها، كانت الولايات المتحدة غير متعاونة لإنجاح هذه الجهود، وذلك بسعيها إلى تغييب المعايير وإحلال الانتقائية محلها، لكي تنفرد بعد ذلك في تصنيف أعمال العنف وفق ما تشاء، وتصاعد اتجاه توسيع مفهوم الإرهاب لديها ليشمل أعمال المقاومة والجهاد والكفاح المسلّح المشروعة، ولا سيما بعد توقيع اتفاقية أوسلو لعام 1993، وإثر انعقاد مؤتمر شرم الشيخ عام 1996 وضغط أمريكا بهدف إدانة أعمال المقاومة المسلحة الفلسطينية تحت اسم «الإرهاب».

وتناقش الجمعية العامة منذ حوالي خمس سنوات مشروع اتفاقية دولية شاملة حول الإرهاب الدولي وذلك في إطار البند المعنون «التدابير الرامية للقضاء على الإرهاب الدولي» في اللجنة السادسة (اللجنة القانونية)، وقد بدا واضحاً منذ بدء النقاش وجود خلافات شديدة حول عدة نقاط أبرزها وضع تعريف قانوني للإرهاب والتمييز بينه وبين حق الشعوب في مقاومة الاحتلال وفي تقريرها مصيرها وإرهاب الدولة. وقد قدمت سورية منفردة أو بالتعاون مع وفود أخرى وفي إطار منظمة المؤتمر الإسلامي أيضاً عدة مقترحات وأوراق عمل تتصل بهذه المواضيع ومواضيع فنية أخرى.

ورغم أن اللجنة المختصة قد اتفقت على معظم المواد الواردة في مشروع الاتفاقية الشاملة، إلا أن النقطة الخلافية الأبرز التي بقيت هي تلك المتعلقة بالمادة 18 التي تتناول موضوع التمييز بين الإرهاب وحق الشعوب في تقرير مصيرها ومقاومة الاحتلال، وذلك لأن الولايات المتحدة التي تدعي أنها تقود العمل الدولي في مقاومة الإرهاب، تعارض بشدة الصياغة المطروحة.

وجاءت أحداث الهجوم على نيويورك في 11 أيلول / سبتمبر عام 2001 لتحدث هزة في النظرية الأمنية الأمريكية السائدة، الأمر الذي شجع الإدارة الأمريكية على تغيير سلوكها بشكل سريع وكبير بلجوئها إلى لغة العنف والتهديد والعدوان والاحتلال والحصار العسكري والاقتصادي للآخرين، وإعلان تقسيم العالم إلى معسكرين: «إما مع أميركا وإما مع الإرهاب».

وقد استغل اللوبي الصهيوني بنفوذه العالمي والسياسي والاقتصادي والإعلامي هذه الحادثة لتشجيع التطرف اليميني في الإدارة الأمريكية، وتحريض العالم الغربي على كل ما هو عربي وإسلامي. وسرعان ما رأينا كيف أن الغرب عموماً تنكر لكل تراثه الفكري الذي أسسه لحق مقاومة الطغيان، وشعارات الحرية والعدالة والمساواة التي نادى بها روسو وفولتير وغيرهم من الفلاسفة في أوروبا قبل قرون عدة، وكذلك لمبادىء (ويلسون) التي وضعها عام 1918 بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والتي يمكن تلخيصها بحق الشعوب في تقرير مصيرها وضرورة استتباب الحرية والسلام في العالم، والتي أثارت فرحة عارمة في أوساط

الشعوب العربية حينئذٍ لأن بلدانها كانت محتلة. ووفقاً لما قرره القانون الدولي وفقهاؤه، ووفقاً للحق الطبيعي في الدفاع عن النفس والمال والأملاك والأعراض والحريات، فإن من حق الشعوب التي تتعرض للاحتلال والاستعمار والعدوان والطغيان المسنود بالقوة، اللجوء إلى المقاومة المسلحة بوصفها مقاومة مشروعة.

وفي هذه الحالة تنطبق اتفاقيات الحماية الدولية المختلفة على المقاتلين من أجل الحرية ضد الاستعمار والاحتلال والاضطهاد، وبذلك تتمتع الفئات التي تمارس هذا الحق في المقاومة المشروع بمركزٍ قانوني، حسب هذه الاتفاقيات، بما يتيح لها التصدي للاستعمار والاحتلال.

وقد أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها الرقم 3246 الصادر في 14/ 2/ 1974 على شرعية حق الشعوب في الكفاح المسلح في سبيل تحررها من الاحتلال، وذهب إلى: «أن أي محاولة لقمع الكفاح المسلح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادىء القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول، وللإعلان العالمي لحقوق الإنسان».

وأكدت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة في عام 1998 في المادة الثانية أنه: (لا تُعد جريمة حالات الكفاح بمختلف الوسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير).

وقد اعترف القانون الدولي بضرورة احترام الوحدة الإقليمية للدول وحقها في أن تعيش باستقلالها وكرامتها، وعلى هذا الأساس اعترف بالمقاومة الوطنية، وأكد في أحكامه أن الاحتلال القائم على الحرب لا يشكل ذريعة مقبولة لضم الأراضي المحتلة إلى إقليم الدولة القائمة بالاحتلال، وعلى هذا الأساس فإن المقاومة الوطنية المسلحة يمكن أن تكون أو تنطلق من خارج الأراضي المحتلة، وليس فقط من داخلها.

وإيماناً من سورية بحق الشعوب في مقاومة الاحتلال، ومن إدانتها الإرهاب، فقد أعلن السيد الرئيس الراحل المرحوم حافظ الأسد في أواخر أيار / مايو عام 1986 من العاصمة اليونانية (أثينا) مبادرته الشهيرة لمكافحة الإرهاب الدولي، موضحاً موقف سورية حيال هذا الإرهاب ومؤكداً أن سورية ترفض الإرهاب وتدينه وتقاومه، ولكننا نميز بوضوح بين الإرهاب وأعمال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، والتي نؤيدها لأنها حق لكل شعبٍ احتلت أرضه واغتصبت حقوقه، وخاصة عندما يمارس ذلك على ساحة نضاله الحقيقي.

وطالب السيد الرئيس في كلمته بالاتفاق على حدود الإرهاب، وحدود المقاومة والتحرير وعقد مؤتمر دولي للتفريق بين الأمرين.

وكانت تلك المبادرة الأولى من نوعها قد جاءت لتضع المجتمع الدولي أمام مسؤولياته التاريخية لوضع حدود فاصلة وواضحة بين الإرهاب الدولي المنظم الذي أصبح سياسة رسمية لدولٍ، وبين النضال الوطني المشروع الذي تخوضه شعوب عانت وتعاني من الاستعمار والقهر والتمييز العنصري والاحتلال.

الأداء السياسي المعلن يبدو كأنه فقرة إعلامية. كان من مؤشرات اهتمام إدارة (بوش) بالدعاية الإعلامية هي كثرة المراكز الإعلامية المتخصصة التي يتم إنشاؤها داخل مختلف الإدارات وبغرض التعامل مع العالم العربي والإسلامي بصفة رئيسية. وبالإضافة إلى النشاط الإعلامي المعروف لوزارة الخارجية أنشأ وزير الدفاع السابق (دونالد رامسفليد) مكتب التأثير الاستراتيجي الذي اشتهر باسم (مكتب التضليل الإعلامي)، ويرمي إلى الترويج لوجهة النظر الأمريكية وقمع المشاعر المعادية للولايات المتحدة وبالأخص في العالم الإسلامي.

ولكي نفهم توجهات الإعلام الأمريكي ينبغي الإشارة إلى حجم السيطرة والتأثير اليهودي في هذا المجال، فالشركات الإعلامية الكبرى الثلاث: والت ديزني، وفاكوم، وتايم وارنر، والصحف الأمريكية الكبرى: نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وول ستيرت جورنال، وكذلك الشبكات التلفزيونية الرئسية: سي بي إس، إم بي سي، إيه بي سي، فوكس، سي إن إن؛ والمجلات الكبرى: التايم، النيوزويك، وكبرى شركات إنتاج الأفلام: كولومبيا، متروجولدون ماير، وورنر براذرز، بارا مونت، يونيفرسال، وسينتشري فوكس، كل هذه المؤسسات الحكومية الضخمة يملكها أو يديرها أو يسيطر عليها اليهود.

وباختصار، تشير الأبحاث المختصة إلى أن 551 شخصاً يسيطرون على الإعلام الأمريكي أغلبهم من اليهود ومؤيديهم، الأمر الذي يتيح لهم دوماً إيجاد مناخ سياسي عام في الولايات المتحدة يتم من خلاله تنفيذ مخططاتهم بصورة تلقائية ودون تدخل مباشر في كل حين.

وكما أن للدعاية أشكالها فلها أساليبها أيضاً ومنها: النكتة، والتكرار، والاستضعاف، والاستعطاف، والترهيب، وأسلوب الشعارات، وأسلوب جس نبض الرأي العام، والصورة الكاريكاتيرية، والأسلوب العلمي، وأسلوب الاحتواء، وكذلك الأسلوب الحديث لتمرير الدعاية، وذلك من خلال خلق عدو وهمي للأمة يحاول أن يكون مصدر خطر في أي لحظة، وهنا يصبح من السهل إصدار مختلف أنواع الإشاعات بشكل مُهول وفي أي وقت.

وللدلالة على تأثير الإعلام الصهيوني في الولايات المتحدة، من المناسب أن نشير إلى ما ذكره الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر في كتابه المعنون: «فلسطين: سلام لا فصل عنصري» Palestine, peace not aparthied الذي صدر في كانون الأول/ ديسمبر 2006، وردود الفعل الصهيوني على ذلك.

فقد تضمن كتاب كارتر وصفاً للقمع الوحشي والاضطهاد الذي يخضع له أهل فلسطين المحتلة، وذلك إلى جانب سياسة فصل عنصري قاسٍ بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود في الضفة الغربية أقسى مما كان يعانيه الأفارقة السود في جنوب أفريقية.

وبعد صدور هذا الكتاب جُوبه بحملة صهيونية ضارية واتهمه اليمين المسيحي المتصهين بالكفر لأنه يعمل ضد إرادة الرب، وتعرض لحملة تجريح من اللوبي والإعلام الصهيوني واتهموه بالكذب والتعصب ومعاداة السامية والجبن وغير ذلك من الأوصاف التي يصعب ذكرها.

والأمر نفسه حصل قبل ذلك مع روجيه غارودي عندما نشر كتابه: الأساطير، وكشف سطوة اللوبي الصهيوني على الصحف ومنابر الفكر ومراكز صنع القرار في الولايات المتحدة، فقامت عليه القيامة واتهم بأنه «رفضي» وأنه ينكر المحرقة ومعادٍ للسامية، وأقيمت الدعاوى ضده في عدة بلدان غربية.

وكي يخفف من هذ الحملة ضده اضطر إلى أن يكتب أنه أمضى 33 شهراً في مقاومة النازية وأنه حصل على وسامين بعد الحرب لدوره في المقاومة.

من زاوية أخرى، وبما أن الحدث الذي حرك سياسة العالم (من ليس معنا فهو ضدنا) قد وقع في عقر دار ذاك العملاق، فقد انعكس هذا كما أسلفنا على العرب والمسلمين، وتزايد الضغط الإعلامي الذي تمارسه المنظمات واللوبيات المعادية للعرب والمسلمين كتبنيها لعدد كبير من الأقلام التي طالما اتهمت مسلمي أمريكا والعالم بالتطرف، الأمر الذي أوجب على المسلمين إعادة رسم صورتهم لدى المجتمع الأمريكي، ولكن ما زالت هذه المساعي تفتقر للاستثمار الكافي فيها، حيث يعتبر العرب والمسلمون من أقل الجماعات إنفاقاً على الإعلام والدعاية رغم الانتقادات التي تتعرض لها صورتهم في الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموماً. ويشير بعض المحللين إلى أن التغطية الإعلامية الأمريكية للشؤون العربية والإسلامية تعتمد على نظريتين أساسيتين:

1 ـ الوصفية: ويتم من خلالها فهم العالم والحكم عليه بالمدى

الذي يلتزم به، أو يقلد الممارسات والقيم الثقافية والاجتماعية الأمريكية.

2 ـ الانتقائية: حيث يجري انتقاء صور نمطية من المجمعات العربية والإسلامية تظهرها بالمجتمعات التقليدية المتخلفة ومن الضروري عصرنتها، وهذا التوجه يكشف عن عنصرية ثقافية تقوم على رفض فكرة التعددية الثقافية في العالم، وإن ميل المجتمعات العربية والإسلامية إلى التمسك بقيمها الثقافية وخصائصها الحضارية والتاريخية، والقلق من الهيمنة الثقافية الغربية أدى إلى ظهور إحساس بوجود صراع حضاري، والغرب الذي يعتبر أن ثقافته فريدة، ينظر إلى أي ثقافة عربية وإسلامية بمثابة تهديد للثقافة الغربية، ممهدين بذلك الطريق لظهور نظرية صراع الحضارات وتحولها إلى مادة نقاش حاد منذ نهاية الحرب الباردة وأصبحت أكثر وضوحاً في التغطية الإعلامية الأمريكية لثلاثة أسباب:

1 ـ حررت نهاية الحرب الباردة وسائل الإعلام الأمريكية من عبء معاداة الشيوعية، ونتيجة لذلك وجدت وسائل الإعلام هذه بيئة أكثر حرية للتعبير عن مشاعر وأفكار كانت مكبوتة خلال فترة الحرب الباردة.

2 ـ الفراغ الإيديولوجي الذي نتج من نهاية الحرب الباردة حيث برزت فرصة سانحة لاستبدال العدو القديم (الشيوعية) بالعدو الجديد (الإسلام).

3 ـ تحول بعض الحركات الإسلامية الشرق أوسطية، التي كان بعضها مدعوماً من قبل الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة بهدف

مواجهة الشيوعية، ضد راعيها السابق، بعد أن أدركت أن الولايات المتحدة كانت تستخدمها كلعبة في الصراع الدولي في حقبة الحرب الباردة، وبذلك، أصبحت الولايات المتحدة الهدف الجديد لهذه الحركات.

هذه العوامل تشكل الخلفية الأساسية لفكرة صراع الحضارات التي روجت لها الصحافة الأمريكية في فترة ما بعد الحرب الباردة، كما أنها تشكل الحاضنة لتغطيتها الإخبارية التي يطغى عليها البعد الثقافي في تناول أوضاع المنطقة العربية واتهام العرب بالتمسك بموروثات ثقافية تشكل بيئة مناسبة لنمو المنظمات المتطرفة وتكاثرها، على حدِّ زعم الصحفي الأمريكي الصهيوني المعروف، توماس فريدمان، خلال الندوة الإعلامية التي انعقدت في دبي في نيسان/ إبريل 2005 وشهدت سجالات ساخنة.

وجدير ذكره أن «مصداقية» هذا الإعلام قد اهتزت كثيراً خلال الاحتلال الأمريكي للعراق. فقد تخلّت وسائل الإعلام عن دورها التقليدي في البحث والتقصي لتقدم إطاراً دعائياً للاحتلال العسكري. وتآكلت هذه الصورة في فضيحة صحيفة «نيويورك تايمز» عندما تبين أن مراسلاً يدعى جاسون بلير، كان يلفق قصصاً عن أماكن لم يسبق أن زارها إطلاقاً، هذا إضافة للصفعة التي تلقتها وسائل الإعلام هذه عندما وافقت هيئة الاتصالات الاتحادية على أن تخفف من القواعد التي تحظر شركة إعلام واحدة بمفردها من أن تسيطر على نسبة هائلة من الموجات الفضائية الأمريكية.

دور الإعلام في التفريق بين المقاومة والجهاد من جهة والإرهاب من جهة أخرى

لا بدَّ من الاعتراف بداية بأن أسباب عدم نجاح معركتنا مع الإعلام الغربي سببه الرئيسي عجز الإعلام العربي والإسلامي عن الانطلاق عالمياً والانغلاق على الذات، فمن يتابع الإعلام العربي والإسلامي يرى أن أحد أهم أهدافه إقناع المتلقي العربي والإسلامي بعدالة القضيتين العربية والإسلامية، علماً بأن هذا المتلقي مقتنع سلفاً بهذه العدالة. إذاً هناك مشكلة في الشريحة المستهدفة إعلامياً.

فإذا كانت وسائل الإعلام تحدد مسارات الرأي العام العالمي ومواقفه من الدول والشعوب شئنا أو أبينا فقد شاهدنا كيف تستعين الدول الكبرى بالإعلام وهي تعد لعمل عسكري ضخم من أجل تهيئة الرأي العام الداخلي والخارجي لقبول ذلك العمل وتأييده كما حصل في أفغانستان والعراق.

ويكمن الحل في أن نرصد باهتمام مواقف وسائل الإعلام الغربية ونفتح معها حواراً صبوراً طويل النفس، وأن تتيح لأجهزتنا الإعلامية مداخل الاطلاع على ما تريد حتى لا يدفع بها انغلاقنا على النفس لتصورات واهمة واجتهادات خاطئة.

إن خطة التحرك الإعلامي الخارجي التي عملت جامعة الدول العربية على تحديثها وتطويرها والتي رصدت لها حوالي 6 ملايين دولار بهدف الارتقاء بالإعلام العربي وتسخيره لخدمة المجتمعات والقضايا

العربية في الغرب، وإيضاح الرؤية العربية للكثير من الأمور العالمية ووجهة نظر المواطن العربي فيها تحتاج إلى متابعة مستمرة. إن هذه الخطة يجب استثمارها على النحو الأمثل بالارتقاء برجال الإعلام العرب إلى مستوى نظرائهم في الغرب ولبناء أساطيل إعلامية تقف في وجه الإعلام الغربي لتبث روح الأمل والتفاؤل في نفسية المواطن العربي، وتصحح للعالم الصورة الصحيحة والصادقة لما يحصل، وأن يعرف العالم ما هو موقف الطرف العربي والإسلامي ورؤيته وتحليله وأن لا تؤخذ المعلومات من طرف واحد فقط.

فبلد مثل العراق مثلاً تحول إلى بؤرة للإرهاب الدولي وأصبح قاعدة صراع لجميع المنظمات الإرهابية وكل ذلك سببه الاحتلال الأمريكي لأراضي هذا البلد، إذ قبل الاحتلال لم يكن هناك مستقر للمنظمات الإرهابية في العراق، إذاً هي حصيلة حصاد الاحتلال الأمريكي، ولكن رغم ذلك فإن الإعلام الأمريكي يروج في الرأي العام الغربي والأمريكي أن هذه المنظمات الإرهابية هي سبب كل المآسي في العراق وليس الاحتلال، وأن الطائرات الأمريكية وقنابلها محبة للسلام والدبابات الأمريكية معتنقة للديموقراطية ومصنوعة من مبادىء حقوق الإنسان ومن وسائل حرية التعبير. لذلك فإن مجابهتها هو إرهاب وكفر بكل القيم البشرية..

وللأسف فإن بعض الإعلام العربي والإسلامي يردد آلياً المصطلحات الغربية دون تمحيص وتدقيق وتأكد من الأهداف الخبيثة لاتهام العرب والمسلمين بالإرهاب.

فأول هذه المصطلحات بدأت بكلمات غير مرعبة (كالمتشددين الإسلاميين) ثم تبعتها كلمة (الأصوليين) وكلما تقبل المجتمع مصطلحاً وتعود عليه من خلال وسائل الإعلام زجّت بمصطلح آخر جديد ومن ثم كلمة (المتطرفين المسلمين) وأخيراً وصلت إلى كشف المستور من خلال إعلانها أن المسلمين والعرب إرهابيون.

إذاً النصر له آباء كثر، أما «الفضيحة» فهي بالطبع يتيمة.

الإعلام ودوره في «الإسلاموفوبيا»

ثمة جدلية متشابكة في لعبة الصورة عند الأمريكي. ففي الوقت الذي يسعى فيه لتجميل صورته عالمياً وتحديداً في العالم العربي نراه يمعن وعلى عدة مراحل تاريخية في تشويه صورة العربي المسلم وقد تبلور الأمر وأخذ الطابع الفكري المباشر بعد أحداث 11 أيلول 2001 بشكل أوقع الأمريكي في تناقضات عدة غلب عليها التباس المفاهيم، فمرة يُعتبر المسلم إرهابياً بمعنى أن الإسلام يشجع على الإرهاب، ثم نسمع آراء تحاول الفصل بين العنوانين. لكن بعيداً عن المنطلقات والمسببات، نحن أمام واقع مفاده أن صورة الإسلام قد شوِّهت رسمياً أمام الرأي العام الغربي بعد أن كان التشويه متفشٍ بإيقاع أقل صخباً. لذلك ظهر مصطلح «الإسلاموفوبيا» الذي احتاج إلى أوركسترا فكرية وإعلامية وسياسية تعمل ليل نهار على إتحاف الجمهور الغربي بنظريات ومعلومات مفبركة عن الإسلام بالإضافة إلى اقتطاع بعض الآيات من القرآن الكريم وتفسيرها بعيداً عن سياقها الحدثي والتاريخي واللغوي.

كل ذلك دون إعلام مضاد يطرح الصورة الصحيحة أو يعمل في أقل تقدير على مقاومة الهجمة، رغم أن أموال عربية ضخمة يتم ضخّها في ميادين كثيرة، إلاّ في خانة الدعاية، علماً أن أفضل أنواع الدعاية هي تلك المنطلقة من حقيقة.

إن مفهوم الإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام) يعتبر من المفاهيم الجديدة نسبياً، أقله كمصطلح، والأرجح أن أحداث 11 أيلول 2001 بلورت التوجه ودفعته إلى الواجهة من خلال طرحه وإبرازه في وسائل الإعلام والمنتديات الفكرية والمؤتمرات والمنابر السياسية والأكاديمية. علماً بأن الصورة التي يرسمها الغرب حديثاً عن الإسلام ليست جديدة. إنها صورة قديمة متجددة، تنحدر من القرون الوسطى، وقد طغى عليها الكثير من عناصر التشويه والفنتازيا، فتداخلت الشعوذة بالبخور بليالي ألف ليلة وليلة، وعالم الرق والحريم والسيوف والخيام.

هذه الصورة اشتركت في صنعها مؤسسات متعددة وعلى مستويات زمانية ومكانية مختلفة. فهي مزيج من رؤى أيديولوجية ولاهوتية وأدبية وفنية وأنتروبولوجية.

نظرة نيكسون

يقول سام كين في كتابه «وجوه العدو»: «يمكنك أن تضرب عربياً مجاناً، إنهم أعداء بلا مقابل، أوغاد بلا ثمن... بينما لا يمكنك أن تفعل ذلك مع يهودي أو حتى مع رجل أسود».

لا شك في أن هذه النظرة وليدة الصورة النمطية التي كرستها

هوليوود ووسائل الإعلام والإعلان. فكان نموذج العربي المسلم جنباً إلى جنب مع شخصيات نمطية أخرى اختفت من الواجهة.. فقد قدمت الثقافة الأمريكية في مطلع القرن العشرين الآخر على شاشاتها بصور سيئة، فظهر الآسيوي حقيراً والإيطالي مافياوياً واليهودي طماعاً والإيرلندي سكيراً والهندي متوحشاً.

تبدلت هذه الشخصيات ليبقى العربي والمسلم في القالب ذاته مع رتوش وإضافات أكثر سلبية، أبرزها وصمة الإرهاب.. وقبلها كان النفط والثراء والشراهة. فها هو نيكسون الرئيس الأمريكي الأسبق يقول في كتابه «اقتناص اللحظة»: «إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، وسخون، برابرة، غير عقلانيين، لا يسترعون انتباهنا إلاّ أن الحظ حالف بعض قادتهم وأصبحوا حكاماً على مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياط العالمي المعروف من النفط! وفي الصفحة 195 من الكتاب يقول: «يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يكون قوة جغرافية متعصبة ومتراصة.. وأن نموّ عدد أتباعه ونموّ قوته المالية سوف يفرضان تحدياً رئيسياً، وأن الغرب سوف يضطر لتشكيل حلف جديد مع موسكو لمواجهة عالم إسلامي معاد وعنيف».

وفي المدارس!

لقد أثبتت الدراسات أن الكتب المدرسية في المدارس الأمريكية والأوروبية مملوءة بالأغلاط المستقبحة التي تساهم في زرع الكراهية

والحقد في نفوس الأطفال. لقد أجريت دراسات عديدة للبحث في الصورة التي يوصف بها العرب والمسلمون في الكتب المدرسية في الولايات المتحدة. ففي سنة 1973 شكلت رابطة دراسات الشرق الأوسط للمرحلة الإعدادية، وقد أسفرت نتائج دراستها عن أن غالبية الكتب المدرسية أخطأت في مواضع كثيرة. وأنها تكرر الصور النمطية الموروثة عن الإسلام والمسلمين. وتعمل على استمرارها، مع التهوين من شأن المسائل الكبرى، وتضخيم المسائل التافهة.

وفي سنة 1974 أُجريت دراسة على 36 كتاباً مدرسياً للمرحلة الإعدادية والثانوية في ولاية كاليفورنيا في حقل العلوم الاجتماعية. فأثبتت أن البؤرة المركزية لتلك الكتب كانت مسلّطة لتصوير الشرق الأوسط على أنه مجتمع عربي وحشي يرتبط بالجمل والصحراء والبداوة. وأن ركوب الخيل والسلب والنهب والقتل. ما هي إلاّ سمات موروثة من حياة البداوة.

أما عندما يحصل العكس فهناك الكثير بالمرصاد. فعندما أدرجت جامعة كارولينا الشمالية كتاب «مقارنة لفهم القرآن: إرهاصات الوحي» ضمن مناهجها، رفعت إحدى المنظمات دعوة قضائية استندت إلى أن الجامعة بصنعها هذا تروّج لدين معيّن على حساب أديان أخرى.

سيناريوهات

ليس ثمة شك في أن الغرب كدوائر ومراكز قرار يعرف عن الإسلام الشيء الكثير، وقد توسّل سبلاً متعددة لمجابهة ما يظنونه خطراً داهماً.

فذهب بعضهم إلى أن الأولى في معالجة هذا الأمر تجاهله وعدم إثارته، لأن الاصطدام به مباشرة سيولد في معتنقيه حالة من التحدي والاستنفار والتكاتف. ورأى فريق ثان أن التعامل مع هذه الظاهرة يكون بالإمعان في تشويهه وحرقه ووصمه بنعوت سيئة، كالإرهاب واستعباد المرأة، وبالتشكيك في القرآن. ورأى فريق ثالث أن لا سبيل لوقف مدّ الإسلام إلاّ بشن حرب كونية عليه ينقسم فيها العالم إلى محورين: الخير والشر، وهذا الأخير هو مطلب بعض الساسة الأمريكيين والأوروبيين الواقعين تحت تأثيرات الصهيونية ـ الإنجيلية.

«أعلم أن ربي أكبر من ربهم، وأعلم أن إلهي حقيقي وإلههم صنم».. بهذه الكلمات عبّر الجنرال وليام بويكين نائب وزير الخارجية لشؤون الاستخبارات عندما ألقى عدة مواعظ دينية في عدد من الكنائس الأمريكية وهو بالزيّ العسكري.. وبرغم الانتقادات التي تعرض لها، إلاّ أن هذه العبارات تعكس المنطلقات الفكرية والثقافة المحيطة التي تسهل إطلاق اتهامات كهذه.

الإسلام إذا استُفزّ قوي والتفّ أهله حوله، حتى غير الملتزمين منهم. ومن يتأمل في تاريخ الإسلام يكتشف أن أكثر حركات التحرر الإسلامي جاءت بعد رقاد طويل انقطع بفعل التحرّش به. وكان مكسيم رودنسون الفيلسوف الفرنسي من أوائل من نبّه إلى هذا الأمر وفي إحدى المقابلات معه أشار إلى أن البوسنة كاد ينطفىء الإسلام فيها لولا حماقات الصرب.

وقد أثار انتباهه يوماً دخول أحد الطلاب البوسنيين الذين يدرسون

على يديه بعد انتهاء الحرب البوسنية مطلقاً العنان للحيته، وكان من قبل ماركسياً لا يؤمن بدين، فسأله عن ذلك، فأجاب الطالب: «إنهم يقتلوننا لأننا مسلمون، فسعيت لمعرفة هذا الذي يقتلوننا من أجله، فاكتشفت عالماً قد غيّب علينا منذ أمد بعيد».

هنتنغتون

في 10/ 9/ 2005 كتب فخري صالح في الحياة مقالاً في ذكرى أيلول قال فيه: «بغض النظر عن مجموعات المصالح، والشركات العبارة للجنسيات والقارات التي تتخذ من الولايات المتحدة قاعدة انطلاقها، فإن رؤية ثقافية لأمريكا يمينية محافظة، تتمسك بأسطورة الرجل الأبيض المتفوق الحالم بتحويل العالم كله مزرعة أمريكية، تحكم العقل الأمريكي في هذا الزمان.

تتغلغل هذه الرؤية لا في أوساط صانعي القرار في الولايات المتحدة بل في الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة. المسموعة والمرئية والمقروءة: ويجري تصنيعها في المؤسسة الأكاديمية التي ثبت خلال نصف القرن الأخير أنها مرتبطة بصورة خفية بالمؤسسة الاستخباراتية وكذلك بالمؤسسة العسكرية الأمريكية.

ثمة أبحاث ودراسات وكتب تمولها «سي أي أي» وتروج لها، ولنا في نظرية «صدام الحضارات» لصموئيل هنتنغتون مثال ساطع على تصور أعرج للتاريخ جرى الترويج له وتبنيه بصفته استراتيجية عمل في زمن إدارة بوش الابن. وينبغي أن ننتبه إلى أن كتاب «صدام الحضارات» كان

في الأصل مقالة نشرتها مجلة «الشؤون الخارجية» الأمريكية التي تعد بمثانة مصنع الأفكار السياسية، والتصورات الاستراتيجية للنخبة الأمريكية صانعة القرار في الولايات المتحدة، وكثيراً ما يتبنّى البيت الأبيض تلك الأفكار التي تظهر على صفحات تلك المجلة الشديدة الأهمية.

ضمن تلك الشروط التي تحكم عمل الإدارة الأمريكية ظهرت مقالة صموئيل هنتنغتون، الأكاديمي الأمريكي وأستاذ العلوم السياسية الذي برز بكونه متخصصاً في تحليل العلاقة بين الجيش والمجتمع المدني ومن خلال تحليله للانقلابات السياسية: وأخيراً من خلال تصريحه في كتابه الأشهر «صدام الحضارات»، بأن حروب القرن الحادي والعشرين ستكون بين حضارات متناحرة تحاول كل منها السيطرة، لا حروباً تدور بين دول قومية تحاول الحفاظ على حدودها آمنة».

وفي كتابه: «من نحن؟ التحديات المواجهة للهوية القومية الأمريكية» يعدد هنتنغتون المميزات التي يعتبرها بمثابة الجوهر المكوّن للثقافة والهوية الأمريكية. وقد جاءت على الشكل التالي: «الدين المسيحي، القيم والأخلاق البروتستانتية، أخلاق العمل، اللغة الإنكليزية، تقاليد الحقوق البريطانية، العدالة، السلطة الحكومية المقيدة، والميراث الأوروبي في الأدب والفن والفلسفة والموسيقى، وهذه جميعها مميزات كان «الأهلانيون» منذ أكثر من قرن من الزمن، يؤمنون بها كمحافظة للهوية الأمريكية وكمكوّن لها، على أن الصادم في المسألة، بحسب روس، أن هنتنغتون، وخاصة فيما يتعلق بميراثات الفن والأدب

والموسيقى والفلسفة، التي تحدث عنا في مكان آخر مكونات هويته الأمريكية، قد حذف قروناً طويلة من التاريخ الأمريكي، حاذفاً معها مساهمات الأمريكيين «الآخرين» جميعهم، من حمر وسود وآسيويين، في مكونات هوية بلدهم.

تعليقاً على محاضرة ألقاها هنتنغتون في اسطنبول كتب عدنان علي في النهار[1]: «يقول هنتنغتون إنه وقعت في التسعينيات 110 حروب كان سبعون في المئة منها عبارة عن حروب أهلية بين مجموعات إثنية ودينية. وغالباً ما كان للمسلمين دور فيها. حيث يتقاتل المسلمون في ما بينهم ويقاتلون غير المسلمين أكثر بكثير مما تفعل الشعوب المنتمية إلى الحضارات الأخرى». ويشير في أمثلته إلى «أعمال عنف قوية بين المسلمين وغير المسلمين في البوسنة وكوسوفو ومقدونيا والشيشان وأذربيجان وطاجيكستان وكشمير والهند والفيليبين وأندونيسيا وفلسطين والسودان ونيجيريا». ويضيف أنه في منتصف التسعينيات، كان حوالي نصف النزاعات الإثنية في العالم يدور بين المسلمين أنفسهم أو بين مسلمين وغير مسلمين. بحسب المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، كان هناك 32 نزاعاً مسلحاً أساسياً عام 2005، وكان للمسلمين دور في 23 منها، أي نحو الثلثين، على الرغم من أنهم لا يشكلون سوى خمس سكان العالم. ويرى هنتنغتون أن أسباب هذا العنف «العنف الإسلامي» ليست متأصلة في طبيعة الإسلام كديانة، بل هي وليدة صعود الوعي

(1) عدنان علي، النهار، 21/6/2005.

والهوية الإسلاميين من جديد في ضوء عجز الحكومات وفشلها في جميع المجالات، والشعور بالشكوى والحسد والعداء تجاه الغرب نتيجة حقبة الاستعمار ونتيجة سياسة الغرب المعاصرة تجاه بعض القضايا الحساسة للمسلمين مثل القضية الفلسطينية والعراق. إضافة إلى الانقسامات والتنافس بين المسلمين أنفسهم مما يولد عنفاً داخلياً لا يلبث أن يتطاير عبر الحدود، وأخيراً التزايد السكاني في العالم الإسلامي مما يولد جيلاً من العاطلين عن العمل الذين يجدون طريقهم إلى المنظمات المتطرفة».

لكنه لا يتردد في القول إن «الإسلام أقل توحداً من أي حضارة أخرى، تحفز الانقسامات القبلية والدينية والسياسية والثقافية العنف بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وغير المسلمين متنبئاً أن تسوء أكثر العلاقات بين الإسلام والآخرين، حيث ستكون في أفضل الأحوال باردة وجافة وفي أسوئها خلافية وعنيفة».

وهو إذ يقر أن الإسلام في جوهره لا يحمل ما يعارض التجديد، يرى أن الحركات المتأسلمة التي ظهرت في السنوات الأخيرة، وقفت ليس ضد السياسة الغربية وحسب، وإنما ضد العصرنة نفسها، أي ضد التسامح الديني حيث احتفلت تلك الجماعات بأحداث 11 أيلول لأنها أصابت مجتمعاً فاسداً، الدولة فيه ليست مسخرة لخدمة الحقيقة الدينية (ويتناسى فوكوياما أن الدولة ليست مسخرة لهذا الفرض في المجتمعات الإسلامية نفسها) ويعتبر تالياً أن الحرب الحالية ليست موجهة إلى الإرهابيين الفعليين وحسب، وإنما إلى كل أولئك الذين ينظرون في

العالم بشكل ثنائي، معتبراً أن هذه شريحة كبيرة في العالم الإسلامي تصل نسبتها إلى ما بين 10 إلى 15 في المئة، مما يعني أن الفاشية الإسلامية تمثل خطراً على الغرب أكثر مما كانت تمثله الشيوعية.

وهو يتوقع بطبيعة الحال أن النصرة ستكون للغرب في هذه الحرب التي ينسجها معتمداً بشكل كبير على افتراضات غير دقيقة أكثر من اعتماده على حقائق راسخة».

مقاومة الإسلاموفوبيا

يقوم مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) بدور كبير في تحدي ظاهرة الإسلاموفوبيا والمروّجين لها عبر الكثير من وسائل الدعاية فقد واصلت (كير) في عام 1998 جهودها لتوسيع نطاق الخدمات التي تقدمها لمسلمي أمريكا، استطاع مسؤولو كير ـ معتمدين على خبرة أربع سنوات من العمل الجاد ـ التوصل إلى الاستراتيجيات التي من شأنها تحقيق استمرارية أنشطة كير وإنجاحها، إذ قامت المؤسسة بنشر معلومات تعزز قوى المسلمين الأمريكيين وتزيد من وعيهم السياسي والحقوقي والإعلامي، كما استخدمت كير قوة قواعدها الجماهيرية لمواجهة الأفكار التي تثير الخوف من الإسلام والتي بدا استخدامها من وسائل الإعلام ومن قبل بعض المسؤولين.

وفي شهر أيار 1998، أعلنت كير عن توافر قائمة رسائل بريد الكتروني جديدة صممت خصيصاً لكي تكون نافذة للصحافيين ولوسائل الإعلام على قضايا مسلمي أمريكا، وتوفر القائمة المجانية ـ وتدعى

«إسلام إنفو ـ نت» ـ للمشتركين فيها أخباراً يومية ومقالات حول الأمور التي تهم المسلمين الأمريكيين، وتوظف كير القائمة لتوعية العاملين في مجال الإعلام، والمسؤولين وأعضاء الكونغرس ومساعديهم بالعطلات والأعياد الإسلامية، والمؤتمرات، والندوات، ونشاطات مسلمي أمريكا الأخرى على المستويين الوطني والمحلي، وكانت كير قد أصدرت في وقت سابق خدمة مشابهة تضم مقالات إخبارية أطلق عليها اسم «كير ـ نت» صممت خصيصاً حول المواضيع التي تهمهم وتسمح لهم بوضع أجندة عمل خاصة به.

ومن خلال حملاتها الإلكترونية واجهة كير مثيري الأفكار المعادية للإسلام والمسلمين على جميع المستويات، ففي شهر أيلول، دعت كير جميع أعضائها ومسانديها لمطالبة مجلة News & World Report المعروفة بتقديم اعتذارها على نشر إعلان يهاجم الإسلام ـ ممول من قبل جماعة مؤيدة لإسرائيل تضمن عدداً من الادعاءات المعادية للإسلام والتي تشير في جوهرها إلى الإسلام وهو أسرع الأديان انتشاراً في العالم على أنه «ورم خبيث»، كما ادّعى الإعلان أن المسلمين يؤمنون بأن «أي عمل عنيف هو عمل مسموح به ويحظى بالتشجيع».

وفي كانون الأول 1998 طالبت كير النائب الجمهوري عن ولاية نيوجيرسي «جيم ساكستون» بالرجوع عن تصريحات أدلى بها ادعى فيها أن النبي محمداً(ص) احترم معاهداته عندما كانت مفيدة له سياسياً فقط، إذ كتب «ساكستون» مقالة بعنوان «رحلتي إلى إسرائيل» ـ نشرت على إحدى مواقع الإنترنت ـ قال فيها: «كيف يمكن لأحد أن يثق في اتفاقية

(يقصد اتفاقيات عملية السلام بالشرق الأوسط) قورنت بمعاهدة صلح الحديبية التي أبرمها النبي محمد(ص)، والتي دامت فقط دوام منفعتها السياسية».

وبعد أن تلقت عدة شكاوى من المسلمين المهتمين بالموضوع قامت كير بإرسال خطاب إلى النائب «ساكستون» تطالبه فيه بالتراجع عن تصريحاته المسيئة وبالاعتذار لمسلمي أمريكا، كما أشار الخطاب إلى الأحداث التاريخية المرتبطة بمعاهدة صلح الحديبية، موضحاً أن النبي محمداً(ص) لم يخرق المعاهدة.

وفي العالم عينه، واصلت هوليوود هواجسها بإنتاج أفلام توصم المسلمين والعرب بالعنف والوحشية. ولكن كير ـ على الجانب الآخر ـ لاحظت بعض التغير الذي طرأ على طريقة استجابة منتجي الأفلام لحملاتها.

فعلى سبيل المثال، كانت الحبكة الدرامية لفيلم «الحصار» الذي أنتجته شركة أفلام The Century Fox تماماً كفيلمها «أكاذيب حقيقية» الذي تمّ إنتاجه عام 1994 تصور المسلمين والعرب كخطر حقيقي على المجتمع الأمريكي، فالفيلم الذي تمّ تصويره في «بروكلين» بمدينة «نيويورك» يحكي عن مؤامرة تفجيرية ينوي المسلمون القيام بها ما كان سبباً لقيام الجيش الأمريكي بإعلان حالة طوارىء عسكرية وتنظيم معسكرات اعتقال جماعية ضد المسلمين والعرب الأمريكيين.

وبدلاً من تنظيم حملات الاحتجاج التقى مسؤولو كير بمنتجي الفيلم

لمناقشة مخاوف كير من النتيجة السلبية المحتملة التي قد يتركها الفيلم على مسلمي أمريكا وعلى الرأي العام الأمريكي ورؤيته للإسلام والمسلمين. وخلال اللقاء قدمت كير تحليلاً لسيناريو الفيلم يوضح أن الفيلم يحتوي على عدة صور نمطية وسلبية عن الإسلام وعلى مفاهيم معادية له، وكان قلق كير في الأخص ينبع من تصوير فيلم «الحصار» للمسلمين الأمريكيين على أنهم خطر على المجتمع، واستجابة لتحليلات كير وافقت شركة The Century Fox على إدخال بعض التعديلات الطفيفة على مشاهد معينة، ولكنها رفضت إعادة النظر في الحبكة الدرامية للفيلم، فقد ادّعت الشركة أن الفيلم يناهض فكرة الخوف من الإسلام ويعارض مبدأ انتهاك الحكومة للحقوق الدستورية، لذا رفض مسؤولو كير هذه المبررات.

ومن ثم شرعت كير في القيام بحملة علاقات عامة وجماهيرية واسعة لتوعية الرأي العام الأمريكي بأخطاء وأضرار فيلم الحصار، حيث طالبت كير المسلمين الأمريكيين بتنظيم تظاهرات سلمية أمام دور العرض السينمائي التي عرضت الفيلم لتوزيع معلومات عن الإسلام ولتوزيع تحليلات للفيلم وأضراره، وكذلك لدعوة مشاهدي الفيلم لزيارة المراكز والمساجد الإسلامية القريبة منهم للتعرف على المسلمين وثقافتهم من قرب، ونال هذا التحرك الإيجابي إعجاب المراقبين، كما سجل الكثير من وكالات الأخبار أن مبيعات الفيلم خسرت 20 مليون دولار أمريكي.

وفي حادثة أخرى، قدم رسام كاريكاتور سياسي وصحيفة كندية

اعتذاريهما للمسلمين لإساءتيهما للدين الإسلامي، إذ أرسل رسام الكاريكاتور بروس بيتي ـ الذي يعمل في جريدة Daytona Beach News-Journal بولاية فلوريدا ـ خطاب اعتذار إلى كير بعد تذمر المسلمين في شتى أنحاء العالم من رسم كاريكاتوري ربط بشك غير عادل بين الإسلام والأسلحة النووية وقدم صورة نمطية سلبية عن المسلمين.

فقد رسم بروس بيتي سحابة نووية على شكل عش الغراب مكتوب عليها «قنبلة إسلامية» وعرض صورة لمسلم يرتدي عمامة مهدداً بسيف ـ عادة ما يستخدم لتصوير المسلمين والإسلام بالعنف ـ قائلاً «العين بالعين.. والميغاطون بالميغاطون» (الميغاطون هي قوة تفجيرية تعادل تفجير مليون طن من المواد المتفجرة).

وقال بروس بيتي في الخطاب الذي بعثه إلى كير: «أشعر بأن خطابكم الذي انتقد الكاريكاتور الذي رسمته يحمل بعض النقاط الصحيحة، ولذلك أقدم اعتذاري عن الصورة التي قدمتها عن المسلمين في هذا الرسم، كما أرجو الإعراب عن ندمي عن أي إساءة قد يسببها الرسم في المستقبل، وسأحرص في المستقبل على أن أكون أكثر حساسية تجاه ما قد يثير قلق المسلمين الأمريكيين».

لكن العرب والمسلمين بحاجة إلى آلاف الاعتذارات من وسائل الإعلام الغربية التي رسخت في دعايتها السياسية شكل العربي والمسلم كبشع وقاتل.

ينسب إلى ماكسيم رودنسون المفكر الفرنسي البارز، القول بأن

«المسيحية الغربية قد رأت في العالم الإسلامي خطراً يهددها قبل أن يبدأ النظر إليه كمشكلة حقيقية بزمن طويل». وقد ردد هذا الرأي باحث آخر هو ألبرت حوراني، فقال بأن الدين الإسلامي شكّل منذ ظهوره خطراً على أوروبا المسيحية. فالمسيحيون، الذين نظروا إلى الإسلام بمزيج من الخوف والحيرة، لم يكن بمقدورهم التسليم بمحمد كنبي حقيقي، ولا القبول بصدق الوحي الذي أنزل عليه. ويشير حوراني إلى أن الاعتقاد الأكثر انتشاراً بين المسيحيين في ذلك الوقت هو «أن الإسلام دين مزيّف، وأن الله ليس الرب، وأن محمداً ليس نبياً، وأن الإسلام دين ابتدعه رجال تدعو دوافعهم وطباعهم إلى الرثاء، وقد نشروه بين الناس بقوة السيف». ومن ذلك أيضاً زعم أوليفر بادربورن بأن «الإسلام استهل بالسيف، وانتشر بقوة السيف، وبالسيف يمكن القضاء عليه»[1].

كيف يمكن للمرء أن يفهم عملية صنع السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الإسلام السياسي دون تفحص دور الاتجاه السياسي في وسائل الإعلام وأثره إما في إكساب الموقف الأمريكي الشرعية أو في تشكيله لهذه المواقف؟ وفوق ذلك، إلى أي حد تؤثر المسألة الإسرائيلية في تشكيل وجهة نظر الرأي العام الأمريكي ومواقف المسؤولين الأمريكيين من الحركة الإسلامية الناشطة؟ وما هي الكيفية والأساليب التي يؤثر من خلالها الكونغرس في تشكيل سياسة ما ضد الإسلاميين؟

---

(1) الوطن العربي في السياسة الأمريكية، ص165، مجموعة كتاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2002، ص165.

المراقبون على المسرح السياسي الأمريكي يوافقون على أن الاتجاه الأساسي في التغطية الإعلامية الأمريكية لأخبار الإسلام والمسلمين ـ والتي هي في غاية السلبية ـ هو الذي يحدد الموقف العام من المجتمعات الإسلامية. وهم يجدون صعوبة في تحديد تلك العلاقة العظيمة التعقيد والخفية القائمة بين الاتجاه السائد في وسائل الإعلام من جهة والسياسة الأمريكية من جهة أخرى.

على أن مراقبين من أصحاب الاتجاه النقدي لا يشعرون بمثل هذه الصعوبات، فبالنسبة إليهم فإن رموز «التيار المسيطر على وسائل الإعلام هم أنفسهم أعضاء مشاركون في مؤسسة النخبة السياسية الرسمية». ويؤكد هذا الفريق من المراقبين أنه في ظل وجود هذا النوع من الانسجام الأيديولوجي الذي يجعل النخبة الأمريكية الحاكمة متماسكة، فإنه نادراً ما ينشأ توتر جوهري بين مؤسسة السياسة الخارجية والمؤسسة الإعلامية. ويزعم إدوارد هيرمان أن وظيفة الإعلام الأساسية هي في كونه الساعد المؤيد للنخبة الحاكمة، بحيث يعرض للمجريات ويناقشها ضمن الأطر المقبولة لدى المراجع العليا[1].

يفترض هنا أن وسائط الإعلام في الولايات المتحدة لا تضع جدول الأعمال ولا تأخذ القرارات في ما يتعلق بالسياسة الخارجية. والعملية التي ينقل فيها الصحافيون إعلانات البيت الأبيض عن قضايا السياسة الخارجية من دون تحقيق دقيق تقارن بالعلاقة بين ركاب في سفينة نزهة

(1) فواز جرجس، المرجع السابق، ص185.

بحرية وهم لا يتطلعون إلى أشياء تثير الاهتمام إلاّ بعد أن يكون ربان الباخرة قد أشار إليها. وكل من الحكومة ووسائط الإعلام يُديم الأساطير والتشويهات والأفكار المقولبة عن المسلمين وشعوب الشرق الأوسط. وكما يضع البيت الأبيض جدول آمال السياسة الخارجية وينقله إلى وسائط الإعلام بصورة معينة، فكذلك أيضاً تنقل وسائل الإعلام هذه الصور والإنجازات المبالغ فيها إلى الجماهير العامة. والجماهير بدورها تمتص هذه الصور لا شعورياً لتشكل من ثم الأساس لمواقف سلبية أو إيجابية تجاه شعوب أو بلدان معينة. وعلى أساس هذه الصور والمواقف يُبنى الضغط أو التأييد الشعبي على البيت الأبيض. وفي النهاية «يتجاوب» البيت الأبيض بنقل جدول أعماله إلى وسائط الإعلام. وتكرر الدورة نفسها باستمرار خالقة بذلك شكلاً من التعاون يزداد فيه تأثر كل عمل بحيث يكون التأثير الكلي أكبر بكثير من مجموع أجزائه[1].

وتصوير العرب والمسلمين كشياطين كان تاريخاً يجعل قرارات السياسة الخارجية سهلة التسويق إلى الجمهور الأمريكي مثل التورط العسكري الأمريكي في لبنان عام 1958 أو الهجمات الأمريكية الجارية على العراق منذ التسعينيات. ومن الناحية الأخرى، كان العداء الدفين للعرب والمسلمين أحياناً يعوق الرؤساء عن تصديق سياسات لا تجاري جو الرأي السائد أو مناخه. والمعارضة السياسية لأعمال الرئيس فورد

(1) جانيس تيري، المستقبل العربي، بيروت، تشرين الثاني 2000.

أو الافتقار إلى مثل هذه المعارضة للغزو التركي لقبرص في عام 1974، أو الصعوبات المواجهة في كسب موافقة من الكونغرس على مبيعات أسلحة إلى المملكة العربية السعودية، الحليف المخلص لأمريكا، هي أمثلة على آثار الدفع والسحب التي تولّدها المواقف السياسية السائدة. ومن الواضح أن ناشطي جماعات الدعم يتلاعبون ويستخدمون هذه الصور نفسها لتعزيز جداول أعمالهم الخاصة[1].

في كتيب بعنوان «لماذا يهدد الإسلام أمريكا في الغرب؟»، يقول اثنان من قادة المحافظين في أمريكا، هما بول ويريش ووليام لند: «بكل بساطة، الإسلام دين حرب... يجب أن نشجع المسلمين الأمريكيين على المغادرة. إنهم طابور خامس في هذا البلد». والمعلقة الصحفية المعروفة آن كولتير قالت في إحدى مقالاتها: «يجب أن نغزو بلادهم، نقتل قادتهم ونحوّلهم إلى المسيحية». أما القس فرانكلن غراهام، ابن القس بيللي غراهام، أحد أشهر الإنجيليين في أمريكا، فإنه يصف الإسلام في إحدى عظاته بأنه «دير كثير الشر والخبث». والمبشّر الأصولي جيري فالويل قال في برنامج «60 دقيقة» الذي تبثه محطة «سي. بي. إس» إن النبي محمداً إرهابي. والقس المتطرف بات روبرتسون الذي يملك أكبر شبكة فضائية دينية وصف الإسلام في إحدى مقابلاته التلفزيونية بأنه «خدعة كبيرة»، وأن النبي محمداً «كان مجرد متطرف. لقد كان سارقاً وقاطع طرق»، وتقول آن: «هؤلاء لا يحرّفون الإسلام! إنهم يطبقون ما في الإسلام».

(1) المرجع السابق.

الخطر في الأمر أن الإدارة الرسمية الأمريكية أصبحت تعرّف المنطقة العربية والإسلامية بأنها الموقع الرئيسي للعدو في حربها على الإرهاب. الإدارة الأمريكية وأبواقها تبنّت تعريف إسرائيل للصراع في الفلسطين بأنه «إرهاب» وليس مقاومة مشروعة للمحتل، بل إنهم اعتبروا ما يقوم به المحتل الإسرائيلي جزءاً من حرب أمريكا العالمية على الإرهاب. ووصفوا التدمير الإسرائيلي للمدن والمخيمات الفلسطينية بأنه شكل من أشكال الدفاع عن النفس[1].

وتتحدث فكتوريا دي غراتسيا الكاتبة في نيويورك تايمز عن الطريقة التي تعمل بموجبها جهود الدعاية الأمريكية بالمقارنة مع الطرق والأشكال الأخرى فتقول: «إن النشر والإعلان اللذين يدعمهما القطاع الخاص الأمريكي كانا في خدمة حكومة تقدم نفسها بمظهر من يعارض التدخل الواسع الخارجي ومن يحاول تطويق وحصار قادة دول ترى أنهم ديكتاتوريون من أجل تصوير نفسها أمام الجمهور الأمريكي بصورة من يحمل رسالة إنسانية عقلانية تجاه الجمهور الذي يحمل هذه الأفكار. وإذا كانت أنظمة دول أخرى قد تقوم بالدعاية لإيديولوجية متشددة وبشكل مباشر فإنّ الديمقراطية الأمريكية تفعل ذلك بشكل يستخدم المثل الرفيعة». وهذا القول يدل على أن مؤسسات النشر والدعاية التي تعمل مع القطاع الخاص كانت خدماً للدعاية الأمريكية وهذا بالضبط ما تقوله الشركات الدعائية الكبرى حيث تصف وظيفة «وكالة المعلوماتية الأمريكية» أثناء الحرب الباردة وما بعدها.

(1) العرب والإعلام الفضائي، مرجع سابق، ص80 ـ 81.

ويلعب الإعلام دوراً وسيطاً ليس فقط بين الشعب والحكومة، بل بين قطاعات مختلفة داخل الحكومة نفسها وبين الحكومة وحكومات أخرى. وبالنسبة لقضايا حساسة، فإن وزارتي الدفاع والخارجية مثلاً قد تطرحان وجهات نظر مختلفة لمناقشتها من خلال الإعلام. كما أن الرئاسة تستخدم الإعلام لتعبئة الدعم لسياستها وبرامجها عندما تحتاج لدعم في الكونغرس، ويفعل الكونغرس الشيء نفسه. كما أن المواقف بين الأحزاب تحدد في وسائل الإعلام وليس فقط من خلال المنابر الخاصة. كما أن الإعلام قد حل محل الكثير من المؤسسات التقليدية كوسيلة رئيسية لتوعية الناخب حول القضايا والأفكار والسياسات[1].

إن أصحاب وسائل الإعلام يتوقعون أفضال الدولة، في حين أن المراسلين يخشون أن يغضبوا أفضل مصادر لديهم. إن وسائل الإعلام حريصة على المصلحة العامة.

ستثير تساؤل حول إخفاقات الـ «سي. آي. إي» والـ «أف. بي. إي» والوكالة الفيدرالية للطيران المدني ومركز مكافحة الأمراض لكي تتمكن هذه الوكالات من تحسين أدائها وحمايتنا على نحو أفضل. غير أن الفرق الحاكمة (على غرار الكونغرس) لم تتحمل عناء معاينة الأمور عن كثب. كما أنه باسم المصلحة العامة، ينبغي على وسائل الإعلام أن تحيطنا علماً بكل ما يهدد حالياً أمننا، بما في ذلك عناصر اليمين المتطرف التي تهاجم العيادات التي تجري عمليات الإجهاض والتي

(1) الذات والآخر في الإعلام المعاصر، مرجع سابق، ص224.

يبدو أنها منشأ الإرهاب الإحيائي. لكن صحافيي التلفزيون يسخرون من هذا الأمر.. وكذلك ينبغي على وسائل الإعلام أن تسلّط أضواءها على التعدّي الحكومي على الحريات المدنية بدلاً من التقليل من أهميتها[1].

يقول الناقد الأمريكي مايكل بارينتي في كتابه (اختراع أو فبركة الحقيقة): «إن تحديد من هو إرهابي ومن ليس إرهابياً أمر تقرره سياسة وسيلة الإعلام التي تصفه. فحرب العصابات الشعبية تصفها وسائل الإعلام الغربية عادة بالإرهابية، بينما يوصف المرتزقة في أنغولا ونيكاراغوا وموزمبيق ممن توظّفهم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (سي. آي. أي) بالثوار. وهذه الوسائل تنعت عمل الدولة اليسارية التي تدافع عن نفسها في وجه هؤلاء «الثوار» بإرهاب الدولة، ولا تستعمل هذا النعت لما تقوم به الولايات المتحدة من كبت للحركات التحررية الشعبية في العديد من الدول.

ليس ثمة وزارة خاصة بالدعاية في أمريكا. ولكن الدعاية موجودة بقوة في البيت الأبيض وفي الكونغرس وفي عدد غير قليل من الوزارات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية. والإدارة الأمريكية تستخدم نحو 5 آلاف إعلامي وأكثر من 15 ألف اختصاصي في العلاقات العامة.

في اليوم الذي جرت فيه الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمي والبنتاغون، وفي السنوات التي تلتها، قدّمت شبكات التلفزة عبر شاشاتها مجموعة من أهل الفكر في مجال الأمن القومي، منتمين

---

(1) ادمون غريب، مرجع سابق.

إلى اليمين واليمين المتطرف، الذين قاموا بشرح الأحداث المروّعة. واستقبلت شبكة «فوكس» السفيرة السابقة إلى الأمم المتحدة والمدافعة عن إدارة ريغن، جاين كيركباتريك، التي سرعان ما عرفت لنسخةٍ مبسّطة لصراع الحضارات كما يراه هنتنغتون، معتبرة أننا في حرب مع الإسلام. وهي المفكرة ذات المصداقية الأضعف بين أبناء جيلها، مضفية بالطبع طابع الشرعية على تحالفات إدارة ريغن مع الفاشيين والإرهابيين غير المرغوب بهم باعتبارهم حاجة ماسّة إلى هزم التوتاليتارية السوفياتية[1].

وفي فترة بعد الظهر من الحادي عشر من أيلول 2001، ظهر أرييل شارون على شاشة التلفزة للإعراب عن أسفه، وتقديم تعازيه، وتقديم الدعم الإسرائيلي للحرب على الإرهاب، وهو الذي تورّط في جرائم الحرب في مخيّمي صبرا وشاتيلا في عام 1982. ودعا إلى تشكيل ائتلافٍ ضد الإرهاب من شأنه الكشف عن وجوه الاختلاف بين العالم الحر والإرهاب، موضحاً الخير من الشر، والإنسانية من التعطش للدماء، والعالم الحر من قوى الظلام التي تحاول تدمير الحرية وطريقة حياتنا.

واللافت في الأمر أن إدارة بوش تبنّت التعابير نفسها، وقد هاجم بوش «الشر» الكامن في الإرهابيين، مستخدماً الكلمة خمس مرات في

(1) التربية الخاطئة للغرب، مقالات جو كينشلوا وشيرلي شتاينبرغ، دار الساقي، بيروت 2006، ص50.

خطابه الأول حول اعتداءات 11 أيلول 2001 الإرهابية، مصوّراً النزاع تكراراً على أنه حرب بين الخير والشر، وأن الولايات المتحدة «سوف تستأصل الشرّ من العالم، وتقضي على فاعلي الشر وتلاحقهم، أولئك الناس الهمجيّون. ودأبت إدارة بوش التي تعتمد الدلالات التأكيدية والمفردات الرديئة على المجازات التعبيرية لرعاة البقر، داعيةً إلى تسليم بن لادن «حياً أو ميتاً»، وواصفة الحملة بـ «الصليبية»، إلى أن حُذّر بوش من أن هذه التعابير تحمل في طيّاتها معانٍ تاريخية بالية[1].

مرت الصورة العربية بمراحل متعددة كانت في غالبيتها سلبية. لقد كان العرب فيها عرضة للسخرية والاحتقار من جانب وسائل الإعلام الأمريكية والكثير من البرامج والتلفزيون والأفلام والكاريكاتورات والرسوم المتحركة وبعض الكتب والمجلات.

لقد ارتبطت الصورة إلى حد كبير بالصراع العربي ـ الإسرائيلي. فقبل بدء الصراع كانت النظرة إلى العربي عموماً هي صورة الراعي أو الفارس البدوي النبيل والمحب للنساء، وربما كان فيلم «الشيخ الذي قام ببطولته رودلفو فالنتينو بطل السينما الصامتة في أوائل هذا القرن والذي ظهرت فيه صور الحريم والأهرامات والنساء الراقصات والصحراء والجمال هو الصورة التي كانت سائدة عن العرب في مطلع هذا القرن.

ولكن بعد حرب 1948 برزت صورة المتعصب المعادي لليهود

(1) المرجع السابق، ص51.

والمتخلف والماكر والكاذب والكسول والمخادع والنهم جنسياً والمحب للعنف، وبعد حرب 1967 خرجت صورة العربي الهارب الجبان وصورة الزعماء الفاسدين الغوغائيين المتهورين والمتعصبين والمعادين لإسرائيل وللغرب. وبعد حرب 1973 خرجت صورة الشيخ العربي الذي يسيطر على نفط العالم ويحاول أن يقطع الشريان الاقتصادي الحيوي للولايات المتحدة من خلال قطع النفط عنها[1].

(1) إدمون غريب، مرجع سابق.

بين صورة الإرهابي أميركياً والضحية عربياً[1]

لم يعد هناك من مجال للنقاش في مدى اتساع نطاق العولمة الإعلامية. فقد باتت هذه المسألة من المسلمات الراسخة في الأدبيات على تنوعها. لكن ما لا بد من الإشارة إليه في بداية هذا البحث يتمثل في أمرين هما:

الأول: أن العولمة الإعلامية لم تبدأ مع الثورة الرقمية ولا مع ما سبقها من اختراع الكومبيوتر قبل أكثر من ثلاثة عقود. إن من السهولة لأي إنسان أن يلحظ أن لكل عصر عولمته تبعاً لمدى تقدمه. لكن وتيرة هذا المنحى تضاعفت مع انطلاق الثورة الصناعية، عندما اشتغل الإنسان على تطوير أدواته الإعلامية. ولعل الاكتشافات التي وصفت في حينه بأنها حديثة كالتلغراف والبث اللاسلكي وغيرهما والتي سرعان ما استعملتها وكالات الأنباء والصحف، كانت عبارة عن شكل من أشكال العولمة المحدودة. وقد تعزز هذا المنحى مع اختراع الراديو والتلفزيون

(1) زهير هواري، السفير 19/ 5/ 2005 و20/ 8/ 2005.

والفضائيات لاحقاً. إذن لم تنشأ الثورة الرقمية من فراغ، إذ كانت مقدماتها تمخر البحار وتحفر الطرقات وصولاً إلى جوب الفضاء. حدث ذلك منذ قرون وعقود وصولاً إلى اللحظة الراهنة.

الثاني: أن العولمة بشتى أنواعها لا تطرح أمامنا خيارات الرفض والقبول، الرفض وبالتالي التقوقع داخل حدودنا الوطنية أو الإقليمية على اليابسة أو الماء والعيش بمعزل عنها. إذ إن مثل هذا الاحتمال كان متعذراً مع نهاية العصور الوسطى وبات أشد استحالة في هذا العصر، أو القبول السلبي بها كقدر لا راد لأحكامه كونها عالماً من دون حدود. المقصود هنا إعفاء أنفسنا، وترك المهمة على سوانا في التفاعل مع هذا المعطى التكنولوجي العصري، بينما تتحدد وظيفتنا فقط في استخدامه ورفض السياق الذي جاء به إلى دواخلنا المادية والروحية. إن رفض هذه العولمة سلباً بات متعذراً اليوم حتى على القبائل الساكنة في الصحاري البعيدة، فكيف بدول وشعوب مرغمة على البحث عن موقع لها تحت شمس عصر لم يعد فيه الكثير من فضيلة الرحمة جراء حروب المنافسة المحتدمة. كذلك لم يعد من الجائز الوقوف مكتوفي الأيدي عن المساهمة في عالم المعرفة الذي يطرق على آذاننا ومنازلنا صبح مساء. يدعونا بإلحاح إلى الدخول في العصر ولعب الدور المفترض بنا القيام به في مضمار التقدم الإنساني، بدلاً من الاكتفاء بالاستهلاك الذي لا يقدم، بل يؤخر في سعينا نحو إيجاد موطىء قدم لنا. إن السؤال المنهجي الذي يلح علينا دوماً يتعلق بكيفية الدخول في العولمة واستحضار مصالحنا المباشرة والاستراتيجية ومخزوننا الثقافي في رحابها الأوسع.

إن الثورة الرقمية وإن كانت تعطف على ما سبق وترسم ما قد يلي من تطورات مفتوحة على المزيد من الابتكارات، تعيد تكريس ما سبق لجهة المركزية أو الهيمنة في جانب والتبعية في جانب آخر. ومثل هذا الأمر ليس بجديد على الفكر الإنساني عموماً وأفكار نهضويينا خصوصاً. لقد شهدت البشرية نقاشاً خصباً وغنياً حول مسائل التقدم والتخلّف، التحرر والسيطرة، الاشتراكية ورأس المال، المعاصرة والتراث، الدين والعلم، وغيرها من ثنائيات طرحت إشكالياتها على مفكرينا وكتابنا وروادنا. ولا شك في أن حبراً غزيراً قد سال كما سفحت أنهار من الدماء، ولا نزعم في هذا المفصل من تاريخ منطقتنا أننا تقدمنا كثيراً نحو تحقيق أهدافنا، بل يمكن للبعض أن يجزم أننا نعود إلى الوراء بأكثر مما نقترب من تحديد مسارات نهوضنا ونهضتنا.

يهدف هذا البحث إلى تبيان غياب صوت الإنسان العربي والاقتصار على الصورة التي تنشرها الفضائيات عنه، سواء كانت هذه الفضائيات عربية أو أجنبية. وحتى لا يبدو من التقديم أن هناك تراجيديا عربية مخصوصة تتشابه في نهايتها مع مصير البطل اليوناني، لا بد من قياس مدى التطور الذي طرأ على مدى وصول هذا الصوت، خصوصاً في غضون العقد الأخير، وتحديداً منذ عقد التسعينيات. إن الإنجازات التي تحققت يجب ألا تدفع بنا إلى الانبهار، وبالتالي النوم على حرير هذا المنجز وتغييب إعمال سلاح النقد في الإعلام الذي يطالعنا في كل لحظة من محطات «الجزيرة» و«العربية» وعشرات بل مئات الفضائيات بمنوعاتها.

الأمية وعصر الفضاء

دخل العلم العربي الألفية الثالثة مع ما يرافقها من عصر الفضاء بأعلى نسبة من الأعطاب بالقياس إلى القارات والتكتلات الدولية. يمكن الجزم أن هذا الكم من السلبيات يدخل في إطار ما أسميناه غياب الصوت العربي مع وفرة الفضائيات الناطقة بالعربية، خصوصاً أن عالم اليوم يستمع جيداً للتكتلات الكبرى ذات المصالح والأهداف المحددة.

على المستوى السياسي نلحظ جميعاً ما آلت إليه أوضاع جامعة الدول العربية كمنظمة إقليمية عربية نشأت في أربعينيات القرن الماضي. لقد تلاشى تباعاً دورها على صعيد العلاقات البينية وعلى مستوى العلاقات الدولية معاً، وهو أمر بالغ الخطورة على مصير المنطقة لا سيما في الزمن الذي تحتل فيه الولايات المتحدة الأمريكية العراق، وتتضاعف عدوانية الاحتلال الاستيطاني في فلسطين، فضلاً عن الاهتزازات العميقة التي يعانيها العديد من الدول العربية. يجب أن نلاحظ في الوقت ذاته أن البدائل التي تم استنساخها في حقب مختلفة لم تكن أفضل مآلاً من الجامعة العربية. أقصد هنا الاتحاد المغاربي ومجلس التعاون الخليجي وسواهما من الصيغ التي بادت أو تراجعت تأثيراتها تباعاً.

إن مجمل أوضاع دول المنطقة لا تبعث على أي نوع من أنواع الاطمئنان، بل العكس هو الصحيح. إنها تثير من القلق ما ينذر بالمزيد من المعضلات تحت تأثير العجز عن علاج المشكلات. إن المذبحة

التي يشهدها العراق لا تطلق أفقاً استقلالياً تحررياً، بقدر ما تعبر عن ديناميات تجمع نذر الحرب الأهلية على قاعدة إعطاب الماضي واختناقات الحاضر في الداخل والمحيط. أما في فلسطين فالاحتلال الصهيوني مستنداً إلى هذا التلاشي في عناصر القوة العربية، يعزز من ركائز كيانه العنصري. بينما الشعب الفلسطيني يعاني مرارة الحصار المزدوج: العربي والإسرائيلي. على أن ما يجب الانتباه إليه أن أوضاع العراق وفلسطين لا تختصر المشهد العربي. إذ من السهولة بمكان ملاحظة أشكال من الحروب الأهلية الباردة والساخنة، الظاهرة والمستترة في ثمانية أقطار عربية على الأقل هي: السودان والصومال والجزائر وموريتانيا ولبنان والسعودية واليمن وجيبوتي. أي أن هناك أكثر من ثلث عدد الدول العربية في هذه الوضعية. أما حالات الطوارىء المفروضة فتعاني من وطأتها ستة أقطار على الأقل هي: سوريا، السودان، الصومال، مصر، الجزائر والبحرين. هذا من دون الإشارة إلى ممارسات السلطات وعالم الاستخبارات وما تفرضه من قيود على الحياة السياسية والمجتمع ووسائل الإعلام.

يترافق مثل هذا الوضع مع تراجع معدلات التنمية. وهنا سأعود إلى التقرير الذي أصدرته المنظمة الدولية للتنمية البشرية بعنوان «تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2002». وهو التقرير الذي أدى صدوره إلى دوي على صعيد المنطقة وخارجها أيضاً. يحدد التقرير عدد الأميين من العرب البالغين بحوالي 65 مليون نسمة، ثلثاهما من النساء. هذا التحدي ليس من المتوقع زواله في غضون حقبة منظورة، إذ هناك

حوالي عشرة ملايين طفل تتراوح أعمارهم بين سن 6 ـ 15 سنة غير ملتحقين بالمدارس. وعليه يتوقع أن يرتفع عدد الأميين في منطقتنا في العام 2015 بنسبة أربعين بالمئة. أما البطالة في البلدان العربية فتبلغ وسطياً 15٪ وهذه النسبة من أعلى النسب في العالم. العودة إلى إحصاءات الأميّة مردها أهمية المعرفة في عصر العولمة. فإذا كانت المنطقة بحاجة إلى نمو بنسبة 5٪ سنوياً لاستيعاب العاطلين عن العمل، فإن دراسة شملت 194 بلداً أثبتت أن رأس المال البشري والاجتماعي يساهم بما لا يقل عن 64٪ من الإنتاج بينما يبقى 36٪ لرأس المال المادي والطبيعي. إذن لامتصاص بطالة تقدر بحوالي عشرين مليون نسمة، لا بدّ من اقتصاد المعرفة طالما أن الأنماط التقليدية من الاقتصاد بات من المتعذر عليها الصمود أمام المنافسات المحتدمة والتكتلات الكبرى. المفارقة أن المنطقة العربية تطل على المستقبل دون عدة أو بالقليل منها في أحسن الأحوال، فمع حلول العام 2010 يجب تأمين فرص عمل لحوالي خمسين مليون ملتحق جديد بقوة العمل، بما يتطلب استحداث ما لا يقل عن خمسة ملايين فرصة عمل سنوياً.

يبدو بعد قراءة التقرير كأن الوضع مُطْبِق من الجوانب كافة. ما يعنينا هو ما يتعلق بالمعرفة. يغطي التقرير 22 دولة عربية وتضم هذه حوالي 280 مليون نسمة، أي ما يعادل عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية. ويتوقع أن يصل السكان العرب في العام 2020 إلى ما يتراوح بين 410 ـ 95 مليون نسمة تبعاً لطرائق القياس واستمرار مستوى التزايد السكاني بالوتائر الحالية أو عدمه. المهم هو أن دخل العدد القائم من السكان

العرب راهناً بما في ذلك من مصدر بيع النفط لا يصل إلى ما هي عليه دولة أوروبية متوسطة النمو هي إسبانيا، أي أن عدداً من الناس يبلغ حوالي خُمس السكان العرب ومن دون موارد طبيعية يحصل على ما يوازي ما تحصل عليه المنطقة العربية. وبالعودة إلى مستوى الإنفاق على التعليم، تختلف نسبة الأمية بين دولة عربية وأخرى كما أنها تختلف بين الجنسين وبين المدن والأرياف. وقد حدث نوع من التراجع عن الأرقام التي عرفها العالم العربي في الأعوام بين 1980 ـ 1985. وبالمقارنة مع البلدان الصناعية انخفض الإنفاق على التعليم لكل فرد من الدول العربية عن عشرين بالمئة عما كانت تنفقه البلدان الصناعية في منتصف التسعينيات (ص50)، يضاف إلى ذلك تراجع الكفاءة الداخلية للتعليم في العالم العربي وارتفاع نسب الرسوب وإعادة الصفوف والتسرّب وتراجع مستوى جودة التعليم وغلبة سمات تدني التحصيل المعرفي وضعف القدرات التحليلية والابتكارية واضطراد التدهور. إن استمرار الوضع الراهن سيزيد الأزمة سوءاً في وقت أصبح فيه الإسراع إلى اكتساب المعرفة وتكوين المهارات الإنسانية شرطين ضروريين لتحقيق التقدم.

يمكن الاستطراد في المزيد من الأقلام الواردة في التقرير، لكن ما يعنينا أمران هما: الفجوة الرقمية والإعلام.

يشير التقرير إلى أن الإقليم العربي يأتي ضمن الشرائح الدنيا للتوزيعات الإحصائية لعدد الهواتف الثابتة والحواسيب الشخصية ومواقع الإنترنت ومستخدميها، منسوبة إلى إجمالي عدد السكان. فإذا كان عدد

السكان العرب هو 5٪ من سكان العالم فإن نسبة مستخدمي شبكة الإنترنت لا تزيد عن 5 (ص72). كل هذا دون الدخول في تدقيقات إضافية لتبيان اللاتوازن في توزيعها بين موريتانيا ودبي أو بين الكويت والصومال.

أما على صعيد الإعلام فيلحظ التقرير استمرار سيطرة الدولة على الإعلام المرئي والمسموع الذي يصل إلى قطاعات واسعة من المجتمع، ويسجل التقرير بعض خطوات تعزيز حرية التعبير. لكنه تعزيز لم يغير من المعادلة التي أظهرت بعض ملامحها مؤسسة فريدوم هاوس والتي أكدت عدم وجود أي إعلام عربي حر فعلاً، في حين أن ثلاث دول عربية فقط صنفت على أنها تتمتع بإعلام حر جزئي. بينما بقية الدول صنفت وسائل الإعلام فيها بأنها غير حرة. ورغم هذا الحيز الضئيل تظل هناك علامات استفهام كبرى حول مقدار الحرية في الدول الثلاث التي يتمتع إعلامها بحرية جزئية كما يذكر التقرير.

زلزال أيلول / سبتمبر

يتناول التقرير الذي أشرنا إليه مسارات وقضايا متشعبة. بالطبع الكل يعرف أنه صدر بعد زلزال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وتم استعمال بعض ما ورد فيه في أقوال المسؤولين الأمريكيين للدلالة على هشاشة الأوضاع العربية وللدعوة إلى «الشرق الأوسط الكبير» و«الديمقراطية»... وتبريراً لغزو العراق وزعزعة أوضاع المنطقة. بالتأكيد لم يكن الهجوم الكبير بحاجة إلى ما ورد في التقرير لتبرير

الاستراتيجية الأمريكية ـ البريطانية، لكنه دخل ضمن الأداء العام لتسويغ الاحتلال والتمزيق وإعادة التشكيل بطبيعة الحال.

المؤكد أن هجوم الحادي عشر من أيلول لم يكن هو المسؤول مباشرة عن إطلاق المارد الأمريكي نحو بناء امبراطوريته. كانت عملية بناء المداميك لهذه الامبراطورية المتأخرة عن سابقاتها قروناً متلاحقة منذ عقود وعقود. هناك خلافات بين كبار محللي السياسة الأمريكية حول زمنية الشروع في هذا المنحى الذي كانت ذروته وصول المحافظين الجدد إلى السلطة مع دخول الرئيس بوش الابن البيت الأبيض. كان هناك نهر يحفر مجراه بهدوء طوال السنوات الماضية وصولاً إلى لحظة الهجوم المؤاتية. مثلاً محمد حسنين هيكل يرى أنه منذ أربعة عقود راحت الكفة تميل لصالح علاقة رأس المال بالسياسة وصارت الشركات الكبرى هي التي تصوغ السياسات الكبرى للامبراطورية... ومعها أصبحت الوسائل الأساسية المعتمدة في التطويع والإخضاع هي الأقمار الصناعية والتلفزة وشبكات الإنترنت والكومبيوتر.

كان وراء كواليس هذه الوسائط المستحدثة بالطبع شركات النفط والأسلحة والتكنولوجيا المدنية والرساميل المدوّلة وشركات النقل والتأمين والإلكترونيات ومراكز الأبحاث... وتمركز رأس المال في الإعلام وبلوغه حدوداً احتكارية جلية... كل هذا بعض مما يملكه مجمع أمريكي لم يعد بإمكانه البقاء مكتوف اليدين موافقاً على استمرار إدارة العالم بالأشكال السابقة الموروثة.

والمعروف أن احتلال العراق بعد أفغانستان كان وجهه الآخر

استجابة لرغبة الناخب الأمريكي، من جانب الإدارة التي لا شك في أن الاعتبارات الانتخابية ضمنها. بالتأكيد كان لدى هذا الناخب شعور بالطعنة التي أصابته في الصميم جراء الهجوم الذي تعرض له، لكن قرار غزو العراق كان قراراً متخذاً وجد فرصته للتنفيذ بعد الهجوم، ما يعني أن لا علاقة مباشرة بين الاحتلال ومحاولة رد الاعتبارات الوطنية، ولا بطابع دكتاتورية صدام حسين ولا بملكيته لأسلحة الدمار الشامل. حتى الصلات بتنظيم القاعدة وخلاياها كانت مجرد معلومات جزئية ومضللة ولا تستدعي حرباً احتلالية. لم يعد الأمر، كما يرى هيكل، أن يكون استجابة لمطالب امبراطورية، أو «عسكرة العالم» كضرورة للتعبير عن اندماج جامح. ترابط هذا المنحى الذي يطيح بالمعادلات الدولية مع قلب وتقويض برامج الديمقراطية الاجتماعية والضمانات في الداخل، واهتمامات الرأي العام بالتأثيرات القاسية للنزعة النيوليبرالية على حياة الفئات الفقيرة وعلى بيئة الإنسان داخل أمريكا وخارجها، وعلى كل نظام التأمينات الصحية وعملية الضبط المحكم للمجتمع. إذن تلاقى عاملان، خارجي يمثله الهجوم وداخلي معبَّراً عنه بالتحولات، لتبرير الغزو. وتبعاً لذلك تمت الإطاحة بالقانون الدولي وعلاقات الأمم والشعوب وأطرها المعروفة، كما كان العالم قد خبرها خلال وبعد الحرب الباردة.

خرجت الولايات المتحدة نحو حروبها الوقائية، بعد أن وجدت نفسها للمرة الأولى في تاريخها تدخل في صميم التهديد المباشر لمؤسساتها وسكانها على أرضها، وهو ما لم يحدث سابقاً منذ أن

خرجت من مبدأ مونرو وعزلتها الدولية. كانت مقدمات الحرب قد حفرت عميقاً من خلال مسارات الانحراف الأحادي الذي تعزز مع سوق الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي. واكبت العهود الأمريكية تباعاً هذا الانحراف، وتعزز ذلك خلال عهد بيل كلينتون وتأكد مع تسلم جورج دبليو بوش الرئاسة. وقد تراكمت عوامل الأحادية في السنوات السابقة على ما يسمى الحرب على الإرهاب. فقد رفضت الولايات المتحدة أولاً التدخل في البوسنة وأصرّت على استمرار الحرائق في قلب أوروبا، وتمنعت عن التصديق على حظر التجارب النووية والسماح لشركاتها بالاستثمار في الدول المارقة (العراق، إيران، ليبيا، سورية، كوريا الشمالية). وانسحبت من معاهدة الصواريخ البالستية وامتنعت عن التوقيع على بروتوكولات كيوتو لحماية البيئة وغيرها وغيرها... لذلك كان هيكل يتحدث عن عقود أربعة شكلت أحجار الأساس في بناء الامبراطورية.

الوجه الآخر لهذه الحرب والإرهاب الدولتي، كان في صميم الهجمات التي شنتها «القاعدة» بقيادة أسامة بن لادن، وهي منظمة كما هو معلوم تغذت على حليب الصدر الأمريكي منذ تأسيسها. تولت الولايات المتحدة ومخابراتها المركزية (سي آي أي) والأنظمة العربية الموالية لها إرسال المجموعات الأصولية الإسلامية للقتال ضد «العدو الملحد» في أفغانستان، وهو ما ساعد على هزيمة وانسحاب الاتحاد السوفياتي منها. وعندما انتهت هذه الحرب والمجموعات المذكورة من عملها «الجهادي»، بحثت هذه المجموعات «الجهادية» عن حروب أو

اصطنعت حروباً في الدول التي انطلقت منها أو سواها في ظل مجموعة من الأنظمة تعاني من أزمات مركبة على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والعقائدية والإثنية. يجب أن نتنبّه هنا إلى أنه في الوقت ذاته كانت تتكامل أصوليتان كانت بينهما علاقة مكينة: أصولية أمريكية وأصولية إسلامية لا تقتصر على المجموعات المسلحة، بل تشمل دولاً معروفة تأسست على ركائز تقليدية واضحة للعيان ولا تحتاج لاكتشاف. والحقيقة أن أمريكا واحدة من أكثر الحضارات الدينية الأصولية تطرفاً في العالم، ليس على مستوى الدولة، بل على صعيد الثقافة الشعبية، هذا عدا عن علاقاتها القديمة مع أكثر الدول والمجموعات الأصولية في العالم.

لا يقتصر ما حدث في الحادي عشر من أيلول على «قطيعة استراتيجية» على حد وصف فرنسوا هايزبور، بل يمثل في الواقع جملة تقاطعات وقطيعات أدت إلى الانفجار الذي ما نزال نعيش تحت ضغط وقائعه رغم مرور أكثر من أربع سنوات عليه. كان على «القاعدة» أن تنتهي من عصر العمليات العسكرية في الأطراف الدولية، لذلك خططت لتجاوز إرهابها التقليدي ممهدة لذلك عبر تفعيل وشحن إيديولوجيتها بالمزيد من النزعات الميتافيزيقية التي لا تنتمي إلى عالم البشر، وحتى إلى «المقدس السياسي» كما درجت عليه المجموعات المناضلة. إلا أن «القاعدة» و«طالبان» وأفغانستان لا تملك رغم عنف الهجوم على نيويورك ودلالاته ونتائجه أن تضع العالم على خط الحرب المفتوحة... كان التقاطع الانفجاري الآخر هو استراتيجي أمريكي

بالضرورة، وكان على المحافظين الجدد واجب القيام بما يكمل صورة المشهد الدولي ويتكامل أو يتماثل مع نظرية انقسام العالم إلى «فسطاطين». الوجه الذي اعتمدته أمريكا لهذه العملية كان انقسام العالم إلى محورين هما «محور الخير» الأمريكي و«محور الشر» المعادي لديمقراطيتها، وقد ترافق ذلك مع مطلقات أو رؤى شمولية في لحظة التصادم القصوى.

لكن، يجب أن نتذكر دوماً أن الولايات المتحدة التي تمتلك نظاماً ومنظومات تكاد تختزل العقل البشري في لحظته الراهنة، تملك في الوقت ذاته الجرأة أو التهور على اقتحام واختراق السدود والخصوصيات وفرض جدول الاهتمام الذي ترغب على الرأي العام والمجتمع الدولي، حتى لو أدى مثل هذا التوجه إلى نسف دول والإضرار بمصالح قوى إقليمية كبرى يعرف «الأخ الأكبر» الأمريكي أنها ستقف حائلاً دون الانسياق في سياساته أو الموافقة عليها.

الإعلام الأمريكي

لم يكن استهداف أفغانستان أولاً والعراق ثانياً مرده إدارة بن لادن لحربه من الأولى، وتشكيل صدام حسين لديكتاتوريته في الثانية، بل لأن المناطق العربية والإسلامية تشكل حالة نموذجية من الضعف المؤاتي لبناء الإمبراطورية الأمريكية. يمكن المقارنة بين هذه المناطق وسواها إزاء الولايات المتحدة ليتبين مدى هزالها واعتمادها على القوة الأمنية والاقتصادية والتقنية لأمريكا. ينبغي أن نضيف هنا الجوانب

الاقتصادية والاستراتيجية للولايات المتحدة لتتكامل الصورة. لكن تسويغ الحرب لا يمكن أن ينطلق من الضعف الذي يعانيه الطرف المستهدَف (بفتح الدال) وشبكة المصالح التي يضمرها الطرف المستهدف (بالكسر). هنا تدخل الأيديولوجيا الأمريكية في النظر إلى العرب والمسلمين. هذه النظرة سابقة لظاهرة بن لادن ومجموعات الإسلام الأصولي ولصورة صدام حسين كـ «هتلر القرن الحادي والعشرين». فإلى جانب كتاب البروفسور الراحل ادوارد سعيد عن الاستشراق، هناك عشرات المصادر والدراسات التي انشغلت على مدى سنوات في تحليل نظرة الأمريكيين للعرب وسكان منطقة الشرق الأوسط (بما في ذلك تركيا وإيران).

إن صورة العربي بدأت بالتكوّن لدى الغرب مع الحروب الصليبية وحرب استعادة إسبانيا، أي أن هذه الصورة انتقلت لاحقاً إلى كتب الأدب والرواية بعد أن عاشت طويلاً في الوجدان الشعبي كما تسربت إليه من الكنائس الأوروبية. يمكن هنا العودة إلى الكثير من المصادر التي تتقاطع في النظرة إلى العرب والمسلمين والتي توافقت حتى اللحظة على تقديمهم على أنهم «شعب غني وفي الوقت نفسه متخلف، بدائي، غير متحضر، يسيء معاملة المرأة، مولع بالحروب، متعطش للدماء، غدار وماكر وقوي وشديد وبربري وقاس و...». لا يعني ذلك أن هذه النظرة شاملة ويحملها جميع الأمريكيين أو حتى معظمهم، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود فكرة ثابتة في عقول الأمريكيين، صورة عامة مشوهة وغير صحيحة وإن كانت غامضة، وهي سلبية وتتاخم العنصرية أحياناً.

إذن هناك ما يمكن أن يوسم بأنه جذور عميقة في نمطية صورة العربي ـ المسلم في وسائل الإعلام الأمريكية ولدى قطاعات واسعة من الرأي العام. هذه النمطية حاضرة أيضاً في المدارس والجامعات ومراكز الأبحاث، كما هي موجودة في مؤلفات ومنشورات كثيرة. هذه النمطية حاول سعيد الكشف عن جذورها بما يقود دوماً إلى التعبير عن الرؤية المركزية الأوروبية ـ الأمريكية للشرق العربي، وهي الرؤية التي تنسحب بالضرورة على الصراع العربي ـ الإسرائيلي. صورة ذات ماض سحيق عندما اندلعت المنافسة بين الإسلام والمسيحية وما تخللها من صراع عرفته علاقاتهما في العصور الوسطى. وقد تعززت هذه الصورة في مرحلة الاستعمار ومشاريع السيطرة الأوروبية الغربية على المنطقة، عندما كانت تبريرات الغزو تشابه الكثير من مصطلحات اليوم على صعد مقولات الحرية والتقدّم والديمقراطية والمساعدة على قيام أنظمة تحترم إرادة الشعوب وفتح الأبواب أمام التجارة الدولية وإطلاق التقدم من عقاله، والذي يحول بينه وبين التحقق أنظمة طالما تمتعت بأوثق العلاقات مع السياسة والإدارات الأمريكية المتعاقبة. إن العودة إلى إدوارد سعيد هنا تقدم فيضاً من الأدلّة على انغراس هذه العنصرية عميقاً في مسام أجزاء كبرى من المجتمع ودون اقتصارها على شريحة محددة أو طبقة أو مؤسسة تابعة لهذه الدولة أو تلك الشركة.

(. . .) جاءت أحداث 11 أيلول/ سبتمبر لتعيد إيقاظ هذه النظرة التي وجدت قوالب ذهنية متعددة لها. على أن ما يجب التوقف عنده هو ذاك التغير الذي يمكن لحظه ببطء في تحولات هذه النظرة. فإذا

كان العرب في التنميط الغربي خلال قرنين ونصف القرن هم «كسالى»، قذرون، جهلة، عقولهم خرافية، أغبياء، غير عقلانيين، قساة عنيفون، يسيئون معاملة نسائهم، يكرهون المسيحية، مرتبطون بتجارة الرقيق. فقد أضيف إلى هذا كله وتقدم عليه الآن أنهم إرهابيون ولا علاقة لهم بالحضارة الحديثة. وقد وصل تأثير مثل هذا الأمر ببعض أبناء العرب الأمريكيين إلى نكران ميراثهم الثقافي وأصولهم الإثنية وثقافتهم محاولين تقديم أنفسهم كأمريكيين جنوبيين أو هنود حتى أو... وبرغم طابع الاستمرار والثبات في هذه النظرة إلا أنها في الوقت ذاته ممكنة النقض والتعديل والتغير بطبيعة الحال.

لقد تضافرت جهود مؤسسات كثيرة في الوصول بهذه الصورة النمطية إلى هذه المرحلة. فإلى جانب الصحافة هناك المناهج الدراسية في الثانويات والجامعات. لكن الدور الرئيسي يظل مقتطعاً للسينما والأشرطة التلفزيونية في بلوغ هذ الحالة. هناك العديد من الأفلام التي أنتجتها هوليوود، وصلت إلى حدود الربط الصريح بين الشعائر الدينية الإسلامية والأعمال الإرهابية، وبما يتجاوز شخصية العربي المنمطة، باعتبارها بمثابة استكمال لها. وقد استهدفت بعض الأفلام تصوير الشعائر الدينية الإسلامية وكأنها فاتحة العمل الإرهابي الذي يصبح بدوره جزءاً من الشعائر ذاتها.

مثلاً يعتبر فيلم «الحصار» تلميحاً بما يشبه التصريح أن الإسلام هو دين إرهابي، ويترك سياق الفيلم إنطباعاً لدى المشاهد أن العمل الشيطاني هو جزء من معتقدات الإسلام، وأن العمل الإرهابي يمكن أن

يحدث في أي لحظة مع بقاء هؤلاء الناس يعيشون في المجتمع الأمريكي. وهكذا يتمدد الخطر الإسلامي إلى عقر الدار الأمريكية في حال بقاء الكتلة السكانية المسلمة مقيمة داخله. يتغذى الفن السابع من الصورة النمطية للمواطن العربي ـ المسلم ويضاعفها باعتباره مهاناً ومذلاً دوماً. أكثر من ذلك ينظر إلى العرب كمسلمين فقط، ومعه يصبح المسلم هو عربي مهما كانت جنسيته، كما يصبح المسيحي العربي مسلماً ما دامت أصوله عربية. وهكذا تتداخل خرائط الانتساب لتشمل إيران وتركيا من جهة، ويتوسع الإسلام لينكر وجود أقليات داخل الدول الموصوفة به، رغم أن المسيحية الأصلية نشأت بين ظهرانيها وليس في الغرب. إن هذا التداخل وإن كان يعبر عن تسطيح فج للتباينات، يستهدف في جانب منه عدم إغراق المواطن الأمريكي في اكتشاف الفوارق السياسية والاجتماعية والثقافية لهذه الكتلة الكبرى من البشر.

مثل هذا الوضع تنفرد به الكتلة الإسلامية والعربية، وهذا ما دفع بالإعلامي جان ساغ إلى القول «إنني لم أرَ في حياتي مجموعة معينة تنفرد بتشويه صورتها على النحو الذي تعرّض له العرب. إن مثل هذا التشويه الذي انطبع في ذهن المواطن الأمريكي، والذي نجم عن توجيه رسائل إعلامية متلاحقة، يجعل من العرب مجموعة من الوحوش التي لا بأس من إبادتها والتخلص منها، لذلك لم يشعر المواطنون الأمريكيون بأي حرج عندما كان أطفال العراق يتعرضون لما تعرضوا له. على العكس كان منهم من دفع أموالاً لتحقيق ذلك». لكن المراسل التلفزيوني الأمريكي مايكل والس يعمم صورة العرب على كل

الأقليات: ليس العرب هم الفئة الوحيدة التي تتعرض لصورة مشوهة، وإنما تتعرض لها كل الأقليات في المجتمع الأمريكي».

ينبغي قراءة هذه الصورة النمطية للعربي ـ المسلم بالعلاقة القائمة بين الإعلام والإدارة والمؤسسات بما فيها التعليمية في الولايات المتحدة الأمريكية. بالطبع هناك تدرجات في رؤية العالم العربي بين الأساتذة وطلابهم في المراحل الثانوية مثلاً. فإذا كان العرب لدى الطلاب هم في العصور الوسطى مجرد برابرة أثاروا رعب أوروبا الشرقية ذات يوم ارتباطاً بالنزاع المسيحي ـ الإسلامي آنذاك الذي عرفته المرحلة، إلا أن الأساتذة كان بينهم من يتحدث عن الحضارة العظيمة للامبراطورية الإسلامية ودورها في نهضة العلوم والعمارة والفنون. لكن هذه النظرة تتأثر بالمجريات والتحولات السياسية. ويبدو الأساتذة والطلاب لدى مايكل سليمان مختلفين في رؤيتهم للفلسطينيين بين مرحلة وأخرى. فقد كان الفلسطينيون لدى الأساتذة مجرد لاجئين وشعب مطرود ومشتت ومنَسي وضحايا لقرارات خاطئة. بينما كان الفلسطينيون أنفسهم لدى الطلاق: عنيفين، إرهابيين، متعصبين، غير متعقلين و. . .». لكن هذه الصورة ستشهد تغيرات تبعاً للمواقف. فالعرب الذين كانوا مجرد موالين لموسكو ومحاولتها انتزاع نفط المنطقة من الولايات المتحدة وحلفائها، تغيرت صورتهم بعد مبادرات السادات بما فيها زيارته للقدس، إلا أن اغتياله والاشتعال الذي شهدته مرحلة الثمانينيات أعادا العرب إلى الموقع النمطي إياه، خصوصاً بعد «الكارثة» التي حلت بالمارينز في بيروت. في غضون التسعينيات ومع انعقاد مؤتمر السلام في مدريد

سيطرأ تعديل يتم بموجبه تحول العرب إلى دعاة سلام، وأصبح أبو عمار بطلاً شجاعاً مسالماً خلاف الصورة السابقة له كقائد لجماعات إرهابية. . . سيستمر هذا التأرجح حتى اندلاع الانتفاضة الثانية، ومع بلوغها مرحلة العنف وتنفيذ العمليات الاستشهادية ستعود إلى الفلسطيني صورة الإرهابي. في غضون هذه المرحلة سيتم تفعيل الصورة النمطية نظراً للهيمنة الصهيونية على وسائل الإعلام الغربية.

ترسخت لدى القارىء أو المشاهد الأمريكي خصوصاً، والغربي عموماً، إلى حدٍّ ما، الصورة النمطية للعرب تحت وطأة التشويه المتمادي. بالتأكيد لم يحدث ذلك عفو الخاطر، أو بفعل الصدفة المحض، كما أنه لا يعود إلى هيمنة صهيونية طاغية وإن كان لها وجودها بالطبع. الواقع إن الأمور أشد تشابكاً، ولها جذورها القديمة، كما لها سياقها في العلاقات الدبلوماسية وفي الوقائع السياسية مع المنطقة. لكنها لا تقتصر على هذه الجوانب، إذ إنها فعلاً تعبر عن منظومة متكاملة في رؤية الذات والغير في هذا المجتمع الواسع والمتنوع بما فيه من تداخلات ومصالح ومشارب فكرية متباينة. والحقيقة أنه لا يمكن إجمال المسائل تحت عبارات فضفاضة من مثل الرأي العام والجمهور والأكثرية العظمى وما إلى ذلك. . . إذ تظل هناك تباينات بين الفئات والشرائح تبعاً لموروثاتها الثقافية ودرجة تماسها وشبكات مصالحها.

الأهم أنه مع أحداث أيلول/ سبتمبر استعادت الصورة النمطية بريقها. فإذا كان العربي كما قدمته هوليوود هو شيخ نفطي كسول

وهمجي ومتعطش للجنس، فإنه بعد الهجوم على نيويورك أصبح إرهابياً بامتياز، يملك الاستعداد الكامل للفتك بالمدنيين الأبرياء، ويحاول امتلاك أسلحة بيولوجية وجرثومية ونووية لتدمير المدن بمن فيها وما فيها على رؤوس ساكنيها.

لنبدأ بصورة الأفغاني كما استقرت عليه صورته في الإعلام الأمريكي:

في مجلة «النيوزويك» في الفترة الممتدة بين تشرين الأول وأيار 2002، وفي أعدادها بالطبعتين العربية والإنكليزية على السواء، تتقمص صورة الأفغاني شخصية الهندي الأحمر كما قدمتها الشاشة الأمريكية طوال عقود وعقود، قبل أن يتم نقض هذه الرؤية بأفلام مضادة عملت على تصويب صورة الهندي الذي اكتسحت دياره حضارة صناعية لا تعبأ به أو بسواه أمام مصالحها ببناء سكك الحديد ومزارع القطن وغيرها. بهذا المعنى يصبح الأفغاني مجرد رجل خشن له ذقن كثيفة، ثيابه رثة، قذر، يركب على حصانه ويخوض في الماء مهاجماً العدو بمجموعات كبيرة تطلق صرخات الحرب مسلّحة برشاشات الكلاشينكوف. يتم هنا العطف على موروثين معاً أحدهما الموروث الأفغاني الذي تستعيده الصحيفة الأمريكية باعتباره امتداداً لتراث المغول وجنكيز خان الحربي.. والموروث الأمريكي الذي قدم الهنود الحمر بهذه الصفات تقريباً. ورغم اعترافها دوماً بشجاعتهم إلا أنها لم تحمهم من الانكسار والتبدد.. هناك ما يشبه السلالة الإرهابية التي تتناسل من التاريخ وتتواصل حتى اللحظة الراهنة. سلالات تتقابل في الحالين ولا مجال للمساومة بينهما بتاتاً.

تغيب ضمن هذه الرؤية ملابسات الدور الأمريكي في إسقاط أفغانستان لقمة سائغة في أيدي قوى متخلفة، وتغيب معها سوسيولوجيا المجتمع ومعضلاته وتشكيلاته العرقية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومع كل ذلك تتبخر إمكانية التدقيق في أسباب التخلف، ومدى محورية الدور الأمريكي في إيصال الأمور إلى هذا الوضع. بالمقابل تحضر صورة بن لادن وكلماته كشهادة إثبات على صحة الصورة النمطية مطعّمة هذه المرة بالمهارات التكنولوجية التي تلقتها مجموعاته من المعاهد التقنية الغربية ومعها مئات الملايين من الدولارات التي سبق وتم تجميعها ثمناً لبيع البترول وتقرر أن تنفق على الأتباع الجاهزين لـ «الشهادة» و«الجهاد» ما دام ذلك هو الطريق الوحيد للوصول إلى الجنة.

الإرهاب... الإرهاب... أو محور الشر. وفي مقارعته يقف الجندي الأمريكي مدججاً بالحداثة القاهرة تماماً كما كان الأبيض الأوروبي ـ الأمريكي في أفلام جون واين وغيره. صورتان نمطيتان تتصارعان في الجبال والمدن الأفغانية. صورة الأمريكي التي تم تكريسها سينمائياً في سلسلة أفلام «رامبو» المتلاحقة، وصورة الأفغاني الهمجي. عالمان يتصادمان دون هوادة ولا مجال للحوار بينهما... تباعاً ومع تدحرج كرة الحرب الوقائية وتوسع مسرحها، سيدخل العراق وافداً إلى مسرح التصوير، وضمن النمطية إياها، وسيضيع في حمى التعبئة كل ذلك المخزون الحضاري الذي مثلته بلاد ما بين الرافدين، بل ستستباح كنوزها وتراثها وتاريخها وتُنهب مكتباتها وتحرق وثائقها

وسجلاتها وتعاد إلى مرحلة ما قبل نشوء الدولة. في مثل هذا الأداء يصبح صدام حسين هو الشر بعينه وتفتح ملفاته الكثيرة. وعندما يرد منه ما يؤشر إلى الدور الأمريكي في تزويده بالأسلحة الكيميائية الأمريكية تتم مصادرة وحجب الوثائق عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي. الصورة الأفغانية تمددت إلى العراقي وقبلاً إلى الفلسطيني، الذي ينتمي إلى الجنس ذاته والحامل معه كل مخزونات الإرهاب، والجاهز دوماً لتفجير نفسه من أجل قتل نفسه وأكبر عدد من المواطنين الإسرائيليين في المقاهي ودُور اللهو ومحطات الباصات... لقد دخل الجندي الإسرائيلي طرفاً في الحرب على الإرهاب وهو الذي كان الأصل في ذلك وسبق غيره إليها. وكما أن الجندي الأمريكي ينتمي إلى عالم اليوم كذلك الإسرائيلي، وكما يواجه الأول أفغاناً مسلمين وعرباً متعصبين في العراق، يواجه الجندي الإسرائيلي الذي ينتمي إلى منظومة الحداثة الغربية إياها حماس والجهاد. إن إظهار إسلامية المقاومة في فلسطين والعراق وأفغانستان يحمل معه كل المضمرات والتفاعل السلبي الذي يصل إلى حدود العملية الارتجاعية التي تعمل على ربط هذه الحلقات ببعضها بعضاً من أجل تكريس أصحابها أعداء يمثلون الشر مجسداً، مقابل الخير الذي تعبر عنه السياسات الأمريكية والموالية، باعتبارها تجسيداً للديمقراطية والحريات والتقدم والتلاؤم مع العصر وما يفرضه من تكيف ومشاركة. وهكذا تغيب السياسة عن المسرح، ويصبح العراق وفلسطين وأفغانستان عبارة عن ميدان يتصارع فيه أمريكيون وبريطانيون وإسرائيليون مع كائنات تبدو كأنها قادمة من عصور وأزمان غابرة،

تحمل إلى جانب أسلحتها كل أحقادها التي لا يمكن زحزحتها عنها ما دامت جزءاً من بنيتها العقائدية الشريرة.

ستتلاحق تجليات هذه الصورة بإيقاعات مختلفة كتابة وتلاوة ومشاهد طوال أشهر وسنوات ومعها ستختفي صورة الاستباحة أمام غطرسة القوة وسيبدو الإعلام ليس سوى فرقة في أداء الحرب لا أكثر ولا أقل. وستغيب صورة ضحايا نيويورك أيضاً بعد أن أدت أغراضها ومهدّت للحرب. لم يعد يظهر على الشاشة إلا ما يراد عرضه على المشاهد، فيما بقية الصورة التي تظهر جثث الضحايا الغارقة وسط دمائها وأنقاض بيوتها المتهالكة والجنود القتلى في آلياتهم المتفحمة، محجوبة عن الأنظار. لكن تباعاً ستعود بعض المشاهد إلى الظهور.. وستُحْدث صور معتقلي سجن أبي غريب دوياً بعد أن أخذت بالتكشف معالم الجريمة المروعة التي يعيشها العراق تحديداً. فجأة انكشف عالم سري من الفظائع الذي يطيح بالمعاهدة الدولية لمعاملة الأسرى وضد التعذيب، الموقعة في العام 1948، لكن الأفدح كان الرفض المتكرر سابقاً في الإصغاء إلى إشارات جمعيات حقوق الإنسان حول الانتهاكات التي تشهدها السجون الأمريكية على أرض العراق.

يجب أن نتذكر الإعلان عن فضائح سجن أبو غريب تأخر عن موعد وقائعه قرابة العام، وفي غضون أيام السنة، كما ورد في ما سبق، كانت تنتهك حرية الحصول على المعلومات التي اعتبرتها الهيئات الدولية بمثابة الحجر الأساس لحقوق الإنسان.

هناك مفارقة يجب الوقوف عندها، هي أن وسائل الإعلام الأمريكية

وهي التي ساهمت في تطويق إدارة بوش الابن والمؤسسة العسكرية، كانت تشهد عملية تمركز قصوى، وهو أمر له دلالته على أداء هذه الوسائل. لا يعني هذا التمركز أو النمو الاحتكاري إقفال الأبواب أمام إمكانية النفاذ من شباكه، إذ ما زالت هناك آليات يمكن اعتمادها تؤدي إلى تحقيق إصابات مباشرة في السياسة الأمريكية التي تلقي أثقالها المدمرة على المنطقة بهدف إخضاعها والسيطرة عليها. إن هذا الاستهداف الذي تحاوله الولايات المتحدة الأمريكية يستند إلى مجمع إعلامي لم تعرف له الكرة الأرضية مثيلاً. يكفي أن نشير إلى تسويقها يومياً 1700 جريدة، وآلاف النشرات الأسبوعية، وبرامج لحوالي تسعة آلاف محطة إذاعية وما يقارب ألف محطة تلفزيونية. ويجب أن نضيف ما تنتجه شركات الإنتاج المرئي من أفلام وبرامج وثائقية وتسلية ومسلسلات تلفزيونية وما يتعدّى 2500 دار نشر وألوف مراكز الأبحاث المنتشرة في الجامعات وغيرها. ومن ضمن ذلك محطات «الحرية» و«سوا» وإدارة معقدة من وسائل التأثير على الصحافيين والرأي العام بما يعيد التذكير بما شهدته الحرب الباردة من ضخ إعلامي موجه نحو الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي في حينه.

إن هذا الخليط من المعلومات الشائعة عبر شبكات الإنترنت يبين مدى حضور المؤسسة الأمريكية وهيمنتها. هناك الآن تسع شركات تعاونية تدير ثلاثاً من شبكات التلفزة الرئيسية هي CBS & NBC & ABC بالإضافة إلى أربعين محطة تلفزيونية متنوعة وأكثر من مئتي نظام تشغيل وستين محطة إذاعية و59 مجلة من ضمنها مجلتا جورنال، لوس

انجلوس تايمز، الواشنطن بوست، ويضاف إليها 41 دار نشر. واللافت أن ديزني اندمجت مع IBC وشركة وستنغهاوس مع سي. بي. سي وشبكة CNN مع شركة تايم وNBC اندمجت مع جنرال الكتريك... يمكن ملاحظة وجود أشكال اندماجية بين شركات الهاتف والكمبيوتر والتلفزة والصناعات المدنية والعسكرية ما أنتج شركات مثل مايكروسوفت وأن. بي. سي. وأم. أس. أن. بي. سي.. كل هذا يحدث استجابة للدور الأمريكي في قيادة العالم وليس الاستمرار مجرد قوة عظمى فيه، فالولايات المتحدة لا تستند في هذه القيادة إلى ماكينتها العسكرية وحاملات طائراتها وشبكات قواعدها على الأرض وفي الماء والفضاء، كما لا تعتمد على إنتاجها الكبير من القمح والذرة والسيارات... بل من المنتج الثقافي الذي يخضع الإعلام في العالم لسطوته ويكتسح في طريقه مؤسسات وشركات وثقافات دول ذات تاريخ ودور... إن هذا الوضع هو أكثر من مجرد تنافس على نشر المبادىء باعتبارها مدخل استمرار الهيمنة والمزيد من الأرباح إلى حدود ومساحات غير مرئية.

الجدار وثغراته

المؤكد أن الإعلام الغربي بمجمله عمل على فترات متلاحقة على تشكيل صورة نمطية للعربي، ما يجزم بالقول أنه قد ترسخت لدى المشاهد ـ القارىء ـ المستمع صورة سيئة عن العربي. لكن الإعلام الغربي ممكن تفكيكه هو الآخر، والدخول في تفاصيله توصلاً إلى

اكتشاف ما يمكن من ثغرات يجب النفاذ منها لتقديم الإنسان العربي على نحو مغاير لما درجت عليه هذه الوسائل.

هنا يجب التمييز، تبعاً للموقف السياسي بين الإعلام الأمريكي والإعلام الغربي: البريطاني، الفرنسي والألماني و...

القائمة الأخيرة ليست بحال من الأحوال كتلة واحدة، ولا الصحافيون نماذج من صناعة موحدة المواقف والتوجهات. ينبغي أولاً الإشارة إلى أن في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إعلام تعود ملكيته إلى الدولة، فـ «صوت أمريكا» و«الحرة» و«سوا» هي مؤسسات حكومية تقريباً، وهذا ما ينطبق على الـ BBC أيضاً والتلفزيون الفرنسي والإذاعة المملوكة بمعظمها للقطاع العام. التأثر الذي تبديه هذه الوسائل بالمواقف كما تحددها إدارات الدولة لا سيما في الشؤون الخارجية، لا تمنع من القول إن هناك مساحة من الحرية. يدور الصراع دوماً حول حدودها، ويدخل في هذا المثال تجربة الـ BBC إزاء حرب العراق وما أثارته من عواصف معروفة. ما يصح على هذه الوسيلة لا ينطبق بالضرورة على «صوت أمريكا» و«الحرية» و«سوا» باعتبارها في حمى المنازلة في العراق، وبالتالي فإن الهامش هنا مفقود تماماً.

جون إيسبوزيتو[1]: الحرب غير المقدسة الإرهاب باسم الإسلام

«الحرب غير المقدسة» Unholy war هو واحد من الكتب المهمة الصادرة في الغرب، والتي سعت إلى الإجابة عن سؤال العلاقة بين المسلمين والغرب، وتحديداً المسلمين وأمريكا وأهمية الكتاب تأتي من مؤلفه ومن مضمونه، فالمؤلف هو جون إيسبوزيتو مدير مركز التفاهم المسيحي ـ الإسلامي في جامعة جورج تاون الأمريكية، والمسؤول عن كلية والش للشؤون الخارجية في الجامعة، وكان أستاذاً زائراً للجامعة الأمريكية في بيروت لسنوات عدة، وله اهتمام قديم متجدد قضايا المسلمين والغرب لجهة اهتمامه بتواصل الحضارات وليس صدامها.

والكتاب صادر عن دار أكسفودر للنشر ويحتل مكانه بين مؤلفات إيسبوزيتو السابقة ومن بينها: الإسلام: الطريق الصحيح، والخطر الإسلامي حقيقة أم وهم؟، والإسلام والسياسة. كما أن المؤلف إيسبوزيتو هو رئيس تحرير قاموس أكسفورد للإسلام وموسوعة أكسفورد

(1) قراءة لنهاد عبد الوهاب في كتاب «الحرب غير المقدسة»، مجلة النور، لندن، آب 2003.

حول العالم الإسلامي الحديث. وفي مقدمة الكتاب نرصد دوافع تأليفه، إذ يقول إن أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001، والتفجيرات التي حصلت في واشنطن ونيويورك، أيقظت العالم الغربي على سؤال كبير هو: هل يدفع الدين، والدين الإسلامي بخاصة، الناس إلى ارتكاب المذابح؟ ولماذا هذا العداء الواضح بين المسلمين والولايات المتحدة. هل هو عداء ديني أم عداء سياسي له خلفية دينية، وهل يُعَلِّم الإسلام معتنقيه أن يصبحوا إرهابيين ودعاة عنف؟

هذه الأسئلة دفعت المؤلف إلى اتباع منهج علمي في الإجابة عليها، في مواجه سيل من المقالات وربما الكتب سريعة الإنجاز، التي ألفها صحافيون وكتاب غربيون ليسوا على اطلاع عميق بمضمون الإسلام، فقد تعمد المؤلف تقديم ما أسماه: صحيح الإسلام، كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية وحياة النبي محمد(ص)، وانطلاقاً من أسس الشريعة الإسلامية وقواعدها لا سيما في التفريق والتمييز بين الجهاد والإرهاب. وربما كانت هذه هي إحدى ميزات هذا الكتاب الذي يشرح للقارىء الغربي، وبخاصة الأمريكي، قواعد الإسلام وأسسه على يد رجل متبحر في هذا الدين بعكس الكتابات، التي قدمها وسطاء يهود في المجتمع الأمريكي يشوهون فيها الإسلام، مما يؤثر سلبياً على نظرة أهل الغرب إلى الإسلام كدين وعقيدة وإلى المسلمين كبشر ومجتمعات.

ينقسم الكتاب إلى أربعة فصول هي: نشوء الإرهاب الحديث، والجهاد والنضال من أجل الإسلام، وجيوش الله، وأخيراً إلى أين

نذهب من هنا؟ وتعمد المؤلف استعمال لغة انجليزية بسيطة. ومباشرة بعيدة عن التعقيد حتى تصل إلى القارىء من المستويات المختلفة وبخاصة في المجتمع الأمريكي، الذي يميل أفراده إلى اللغة الواضحة المباشرة لشرح الموضوع.

والكتاب يضم أربعة فصول أساسية إلا أن الإجابة على سؤال: لماذا الصدام بين المسلمين والغرب لا ترد إجابته في فصل محدد، بل هي موزعة على كل الفصول، حتى أن القارىء يخرج بنتيجة منطقية بعد الاطلاع على الفصل الأخير، الذي يحمل عنوان إلى أين نذهب من هنا؟ وينفي إيسبوزيتو أن يكون سبب العداء دينياً، فالمسلمون لا يكرهون الغرب بسبب انتمائه الديني المختلف، وإنما بسبب السياسات الخاطئة التي انتهجها الساسة الغربيون تجاه المسلمين، وبخاصة في قضية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وهي أخطاء استغلتها جماعات إسلامية متطرفة على غرار جماعة أسامة بن لادن للقيام بأعمال عنف ضد المجتمع الغربي، مع أن القرن 21 ينبغي أن يكون القرن الذي تلتقي فيه الديانتان المسيحية والإسلامية، والتي تتصاعد أهميتها وتتكاثر أعداد المنتمين لهما، وينتقد المؤلف المقولة، التي تعتبر أن صراع الحضارات والديانات، أمر حتمي، ويرى أن مثل هذه الصراعات الفكرية هي أحد أسباب تزكية الصراع في العالم. كما ينتقد الذين يشنون الحروب الإعلامية وبالتالي العسكرية ضد ما يسمونه الإرهاب الإسلامي، بينما هم لا يعرفون الكثير عن الدين الإسلامي وعن الرسالة المحمدية «إن طريقة فهمنا للإسلام والعالم الإسلامي ستؤثر على كيفية مواجهتنا

لأسباب تصاعد الإرهاب والعداء لأمريكا ومسألة بقاء القيم الأمريكية أو زوالها، ويجب أن نتجاوز البلاغة السياسية السطحية والعقيمة، وأن نتجنب تقسيم العالم إلى أبيض وأسود أو خير وشر» ويضيف «لقد كتبت هذا الكتاب للمسلمين وغير المسلمين في الغرب والشرق كدعوة صريحة إلى الحوار، والتواصل، إذ إن الأمر المؤكد هو أن حياتنا في الغرب مرتبطة بحياة المسلمين في الشرق، ولم يعد المسلمون يقبعون في عالم معزول. بل صاروا جيراننا وزملاءنا ويساهم كثير من علمائهم في تطوير الإنتاج المعرفي الغربي، فهناك ما لا يقل عن 60 ألف عالم مسلم منتشرين في المعامل والمصانع والمختبرات الغربية، والدين الإسلامي يرفض الإرهاب كما اليهودية والمسيحية، وحان الوقت لأن نتجاوز الأحقاد التاريخية والصور المشوهة وأن نعترف بالقيم والمصالح المشتركة وأن نبني المستقبل كجماعة واحدة.

لماذا صار بن لادن زعيماً للقاعدة؟

في الفصل الأول يطرح المؤلف سؤالاً مهماً: هل ولد بن لادن متطرفاً أو إرهابياً؟ ويرد بقوله «إن أسامة بن لادن يبدو وكأنه الشخص الأكثر بعداً من أن يتحول إلى إرهابي وذلك بسبب نشوئه في عائلة سعودية ثرية ومتدينة، ولكن هذا الإنسان تحول إلى قائد لتنظيم القاعدة لأن والده كان إنساناً تقياً وملتزماً بالقضايا القومية، وكان يشعر بعاطفة شديدة وبألم إزاء مصير الفلسطينيين بسبب القهر والإذلال الإسرائيلي لهم، وبطبيعة الحال فقد بث هذه المشاعر في نفوس أولاده، وكان

يتمنى أن يساهم في تحرير فلسطين حتى أنه طلب من مهندسيه الذين يعملون في شركات المقاولات التي يمتلكها أن يحولوا مئتي جرافة أحجار ثقيلة إلى دبابات بهدف استخدامها في تحرير فلسطين، وعندما أبلغ بأن ذلك غير ممكن قرّر إنجاب العدد الأكبر من الأولاد ربما يساهمون في تحرير فلسطين، غير أن أسامة كان الوحيد الذي تحول مقاتلاً، وقد تكون هذه الرواية مبالغاً فيها غير أنها تكشف عن أن قضية فلسطين موجودة في ضمير كل مسلم، وأن عداء تنظيم القاعدة لأمريكا ليس له أسباب دينية مباشرة بل أسباب سياسية تتعلق بالانحياز الأمريكي الكامل إلى جانب إسرائيل».

ويؤكد إيسبوزيتو أن «الإذلال الذي تعرض له العرب بعد هزيمة 67 أمام إسرائيل، والتي هزمت فيها جيوش مصر وسوريا والأردن أمام دولة صغيرة هي إسرائيل أثار التساؤلات حول أسباب عدم قدرة المسلمين اليوم على تحقيق الأمجاد التي حققها المسلمون في الماضي، واعتبر الرئيس أنور السادات حربه في العام 1973 ضد إسرائيل جهاداً عندما أطلق على العملية الهجومية صباح 6 تشرين الاول/ أكتوبر 1973 عملية بدر نسبة إلى غزوة بدر، واعتبر المسلمون أن تضامن الدول العربية لقطع البترول عن الغرب هو جهاد، ومن هنا يتداخل البعدان الديني والقومي لتشكيل أفكار المسلمين في المنطقة العربية، وبينهم ما يسميهم الغرب اليوم الإرهابيين أو المتطرفين».

ويرى المؤلف أن أحداث الصراع المسلّح بين إيران والعراق التي استمرت 8 سنوات ثم الغزو العراقي للكويت 1990 هي أحداث استغلها

الغربيون، وبخاصة أمريكا لتحقيق أغراض خاصة وليس فقط تحرير الكويت الأمر الذي استفز مشاعر المسلمين، لا سيما وهم يشاهدون الطائرات الأمريكية والصواريخ تدمر مدينة بغداد وتقتل المسلمين، ويؤكد إيسبوزيتو في أكثر من موقع أن قضية أسامة بن لادن ومعاونيه مرتبطة بشكل مباشر بالقضية الفلسطينية وأنها ليست قضية إسلامية أو سعودية فقط كما يدّعي كثيرون. فابن لادن يلقي باللائمة على الشعب الأمريكي الذي ينتخب الرئيس وقادة الكونغرس ويجعل هذا الشعب مسؤولاً عن القمع الإسرائيلي للفلسطينيين وعن تقديم الدعم العسكري والمالي الكامل لإسرائيل لكي تذبح الفلسطينيين، ويتهم اللوبي اليهودي بكونه اتخذ أمريكا والغرب كرهينتين، ويدعو الشعب الأمريكي للثورة على قادته، كما فعلوا خلال حرب فيتنام، ويعتبر أن حرب المسلمين ضد أمريكا دفاعية. وعن مفهوم الجهاد يقول المؤلف «إن هذا المفهوم له معان مختلفة، فالبعض يعتبرونه صلاة وصياماً وآخرون يرون فيه عملاً مثابراً ونشراً لرسالة الإسلام، ومنهم من يرى فيه دعماً للمسلمين المقهورين في فلسطين والشيشان والفيلبين وكوسوفو، وفي القرن العشرين استخدم مفهوم الجهاد كتعبير عن المقاومة ضد العدو الإسرائيلي» (يدرج هنا اسماء حزب الله والجهاد وحماس) كما يشير المؤلف أن كل المفاهيم استخدمت استخداماً مزدوجاً. بما فيها مفهوم الجهاد الذي أساء بعض المسلمين استخدامه، فهناك مفاهيم طرحها سيد قطب «وهو مفكر إسلامي مصري كتب مؤلفاته المتطرفة وهو في داخل السجن في العهد الناصري ـ العبارات للمؤلف ـ» وهذه المفاهيم منتشرة

في كتب يتداولها شباب مسلم، في حين هناك كتب لعلماء من الأزهر والسعودية يؤيدون الجهاد ضد إسرائيل لتحرير فلسطين، ويعارضون الجهاد ضد الحاكم والمجتمع.

ويعتبر المؤلف أن انخفاض المستوى الاقتصادي في عدد من الدول العربية والإسلامية تفسره الجماعات الإسلامية المناهضة للغرب باعتباره إحدى نتائج سيطرة القوى الاستعمارية على خيرات البلاد الاقتصادية وهيمنتها على القرار السياسي. وهكذا فإن الاستهتار الغربي بالمواقف السياسية العربية يضاف إليه الاستخفاف بالمصير الاقتصادي للشعوب العربية والإسلامية، وشن الحروب التي لا تخدم سوى غاية الدول المستعمرة، وهذه الأمور ترسم الطريق أمام صعود حركات أصولية متطرفة ترغب في استخدام العنف الجهادي ضد الغرب، وبالمقابل فإن البحث عن الحلول العادلة لأزمات المنطقة العربية، وعلى قمتها أزمة فلسطين يمكن أن يشكل انطلاقة صحيحة نحو الحوار الغربي الإسلامي، وبدلاً من أن يتحول الجهاد الإسلامي إلى حرب ضد الغرب ومؤسساته، بخاصة في الولايات المتحدة، فإن بالإمكان إعادته إلى مضمونه إلى محتواه الصحيح وهو الجهاد في سبيل تحسين مستوى الحياة، ولتعزيز الإيمان بالمبادىء الأخلاقية.

تشكيل وعي الجمهور الأمريكي

إن قادة الرأي يلعبون دوراً محورياً في تشكيل الرأي العام الأمريكي. فالأفكار تصبح ذات مدلول سياسي عند جمهور العامة بعد أن ينقلها لهم قادة الرأي الذين قد يصحفون أحياناً في هذه المعلومات. وكما هي الحال في أي نظام ديموقراطي، فإن شرعية النظام الحاكم تنبع من قبول ضمني على المستوى الشعبي. لذلك، فوجود قنوات ربط بين الشعب الأمريكي والحكومة يعد مسألة مهمة جداً لضمان العملية الديمقراطية ونعدد هذه القنوات منها على سبيل المثال[1]:

ـ **جماعات الضغط**: وهي من أهم وسائل تأثير الرأي العام على الحكومة. ضمن تحركات تلك الجماعات المتنافسة يتم التأثير على عملية اتخاذ القرار في النظام الأمريكي.

ـ **الإعلام**: ويعتبره المسؤولون السياسيون مصدراً لقياس الرأي العام.

ـ **النواب المنتخبون**: وآراؤهم تعتبر بدورها ذات أهمية خاصة للحكومة باعتبارهم نظرياً يمثلون فئات الشعب المختلفة وبالتالي الرأي

(1) أماني حجازي، مجلة النور، آب 2003.

العام الأمريكي. غير أن طبيعة النظام السياسي الأمريكي تجعل أعضاء الكونغرس غالباً لا يمثلون تيارات الرأي العام كافة.

ـ **استطلاعات الرأي**: وهي في العادة غير معبرة بشكل عادل عن الرأي العام الأمريكي بأكمله. وطبقاً لأحدث الأبحاث فإن 75٪ من المسؤولين السياسيين يستبعدون استطلاعات الرأي كعنصر فعال في اتخاذ القرار ولعل السبب يرجع إلى أن الباحث الذي يقوم باستطلاع الرأي عادة ما يكون معنياً بشعبية قضية ما، بينما المسؤول السياسي يركز على مدى قوة القضية ورد الفعل المتوقع من أقلية مؤيديه أكثر من الأغلبية الصامتة.

ـ **النخبة**: وتلعب دوراً مهماً كمصدر للرأي العام وآراء المحيطين بمتخذي القرار (كالأصدقاء والشلّة) في مجال السياسة الخارجية بالإضافة إلى الشخصيات الأكاديمية من أصحاب الثقافة السياسية تعتبر عاكسة للرأي العام بأكمله ولها تأثيرها القوي على عملية اتخاذ القرار السياسي.

ـ **الانتخابات**: التي تعد أكثر أنواع المشاركة السياسية شعبية في الولايات المتحدة. غير أن الواقع يقول إن تأثير الرأي العام على السياسة الخارجية للولايات المتحدة من خلال العملية الانتخابية محدود للغاية نظراً لأن المرشحين نادراً ما يتطرقون في حملاتهم الانتخابية إلى موضوعات متعلقة بالسياسة الخارجية، فهم يركزون على موضوعات داخلية مثل الأمن القومي وهذا يتيح للمرشح عدم تقديم وعود في مجال السياسة الخارجية. كما أن الناخبين لا يدلون بأصواتهم على أساس

مواقف المرشحين من شؤون السياسة الخارجية. وبشكل عام، يتفق المحللون في أن الرأي العام نادراً ما يكون مصدراً لتغيير السياسة الخارجية بل إنه فقط يضع حدوداً للممكن والمقبول سياسياً. ويرى البعض أن الرأي العام لا يشكل قيداً فعلياً على متخذي القرار نظراً لأنه يتأثر بالتصريحات الرئاسية ويتغير مع توجهات المجتمع الدولي. ولكن يمكن القول أنه على الرغم من أن الرأي العام الأمريكي نادراً ما يكون قوياً ومعبأ حول قضية ما، ما يحول دون التأثير المباشر على توجه السياسة الخارجية، فإن له دوراً غير مباشر في تشكيلها. وعندما يقرر المسؤولون قراراً ما يكون في حسابهم أثر ذلك على الرأي العام الذي سيدلي بصوته في الانتخابات المقبلة لذا فإن رد فعل الرأي العام يوضع في الاعتبار أحياناً عند اتخاذ القرار. فضلاً عن ذلك، فإن التوجهات السياسية الخارجية السائدة في المجتمع الأمريكي، والثقافة السياسية الأمريكية تؤثر على الرأي العام وتحدد بشكل غير مباشر أفق السياسة الخارجية وبالتالي عملية اتخاذ القرار.

التوجهات السياسية والثقافية

التوجهات السياسية الخارجية التي سادت في المجتمع الأمريكي بعد الحرب الباردة هي كالتالي[1]:

ـ **العالمية المحافظة**: ويتبناه الحافظون، وهذا الاتجاه يرى أن الخطر

(1) أماني حجازي، المرجع السابق.

الرئيسي على الأمن القومي والنظام العالمي كانت الشيوعية تحت قيادة الاتحاد السوفياتي السابق، وقد برز هذا الاتجاه بقوة في عصر ريغان (1980 ـ 1988) الذي لم يهادن أو يحاور الاتحاد السوفياتي السابق، بل سعى إلى هزيمته من خلال سباق التسلّح فيما عرف بـ «حرب الكواكب». أما اليوم فإن خطر التطرف الإسلامي هو «البعبع» الذي يطرحه اليمين المحافظ كعدو لأمن أمريكا، وبالتالي الدخول في حرب معه في أي أرض وبأي تكلفة.

ـ **العالمية الليبرالية**: ويتبناه الليبراليون ويرى العالم بعد الحرب الباردة مكوناً من دول ومنظمات دولية عدة لها اعتماد متبادل على بعضها البعض. لذا فهذا الاتجاه يرى أن السبيل نحو الاستقرار العالمي والسلام والرخاء يكون من خلال ترسيخ العلاقات الأمريكية ـ الأوروبية ومع دول العالم الثالث ووقف سباق التسلّح وإرساء سبل إقامة الثقة.

كذلك فإن هذا الاتجاه يعارض تدخل الولايات المتحدة الانفرادي في الأزمات الدولية، بل يطالب بالعودة إلى الأمم المتحدة أو على الأقل تشكيل تحالفات دولية قبل الخوض ـ عسكرياً ـ في أي أزمة خارج حدود أمريكا.

ـ **مناهضة التدخل الخارجي**: وهو اتجاه يسمى Non Internationalism وغير مرتبط بمذهب سياسي محدد ويرى أن الولايات المتحدة يجب أن تحد من تدخلها ونشاطها السياسي في المناطق التي لها فيها مصالح مهمة مثل أوروبا الغربية واليابان.

هذا بالنسبة إلى العنصر الأول وهو الذي يضع إطاراً عاماً للسياسة الخارجية وهو التوجهات السياسية الأمريكية.

أما العنصر الثاني وهو الثقافة السياسية الأمريكية ويعني مفهوم العامة لأنفسهم ووطنهم تجاه العالم، ومن أهم سمات الثقافة السياسية الأمريكية «البراءة الأمريكية» أو «العطف الأمريكي» بالإضافة إلى مفهوم «التفرد الأمريكي».

يرى الكثيرون أن الأمة الأمريكية مقامة على قيم عدة وتجارب فريدة، ما يجعلها تعتبر نفسها مختلفة عن شتى أمم العالم القديم، وطبقاً لسفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة للعام 1984 جين كيرتبريك حيث تقول: «التفرد الأمريكي يعكس الاعتقاد السائد بأن للولايات المتحدة مهمة أخلاقية تنبع من هويتها ويجب أن يوجه هذا الاعتقاد السياسات الأمريكية، فطبيعتنا الفريدة، التي كانت تستعمل لتبرير تحالفات وخلافات العالم القديم من قبل، تعتبر الآن أساساً لإصلاح العالم».

وبذلك فإن المجتمع الأمريكي يسوده الإحساس والإيمان بتميز الثقافة الأمريكية وأسلوب الحياة فيه والحاجة إلى نقل هذه القيم للعالم بأكمله.

يمكن تصنيف جماعات الضغط في المجتمع الأمريكي إلى[1]:

ـ **جماعات قطاع الأعمال**: ويشمل هذا القطاع المنظمات الاقتصادية

---

(1) أماني حجازي، المرجع السابق.

الكبيرة، التي تعد منظمات شاملة وتكون أشبه بالجماعة الأكبر التي تدور داخلها اهتمامات عدة لجماعات ضغط صغيرة عدة ولهذا يطلق عليها الجماعة المظلة ومن أمثلتها الغرفة الأمريكية التجارية ولجنة التنمية الاقتصادية.

- **اتحادات العمال**: وهي التي تشكل ما يطلق عليه الحركة العمالية التي تهدف تقليل حجم الواردات وضمان التأمين المهني ومن أهمها جماعة الاتحاد الأمريكي للعمال وكونغرس المنظمات الصناعية.

- **المنظمات الدينية**: وهي تمثل شتى الاتجاهات الدينية في الولايات المتحدة مثل طائفة ومن بينها طائفة بروتستانتية كانت تمارس الضغط في السياسة الخارجية.

- **الجماعات الأيديولوجية**: لهذه الجماعات نشاط سياسي ملحوظ على المستويين المحلي والخارجي ومن أهمها: جماعة مجلس الأمن الأمريكي والعصبة العالمية النسائية للسلام والحرية وهي جماعة ليبرالية الاتجاه.

- **الجماعات الزراعية**: وهذه الجماعات تتمتع بفاعلية سياسية هائلة رغم أن المزارعين الأمريكيين يشكلون 2٪ فقط من الشعب إلا أن تأثيرهم على التشريعات القانونية هائل وأهم تلك الجماعات جماعة الهيئة الفيدرالية للمزارعين الأمريكيين. كما أنها تتخذ مواقف في السياسة الخارجية كما حدث في قضية كوبا.

- **جماعات المجندين المتقاعدين**: جماعات لها تأثيرها الملحوظ

على السياسة الخارجية ومن بينها جماعات محافظة مثل جميعة المتقاعدين الأمريكيين للحرب العالمية الثانية وأخرى ليبرالية مثل جميعة المتقاعدين الأمريكيين لحرب فيتنام.

ـ **الجماعات ذات الهدف الواحد**: وهي جماعات تسعى للتأثير على السياسة الخارجية انطلاقاً من تبنيها موقفاً محدداً من قضية ما. ومن تلك الجماعات رابطة الأمم المتحدة بالولايات المتحدة وجميع أصدقاء الأرض.

ـ **الجمعيات العرقية**: ازداد دور هذه الجماعات بعد انتهاء الحرب الباردة بعد أن تحول الأمريكيون إلى مبدأ مهم جداً وهو أن اختلاف الأصل العرقي جزء لا يتجزأ من الحياة الأمريكية، الأمر الذي أدى إلى تقلص الضغط على المهاجرين. ومن أكثر الجماعات العرقية نشاطاً في مجال السياسة الخارجية المجتمع اليهودي والمجتمع اليوناني. ومن أهم سمات أسلوب الجماعة العرقية الفعالة في السياسة الخارجية هو الاحتماء بالرموز والقيم الأمريكية كالحرية الفردية وحقوق الإنسان مع التهديد بتغير الولاء في فترة الانتخابات من حزب إلى آخر.

اللوبي الأجنبي

وهو أحدث أنواع جماعات الضغط ذات التأثير على السياسة الخارجية ومن أشهرها جماعة اللوبي اليهودي الذي يمارس ضغوطاً هائلة في مجال السياسة الخارجية الأمريكية. كذلك الجمعيات الإسلامية التي ظهرت منذ منتصف السبعينيات، وهناك منظمات للإسبان

وللجماعات الوافدة من أميركا اللاتينية والصين والجماعات المدافعة عن حقوق المواطنين من ذوي الأصول اليابانية، وهي جماعات مؤثرة للغاية في الانتخابات الرئاسية. وقد أسهمت هذه الجماعات وبخاصة الإسلامية في فوز الرئيس الأمريكي الحالي في الانتخابات الرئاسية، وحسب الكاتب بول فيندلي في كتابه: كفى صمتاً ـ مواجهة تصورات أمريكا الخاطئة عن الإسلام. فإن مسلمي الولايات المتحدة كانوا في الانتخابات الرئاسية الأخيرة 2001 جبهة انتخابية قوية، ربما استطاعت حسم الجولة لصالح بوش ضد آل غور الذي أيده اليهود.

ويرى فيندلي أن ذلك لم يكن، ليتم لولا التعاون والتنسيق المشترك بين المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة. وأكد أن جبهة أصوات مسلمي أمريكا اتجهت لصالح بوش بعدما تهكم في حديث تلفزيوني على مسألة «الدليل السري» الذي يسمح للسلطات بطرد أو إبعاد وعدم استقبال أي مواطن أو زائر أو مهاجر دون إبداء أي اسباب، وقال بوش وقتها إن هذا الإجراء لا يتفق مع المنهج الأمريكي في التفكير، وعلينا البحث عن طريق آخر لمنع تسلل المتطرفين.

وفي المقابل تنشط الجاليات اليهودية التي تعتبر أهم وأقوى جماعات الضغط في المجتمع الأمريكي، حيث تسيطر على نسبة مهمة في وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة، ولها أصدقاء في الكونغرس وعلاقات قوية في البنتاغون ومراكز صنع القرار.

وهنا نشير إلى الدور الخطير الذي تلعبه اللجنة الأمريكية ـ الإسرائيلية للشؤون العامة المسماة إيباك. وقد قال الصحافي البريطاني

ريتشارد بيتون في جريدة التايمز البريطانية في 24/ 4/ 2002، إن إيباك سعت لدى الكونغرس الأمريكي في حملته في العام 2000 إلى إصدار مئة قانون لمصلحة إسرائيل بما فيها التشريع المتعلق بالمعونة الكبيرة المقدمة لها والبالغة ثلاثة بلايين دولار، ويخلص المقال إلى استنتاج مثير يقول: هنالك قانون غير مكتوب لكنه محط التزام واسع في الوسط السياسي الأمريكي مفاده أن مساندة اللوبي اليهودي تشكل عنصراً جوهرياً لأي مسيرة سياسية ناجحة كما أن التعبير عن أي معارضة علنية لإسرائيل من شأنه أن يقود صاحبه إلى انتحار سياسي.

حملة إعلانية في أمريكا تصور السائقين العرب «إرهابيين»

في 10/ 12/ 2002 كشف المعهد العربي الأمريكي في واشنطن، أن «تحالف أمن رخصة قيادة السيارات» أطلق حملة إعلانية في نيو مكسيكو وكارولاينا الشمالية، تتضمن صورة عنصرية وسلبية عن العرب، وتصور السائقين العرب والمسلمين «إرهابيين»، مطالبة بالتشدد معهم عند منحهم رخص قيادة.

وتصور اللوحات الإعلانية شاباً يغطي وجهه بكوفية، ويحمل في يده قنبلة يدوية ورخصة قيادة سيارة صادرة عن كارولاينا الشمالية. كما تتضمن أحرفاً عربية، وشابين ملثمين يحملان أسلحة، وكتب عليها «لا ترخصوا للإرهابيين، كارولاينا الشمالية».

وأشار المعهد، في بيان، إلى أن حملة الإعلانات تزيد من المخاوف من أن يُنظر إلى العرب والمسلمين الأمريكيين كتهديد للأمن القومي الأمريكي، موضحاً أن «التحالف» يستخدم نموذجاً خاطئاً وعنصرياً للضغط من أجل دفع جدول أعمالهم ضد الهجرة.

وأوضح المعهد أن اللوحات الإعلانية تستخدم مفاهيم مقولبة لصورة

الرجال العرب، كأنهم يحاولون الحصول على رخصة قيادة سيارة من أجل تنفيذ هجمات إرهابية.

وشدد المعهد العربي الأمريكي على أن هذه الإعلانات غير المسؤولة والعنصرية، تستهدف إكمال الفكرة الخاطئة والعنصرية حيال مجتمعاتنا الإسلامية.

وعن إعلان آخر كتب وسيم إبراهيم[1]: لم تعد هناك أفكار مبتكرة يقدّمها الإعلان، وصار صعباً بالنسبة لمنتجيه إثارة انتباه ذلك المسترخي على «الأريكة»، وهو يتابع الشاشة بملل، ومن ثم تحريضه ليبدّل سيارته بأخرى جديدة، ستُعيد ضخّ الحيوية في حياته الرتيبة. بات ذلك مستعصياً، وعلينا أن نرثي لحال الشركات الإعلانية، ونجمع التبرّعات لنساعدها على إبعاد شبح الإفلاس.

حتى مع كل تلك المقدمات ـ المبررات التي تقطر سذاجة، لا يمكن القبول بالطريقة التي صنعت بها، وكالة إعلانية بريطانية، إعلاناً ترويجياً لآخر «صرعات» سيارات «فولكس فاغن» (بولو).

عشرون ثاية هي مدة الإعلان، وهي كافية لإثارة الاشمئزاز لدى أي مخلوق يدّعي أنه لا زال ينتمي للجنس البشري. يبدأ الإعلان بلقطة لشاب يخرج من بيته باتجاه سيارته المتأهبّة للإقلاع. كل شيء على ما يرام. أصوات عصافير وحديقة تزيّن المشهد ذلك إلى أن يظهر الشاب عن قرب، غير حليق، بنظارة شمسية ويرتدي الكوفية (تحديداً المرقطة

(1) وسيم إبراهيم، السفير، 10/ 4/ 2006.

بالأسود». تعبر السيارة الشوارع مع لقطة سريعة لرجلين يتناولان طعامهما بسلام. والسيارة تتقدَّم. لقطة أخرى لسلام صارخ، فهناك امرأتان تجلسان على طاولة في أحد مقاهي الرصيف، إحداهن تحتضن رضيعها وتحنو عليه بابتسامة سمحة، وتظهر أمامهما عربة الطفل بوضوح. تقف السيارة أمام المقهى تماماً، وبشكل أدقّ أمام السيدتين وقد حجبتهما من الصورة. لحظة صمت تمرّ منذرةً بوقوع حدث مفاجىء، وراصدة إصراراً عليه. لنتعرّف بعد الصمت على «أصل الفعل» فالشاب، ذو الكوفية! لفّ نفسه بحزام ناسف والآن يضغط على زر التفجير. تبتعد الكاميرا لترصد الانفجار. لا شيء يحصل سوى أن شعلة كبيرة تضيء السيارة، تحرّكها قليلاً، ثم تخفت. وكل الأمر لا يستدعي سوى التفاتة صغيرة من أحد الجالسين الذي لاحظ الشعلة. وبينما لم يفق المشاهد من صفعة عنصرية موجعة، يأتيه شعار الإعلان. إنها «صغيرة لكن قوية»، أي السيارة. معهم كل الحق، بالفعل الإعلان صغير لكنه موجع بطريقة استثنائية.

من صنع الإعلان يمتلك تفكيراً «جهنمياً»، أي أنه خبيث إلى أقصى الحدود. وإعلانه يسعى بوضوح إلى تكريس صورة العربي باتجاه واحد، إنه إرهابي ليس إلاّ. سيعترض هنا من يقدّرون الأفكار «النيّرة»، وهذا حصل، ليقولوا إن ذكاء فكرة الإعلان يغطي على بقية «التفاصيل»! ومع التقدير الشديد لتحليلاتهم النيّرة، كما صاحب الإعلان، لا يستوي القول بالتفاصيل هنا. فقد كان متاحاً، بشكل كبير، إتمام الفكرة دون إبراز تفصيل صغير، وجوهري في آن. هذه «الكوفية» ما مشكلتهم

معها؟! وهي موضوعة بعناية لتقول شيئاً واحداً، الإرهاب عربي الهوية بالمطلق، ولدرجة أنه إذا أراد أحد ما توصيف الإرهابي يستطيع أن يوجز بالقول «إنه رجل يرتدي كوفية»! والخبث لا يقف عند هذا الحد، عند عنصرية وقحة وفجة. إنه يتنطّح ليشرح معنى الإرهاب. السيارة تعبر الشوارع لتقصد أماً ورضيعها في مقهى هادىء، إذاً الإرهاب هكذا، لا جذور ولا أساسات، نزوة موجودة في مورثات العرب وتدفعهم لقتل الأبرياء تحديداً وتبديد وداعة الحياة وسلامها.

لا داعي للبحث كثيراً حول مصدر الإعلان، كأن يدقّق المشاهد في المقود الذي يتوضّع يمين السيارة، حيث هذا النوع من القيادة شائع في بريطانيا وأستراليا. لا داعي لأنه تمّ التعرف، بعد بثّ الإعلان، وتناقله عبر الإنترنت، أن وكالة إعلانية مقرها لندن هي التي أنتجت ذلك الإعلان، من خلال مواطنين بريطانيين يدعيان «لي ودان». وقد دفعت لهما الوكالة 75 ألف دولار لصناعته. وبعد الضجة التي أثارها الإعلان، اضطرت شركة «فولس فاغن» إلى التوقف عند القضية، لتقول بأنها لم تتبنّى الإعلان من يقف خلفه هم «العامة، ويمكن أن يداهمك أي واحد بتقديم إعلان عنك»!، ورغم طلب الشركة الشهيرة من المدعوين «لي ودان» عبر الوكالة الإعلانية، بأن يعتذرا ويبرئاها من الإعلان، إلا أن الوكالة أجابت «نحن لن نعلق..» رافضة إعطاء أي تفاصيل عن أصحاب العلاقة. وذلك حسب ما أوردته «نيويورك تايمز». كما أوردت تقارير أخرى أن كل ما قصده «لي ودان» من الفكرة هو أن «تعكس ما

يراه الناس في الأخبار يومياً، حيث تظهر السيارة هي البطلة لأنها حمت الأبرياء من شخص جاء بنية سيئة. .» ما هذه البراءة الغريبة؟ ربما لم ينتبه الاثنان أنهما ألبسا صاحب «النية السيئة» كوفية، يقترحان أنك ستتعثر بها في مجمّعات لندن الاستهلاكية، وهي جعلت الجميع يعرفون سائق السيارة، السيىء النية، على أنه من «الشرق الأوسط».

لا شيء يؤكد إن كان هذان الـ «لي ودان» موجودين أو وهميين؟ إذ يبدو صعباً على تلك الندبة في الجمجمة أن تستوعب قصة العامة التي تدفع (75 ألف دولار) بهدف «الحصول على وظيفة»، كما رجّح مسؤول في «فولس فاغن» أن تكون خلفيات «تلفيق الإعلان»، وأنه يشبه «الإعلانات الفيروسية» التي تباغتك أثناء تصفّح الإنترنت كما قدّمت «نيويورك تايمز» عند روايتها للقضية، والتي قيّدتها محكمة ألمانيا ضد مجهول؟! طبعاً هنا تنعقد سلسلة السذاجة والغرائب. إعلان تنتجه وكالة معروفة، ترفض إعطاء تفصيل عمّن موّلتهم لصنعه، والقضاء يعتبر أن «مجهولاً» هو من موّل وصنع وبثّ.

بعد انتشار الإعلان بات نوع السيارات، الذي يروّج له، «غير مباع في أمريكا». وبغضّ النظر عن ماهية الأسباب، فالقضية لم تأخذ أي ضجة تُذكر في الإعلام العربي «الشرق الأوسطي» الذي ينتمي إليه أصحاب «النوايا السيئة». ذلك ليس مهماً، لأن المهم والجوهري هو ألا يتعرّض أحد للأنبياء، حتى لو صارت المعاجم تعطي مرادفاً وحيداً لكلمة إرهابي، وبأنه ذلك «العربي الذي يلبس الكوفية». . .

لكن الأمر لا يقتصر على النظرة الغربية نحونا، بل من الممكن أن نشاهد ذات الصورة النمطية المشوهة في إعلانات عربية[1]، فقد أجبرت وزارة الداخلية الأردنية معلناً ووكالة إعلانات على تحمل مسؤوليتهم في إزالة لوحات إعلانية أثارت غضباً لدى حزب جبهة العمل الإسلامي الذراع السياسي لجماعة الإخوان المسلمين، وكادت أن تخلق أزمة سياسية مع حكومة عدنان بدران بعد أن اتضح أن عدم اكتمال الرسالة الإعلانية «شوّه» هدفها ومعناها.

وقال محافظ العاصمة الأردنية (الحاكم الإداري) سعد الوادي المناصير الذي أشرف على عملية إزالة جميع اللوحات الإعلانية المثبتة في جزر شوارع العاصمة وعلى الأرصفة الخاصة للترويج لإذاعة جديدة، أن اللوحات المذكورة تعود ملكيتها لأمانة عمان الكبرى ومؤجرة من قبل شركة إعلانات أردنية متعاقدة مع شركة إعلانات أردنية أخرى بتصميم ووضع صور لمواد إعلانية تسيء للشابات والشباب المسلم لصالح قناعة إذاعية أردنية اجتماعية تبث من عمان.

ومن هذه المواد صورة لامرأة محجبة مكتوب تحتها عبارة «مضطهدة» وعبارة «متعصبة» وأخرى لشباب ملتح مكتوب تحتها عبارة «متعصب». واعتبرت هذه الإعلانات مسيئة للمسلمين والإسلام.

وأوضح المناصير أنه جرى استدعاء أصحاب الشركتين المذكورتين بالإضافة إلى المسؤولين عن الإذاعة صاحبة المواد المعلنة وتم ربطهم

---

(1) الشرق الأوسط، 12/10/2005.

بكفالات عدلية تضمن عدم وضعهم أي مادة إعلانية تسيء للإسلام أو للنظام أو للآداب العامة. واعتبر المناصير أن ذلك طرح مستهجن يثير المشاعر الدينية ولا يمكن التهاون حياله، مشيراً إلى أنه كان على الشركة المعلنة أخذ الموافقة قبل إعلانها. إلا أن مسؤولين في الشركة أكدوا أن الشركة كانت ستستبدل لوحاتها لتطوير رسالتها الإعلامية اعتباراً من اليوم بما يوضح الفكرة الصحيحة منها. ونفت أن تكون «هدفت إلى الإساءة للقيم والرموز الإسلامية».

وأثارت هذه الإعلانات استهجاناً وغضباً عبر عنهما حزب الجبهة في بيان إذ اعتبر أن تلك العبارات «سمجة»، ووصفها بأنها «تمثل اعتداء سافراً» على عقيدة هذا الوطن وهويته، و«استفزازاً» لكل المؤمنين والمؤمنات فيه. وقال نائب أمين عام الجبهة جميل أبو بكر، إن ممثلين عن الشركة المذكورة «زاروا أمس مقر الحزب والتقوا بعدد من قياداته لتوضيح وجهة نظرهم» مشيراً إلى أنهم اعتبروا أن الهدف من الإعلانات وبعض الصور المستفزة «تهدف لإثارة القارىء وجذبه» لافتاً إلى أن وجهة نظرهم هي أن «العبارات الواردة في الإعلانات هي أفكار خاطئة يحاول البعض ترويجها وأن الإذاعة الجديدة سترد على هذه الأفكار المشوهة عن القيم الإسلامية». وأوضحوا أن ذلك «ما كانت ستوضحه الإعلانات القادمة التي تنتهج الأسلوب التدرجي في الإعلان».

العين الصهيونية

تطور صورة العربي في الأدب والتعليم الإسرائيلي

منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية من 29 ـ 31 أغسطس 1897 بدأت الجهود الصهيونية المكثفة في إقناع اليهود المعارضين لمبدأ وفلسفة الصهيونية التي تدعو إلى تكوين وطن قومي لليهود في فلسطين من خلال تحويل الأساطير إلى نظرية، وإحياء تلك الأساطير عن طريق الدعاية والأضاليل التي تأسست عليها الأفكار الصهيونية خوفاً من الذوبان الذي يمثل موت الفكرة الصهيونية أو فكرة القومية اليهودية. والذوبان اليهودي في الشعوب التي يعيشون فيها يخيف الصهاينة خوفهم من النار، فقد وجد الكثير من اليهود الذين يعادون الصهيونية ويرفضونها ويؤيدون الذوبان، ويناسبنا في هذا الصدد أن نورد تصريح «بروتون بيري» الحاخام الأمريكي الذي أعلن: إن القومية اليهودية لم تكن الآن ولا في أي وقت مضى تعبيراً عن آمال وآلام اليهود أو في أي بلد آخر، إننا نرفض البرنامج الذي يحول اليهود إلى أقلية منعزلة مغلقة ومنطوية على نفسها. إن اليهود مواطنون في الدول التي يعيشون فيها، ونحن نريد أن نكون في العالم المعاصر

أحراراً متكاملين تماماً في المجتمعات التي نعيش فيها، ولا نتميز بشيء ما عن أبنائها إلا من ناحية الدين فقط[1].

وقد واصل هرتزل ومعاونوه من الصهاينة نشاطهم في إقناع بعض الحاخامات الأوروبيين الذين أظهروا نوعاً من التأرجح والميل في اتجاه القبول بوطن قومي آخر لليهود ويكون في الأرجنتين، أو في أوغندا، يساندهم بعض اليهود الذين اكتشفوا زيف الدعاية الصهيونية القائلة بأن فلسطين أرض بلا شعب خاصة بعد انتقال قيادة المنظمة الصهيونية إلى أيدي العمليين وتسارع وتيرة الهجرة، إذ دخل فلسطين ما بين عامي 1905 ـ 1914م. عشرات الآلاف من اليهود وصل عددهم حسب المصادر الصهيونية إلى حوالي 85 ألف نسمة وأصبح لديهم 59 مستعمرة زراعية وحصلت على أثر هذا التكاثف بعض التصادمات بين أصحاب الأرض الفلسطينيين والغزاة المستوطنين، الأمر الذي أيقظ الوعي لدى بعض مفكري أوروبا الصهاينة بخطورة التعامل مع المشكلة العربية، فقد كان الأديب والمفكر اليهودي «أجاد هعام» 1856 ـ 1927م. أول من تنبأ بالمرارة التي ستخيم على علاقة العرب باليهود في فلسطين وعبّر عن نبوءته هذه في إحدى مقالاته التي نشرها عام 1811 إذ قال: «يروق للبعض منا تصور أن العرب ليسوا سوى مجموعة من البدو الرحل، وأنهم غافلون عما يدور من حولهم، ولكنهم يتفهمون حقاً كل شيء

(1) ينفيني يفسييف: الفاشية في ظل النجمة السداسية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، د. ت، ص. 26 ـ 27.

وشأنهم شأن الأوروبيين، ومن المؤكد أننا سنجد صعوبة بالغة في التعامل معهم». ومثل أجاد هعام سار الأديب إسحاق إبشتاين 1861 ـ 1943م. حيث قال: «إنه ليس من الممكن تجاهل الوجود العربي» وعبر عن فكره هذا في مقال تحت عنوان «القضية الغائبة» الذي نشر في عام 1907م. قال فيه: «يتعين علينا ألا نتجاهل المستقل وحذر من مواجهة هذا الأسد النائم الذي يعتقد البعض أنه لا يتحرك الآن: فوجود هذا الشعب لا ينقطع لحظة واحدة، وحذر في ذلك من الجمر الكامن تحت الرماد»[1].

وإذا كان المفكرون الأوائل من الصهاينة كانوا على وعي بخطورة الاستخفاف بالمشكلة العربية، فقد سعى البعض منهم إلى البحث عن حلول مثالية لإمكانية التعايش اليهودي العربي في فلسطين، فرأى اليهودي يهوشع بيلدمان 1880 ـ 1957م. الذي كان من أبرز أعضاء منظمة «بريت شالوم» التي تعنى بالعبرية حلف السلام ومنظمات أخرى أنشئت في فلسطين كانت تهدف إلى تحقيق التقارب اليهودي العربي فقال: «الأصل السامي هو نسبة إلى سام بن نوح المشترك للعرب واليهود على حدٍّ سواء كفيل بإيجاد لغة ومصالح مشتركة، لذا فقد أكدت عباراته هذه حتمية التواصل بين الطرفين (أي بين الشعوب السامية). ومن جملة ما قاله فلتختلط دماؤنا بدمائهم ولنعيش معاً

---

(1) ويل ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة دندراوي، مطبعة حسان، الجزء الثالث، مجلد رقم 33، القاهرة 1980م.

ولنشكل جنساً واحداً، إننا ننتمي إلى عائلة واحدة وراجت أفكاره لدى بعض اليهود في اوروبا وفي أوساط الأدباء الغربيين أن عرب فلسطين يعدون في حقيقة الأمر امتداداً لليهود الأوائل الذين أقاموا في فلسطين في مرحلة مبكرة من تاريخ البشرية، ومن ثم فإن من الأهمية أن نتعامل معهم. وكان الأديب «رائيف» الذي عاش 1847 ـ 1924م. من أبرز ممثلي هذا التصور.

وتعد قصة لطيفة التي أصدرها الأديب الإسرائيلي «موشيه سميلانسكي» 1874 ـ 1924 في عام 1911 من أهم إنجازاته الأدبية الذي أعرب عن انجذابه الرومانسي لمفردات الواقع العربي وتروي هذه القصة أن الأديب اليهودي وقع في حب فتاة عربية جميلة تدعى لطيفة فجاء فيها «من لم ير عيون لطيفة، لا يمكنه أن يقرر كيف يكون جمال العيون» كانت عيونها السوداء تشع بالبهجة كانت الحيوية تتدفق منها كجدول.

غير أن تحليلنا لهذه القصة تبعدنا عن شراك الخديعة للأدب الصهيوني ولا يمكن أن نتصور أن الغرض الرئيسي منها قصة الحب التي تشكلت بين مهاجر يهودي قدم من روسيا إلى فلسطين وبين هذه الفتاة العربية التي تدعى لطيفة، فالغرض الحقيقي من هذه القصة التي تكررت بأشكال عديدة ومتعددة في الروايات العبرية تقدم عالمين شديدي التناقض، ويرمز إلى أحدهما بهذا المهاجر الممثل لعنصر السلطة الوافدة، وإلى الآخر بشخصية لطيفة التي تمثل العنصر الأنثوي الذي

كثيراً ما يوجد في الأدب كرمز للأرض[1]، ومن ثم فحينما نسج هذا الأديب هذه العلاقة الجدلية بين السلطة والأرض، فقد كان الغرض منها الإيحاء بإمكانية التعايش بين الطرفين العربي واليهودي.

ويرى الأدباء الصهاينة الذين ظهروا فيما بعد على الساحة الأدبية في فلسطين في المرحلة السابقة لتأسيس إسرائيل أن دعوة الصهاينة القدامى ليست سوى ضرب من أحلام الطفولة. وكان «يوسف حاييم بنتر» وغيره قد قالوا إن هذه الرواية تعبر عن أنه لم يتم استيعاب مرارة الواقع ولا ندري كيف تحدث البعض عن محبة جيراننا العرب. ويجب أن نعلم أن عرب فلسطين الذين يتراوح عددهم الآن بين ستمائة وسبعمائة ألف يسيطرون على هذه الأرض رغم تدنيهم الثقافي ومن الضروري أن تسود الكراهية بيننا ولو أنهم قادرون على إبادتنا فسنبقى هنا ولعن الله من يتحدث بهذه الرقة عن المحبة.

أما الباحث «أدير كوهين» فقد قال في دراسته عن صورة العربي في أدب الطفل الإسرائيلي «إن قطاعاً عريضاً من الصهاينة الأوائل تمادى في تشويه صورة العربي وتحقيرها: فالعربي في هذا الأدب محتقر ومرابي بحيث لا يمكن لأحد أن يأخذه مأخذ الجد، ولديه تراث عريق من شهادة الزور، وصور أدب العشرينيات والثلاثينيات العربي في غاية السلبية»، فيقول «برينر» العربي مخلوق غريب يرتدي جلباباً ممزقاً وغطاءً قذراً للرأس وتلتف زوجته بثوب أبيض ويسير أطفاله حفاة... وهو ليس قذراً فحسب، بل هو أيضاً لص وكذوب وكسول وعدواني.

---

(1) مجلة الفكر العربي، العدد الرابع والتسعون، خريف 1998م، ص100

وبعد حرب 1948م. أي بعد إعلان دولة إسرائيل ونتيجة للجرائم والمذابح الشنيعة التي ارتكبها الصهاينة في حق العرب الفلسطينيين عبر بعض أدباء الصهاينة عن روح الصراع بين ممثلي الأيديولوجية الصهيونية الاشتراكية التي دعت إلى التعايش مع العرب وبين ممثلي التيار الصهيوني العدواني الذي ارتكب الكثير من المذابح والطرد وتخريب منازل وقرى بكاملها فوق رؤوس ساكنيها.. إلخ: ويعد الأديب «سملاتسكي» المولود في عام 1906م. من أبرز الأدباء الذين وجهوا أصابع الاتهام إلى السلطة الصهيونية لما ارتكبته من مذابح: وتعد رواية «الأسير» ورواية «خربة خزعة» من أبرز أعماله التي أعرب فيها عن المعضلة الأخلاقية التي أجبرته الحرب على الوقوف أمامها وعن تمزيق مشاعره بين فكرة الاشتراكي الداعي إلى التعايش مع الآخر أي العربي وبين إحساسه بأهمية الالتزام والانضباط لتنفيذ المشروع الصهيوني الرامي إلى تأسيس إسرائيل. ويتصور هذا الأديب الصهيوني الاشتراكي أنه كان يوجد ذات يوم مكان يدعى خربة خزعة لم يعد له أثر على الخارطة، فلقد طردنا سكانها وأتينا إليها وأطلقنا النار صوب كل شيء وأحرقناها ودمرناها ونفينا وأبدنا كل من وكل ما كان فيها، ويتساءل بقوله: «بحق الجحيم أي شيء نفعله في هذا المكان».

صدرت دراسة عن الجامعة العبرية في القدس أوائل التسعينيات للباحث «إيلي فودا» تقول إن كتب التدريس المعتمد في المدارس اليهودية لعبت دوراً مركزياً في تصعيد الصراع العربي الإسرائيلي في الماضي، ولا زالت تحول دون التراضي بين الشعبين وتحقيق السلام.

وقد تضمنت الدراسة تحليلاً دقيقاً وموثقاً للكتب التعليمية، تذكر الدراسة قصة الاستيطان بمنطقة مليس وإنشاء مستوطنة «بتاح تكفا الصهيونية» فتقول في كتاب رحلة من المستوطنات الأولى عن العرب الفلسطينيين في قرية مجاورة «كان الناس نحيفين وجوههم صفراء والذباب يتنزه عليها دون أن يحاولوا طرده وكثير منهم كانوا عميان يسيرون ممسكين ببعضهم البعض، أما الأولاد فيمشون حفاة وعيونهم مريضة وبطونهم منفوخة وآثار لسعات الحشرات بادية على أجسادهم».

وتظهر هذه الدراسة كيف أن العربي ظهر في الكتب المدرسية طوال فترة الصراع حتى عام 1948م. على أنه إنسان ظالم ومعتد، وأن اليهود ظلوا ضحية تلك الاعتداءات وتطلق على ثورة 1936م. الفلسطينية أحدث حرب عصابات، ويتم التركيز على أسطورة انتصار الأقلية اليهودية المتحضرة على الأغلبية المتخلفة من العرب، وأن نجاح اليهود وهزيمتهم للعرب هو تكرار وتذكار للأسطورة اليهودية «داوود وجوليات» وتؤكد الدراسات على أن جهاز التعليم استعمل أكثر من الجيش والشرطة لنشر صورة تراث الأمة وتعزيز الرابطة بين الفرد والدولة ضمن مسيرة بناء هذه الأمة: والملاحظ أن خطط التهجير والإبادة لم ترد في كتب التاريخ المدرسية.

وفي واقع الأمر فقد ولدت في إسرائيل صناعة تربوية كاملة منذ عام 1948م. هدفها العمل من أجل الفصل بين تاريخ ممنوع وتاريخ مسموح «في سياق بناء المسيرة الذاتية للصهاينة» فالكتب المدرسية لا تزود الطالب بالحقيقة، فقط تقدم له التاريخ المسموح به والحقائق

المثيولوجية، فقد استعملت كتب التاريخ التعليمية أساطير ورموز أخذت من مخازن الذاكرة الجماعية للمجتمع اليهودي وساعدت بذلك في إيجاد صورة للماضي وتدوينها بناءً على احتياجات الحاضر حيث تشمل تصورات خيالية للواقع والتاريخ. ويعتقد البعض أن التعليم اليهودي هو أساس قيام الدولة الصهيونية، فالمدارس الكهنوتية منذ المراحل الأولى للاستيطان تلقن الأجيال أن دولتهم هي أرض الميعاد وأن الرب مجد الجنس اليهودي. الأمر الذي يجعلهم يخرجون عن كل القوانين الدينية والدنيوية، أو كما قال الرئيس جيسكار ديستان للرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» في عام 1977م. «إن الإسرائيليين جميعاً خارجون عن القانون الدولي».

ونعود إلى الدراسة التي تقتبس من ما ورد بأحد المنشورات على مدار 40 عاماً وتشمل 60 كتاباً تقول: «إن هذه الكتب قادت إلى تكوين فكرة مسبقة لصورة العربي في ظل حالة الاغتراب وتطور الصراع، فأوصاف غشاش متخلف لص هي جزء من صفات أُلصقت بالشخصية العربية، وتمحورت المناهج الإسرائيلية حول تاريخ إسرائيل والشعب اليهودي، وقد وضعت هذه المناهج على أيدي متعصبين لا يفهمون شيئاً عن العرب والمسلمين».

إذا كان التعليم الصهيوني في إسرائيل قد قدّم صورة للتطرف والعنصرية من خلال ما تضمنته الكتب المدرسية وكتب التاريخ على وجه الخصوص من أكاذيب ودعاوى أساطيرية، فإن المؤتمر الصهيوني

الثالث والثلاثين المنعقد في القدس من 23 ـ 25/ 12/ 1997م. شدّد على ضرورة إحياء خطة العمل الخاصة بالتعليم وتجسيد التواصل (هغسما) الصهيوني بين جيل الشباب في الشتات والذي أكدت عليه توصيات المؤتمر في الآتي:

1 ـ تؤمن الحركة الصهيونية بأن التعليم الصهيوني اليهودي هو الوسيلة التي تساعد يهود الشتات في الاحتفاظ بهويتهم اليهودية وبارتباطهم الحي بدولة إسرائيل. وبفضل هذه الوسيلة، سيكتسب كل أبناء اليهود في إسرائيل والشتات عالماً من المفاهيم والثقافة واللغة، يحول دون انفصالهم وعزلتهم. ويشير مصطلح التعليم الصهيوني اليهودي إلى جميع التيارات العقائدية الروحية ـ الدينية في المجتمع اليهودي داخل إسرائيل أو في الشتات على السواء.

2 ـ اعترافاً بالدور المركزي للتعليم كوسيلة لضمان بقاء الشعب اليهودي، ستعمل الحركة الصهيونية على توفير ميزانية كافية لجميع أشكال التعليم ـ النظامي وغير النظامي في الأطر الاجتماعية والأكاديمية والحركية للأطفال والشباب والراشدين.

3 ـ أقرّ المؤتمر الصهيوني اعتماد برنامج لإعادة تأهيل التعليم الصهيوني ـ اليهودي في إسرائيل والشتات، بهدف حشد جميع الموارد المادية والبشرية لدى الشعب اليهودي، وإتاحة الفرصة أمام جميع أبناء اليهود في إسرائيل والشتات للإلمام بكنوز الثقافة اليهودية بتنوعاتها كافة. وسيشارك في إطار هذا المشروع كل المربين والمفكرين النشطين في التيارات العقائدية والدينية والروحية كافة (وهو ما يعني الاستمرار في

إحياء الأساطير والميثولوجيا والتزوير التي اعتمدت عليها الدعاية الصهيونية منذ إنشاء الحركة).

تعلم كتب الدين العقائد والشرائع والطقوس بطرق مباشرة وغير مباشرة. وسوف نذكر أمثالاً للتأكيد على مدى عداء اليهودية للآخرين: المثل الأول ـ في كتب للصف الثالث يتحدث عن آل يسرءل والمصريين. الكتاب يمتد إلى 230 صفحة، جميعها تروي القصة في تسلسل وصور توضيحية. أما صورة المصري فقد جاءت توراتية وسلبية للغاية (دروس في سفر العدد ـ قضية العدد/ أرسل: 2001). وأيضاً كتاب «في الصحراء» للمدرس والتلميذ يتحدثان بهذه الروح المعادية بشكل مطلق للمصريين (في الصحراء ـ مرشد للمعلم: 1994 في الصحراء ـ للطالب: 1997)[1].

المثل الثاني ـ في باب «الأغيار والمتهودين» من كتاب «أدب الأسئلة والأجوبة للمرحلتين الإعدادية والثانوية»، يناقش مؤلفو الكتاب قضية منع الأغيار من تعلم التوراة. ويقتبسون من الرمبام ـ موسى بن ميمون (1135 ـ 1204) قوله الشهير: «الجوى الذي يتعامل في التوراة يجب أن يُمات (يُقتَل»).

بين أيدينا كتابان وحيدان يدرسان، من جملة ما يدرس في هذه المدارس، مادة الدين الإسلامي، وهما: «رحلة إلى الماضي ـ من العصور الوسطى إلى العصر الحديث» و«من جيل إلى جيل ـ دروس في

(1) أحمد أشقر، وجهات نظر، آب 2005.

التاريخ» وكلاهما صدرا في العام 2001. يعرض الكتابان تاريخ العرب قبل الإسلام، فقط عشية ظهور الإسلام دون الغور في التاريخ القديم. أما صورة المجتمع العربي فهي أنثروبولوجية ـ استشراقية، ويكثر فيهما استعمال: «قبائل رحل»، و«بدو»، و«عبدة أصنام» و«الثأر». . . و«الغزوات المتكررة». الكتابان يشيران إلى أن بين العرب يهوداً ومسيحيين، إلا أنهم لا يذكرون أن النبي كان جزءاً من هذا التراث، وأن الإسلام يعتبر نفسه امتداداً له ولأتباعه. كذلك لا يذكران أنه كان من بين العرب الصابئة وهم أتباع يوحنا المعمدان النبي يحيى. ولا يذكران أيضاً أنه كان من بينهم الأحناف، وأشهرهم جدّ الرسول محمد. ولا يذكران أية علاقة للإسلام والمسلمين مع تراث وتاريخ النبي وأتباعه، علماً أنه الأصل البشري بالنسبة للإسلام والمسلمين. لقد شطب الكتابان أية حضارة فكرية كانت للعرب قبل الإسلام.

يبدأ الكتابان الحديث عن الإسلام بالحديث عن النبي محمد، بالقول إنه من قبيلة قريش وعمل بالرعي والتجارة عند السيدة خديجة، (. . .) وبعد عدة سنوات اتخذ مشغلته زوجة (من جيل إلى جيل ـ دروس في التاريخ؛ 198). لا شك أن في استعمال الكتاب «اتخذ مشغلته زوجة» له دلالة سلبية في الخطاب الذي يستعمل في الحاضر[1].

وعندما جاء الملاك جبرائيل إلى النبي محمد في غار حراء وطلب

(1) المرجع السابق.

منه أن يقرأ، يقول الكتاب: «محمد ادعى أنه لا يعرف القراءة». والادعاء ليس فيه جزم، علماً أن النبي محمداً جزم بذلك. ولو كانت نيّة مؤلف الكتاب سليمة لاستعمل المصطلح الذي يدل على الجزم.

وعن القرآن يورد الكتاب ما يلي: «محمد أعطى المسلمين كتاباً مقدساً باللغة العربية». دون أن يذكره مصدره. والقرآن بحسب نفس المصدر «في القرآن 114 فصلاً تحتوي على خطابات محمد ورؤياه».. وفي الكتاب الآخر مكتوب: «حسب التراث الإسلامي محمد طار من مكة إلى يروشليم ـ أفضل استعمال الأسماء الأسماء كما وردت في المصدر أ ـ على ظهر حصان عجيب، اسمه البراق. محمد ربط الفرس إلى أحد حجارة الهيكل في طلعة جبل البيت. ومن هناك صعد إلى السماء وأنزل القرآن» (من جيل إلى جيل ـ دروس في التاريخ؛ 2001). هذا يناقض ما ورد في الكتاب الذي سبقه، ويجافي الحقيقة. بالطبع ليس هذا ما يقوله القرآن والنبي محمد، لا يؤمن به المسلمون. لو كان الكاتبان منصفين لذكرا الرأي الإسلامي، ثم عقبّا على ذلك برأيهما[1].

وعن يهود المدينة جاء في الكتابين: «وأيضاً غير محمد وجهة نظره تجاه يهود المدينة وبدأ الحرب ضد قبائل اليهود التي كانت تقطن في المدينة. وذلك اضطرت قبيلتان إلى مغادرة المدينة، وتركوا فيها كل أملاكهم (...) ومصير القبيلة الثالثة، بني قريظة، التي خرجت لمحاربة محمد كان مختلفاً: قُتِل الرجال من أبنائها، أما النسوة والأولاد فبيعوا

(1) المرجع السابق.

عبيداً». وفي الكتاب الآخر لا تختلف الصورة التي ذكرناها للتو، فيقول: «في أحد الصدامات قتل أتباع محمد كل رجال أحد القبائل اليهودية، وباعوا نساءهم وأولادهم للعبودية. قام محمد بتوزيع جميع ممتلكات القبائل اليهودية بين أتباعه من يثرب الذي يزيد باطراد»[1].

قولبة الدعاية الصهيونية للشخصية العربية:

وضعت إسرائيل والصهيونية صورة العرب ضمن قوالب جاهزة صممت مادتها من مقولات وتصورات ومفاهيم عنصرية. وتتعدد الجوانب التي تعرضت للقولبة المتعلقة بحياة الأمة العربية. وترسم الدعاية الصهيونية صوراً للعرب يبدون فيها مجرّدين من كل القيم الإنسانية ومن إمكانية نجاحهم في تحقيق مشروعهم القومي. فتركز هذه الدعاية على إظهار العرب بمظهر الشعوب الهمجية المتأخرة المتعطشة للدم والتي تريد القضاء على دولة إسرائيل (الصغيرة المسالمة).

وتبرز الدعاية الصهيونية العرب على أنهم قوم متخلفون يرفضون التقدم الحضاري، وأن نظام الحكم العربي دكتاتوري متعصب لا يريد سوى مهاجمة إسرائيل والتخلص منها، بل ويتخذ من وجود إسرائيل ذريعة لبقاء نظم عسكرية عنصرية رجعية، وأن هناك درجة كبيرة من عدم التنظيم في شؤونهم السياسية والإعلامية. كما أن تلك الدعاية تحاول التشكيك في مبدأ الوحدة العربية في المجالات المختلفة. كما تبرز ما

(1) المرجع السابق.

تسمّيه «الوحشية العربية في اضطهاد اليهود والأقليات الأخرى». وتزعم أن هذه الدول تبلغ في تعصبها الحد الذي يجعلها عندما تستقبل المبادىء السياسية العصرية الغربية، تصبغها بصبغة محلية تفقدها معناها ومدلولها العصري[1].

ويورد سميح القاسم (الأديب العربي المقيم في فلسطين المحتلة) بعض التعبيرات التي تستخدمها الدعاية الصهيونية لدى تقديم العربي إلى العالم، ومن الأوصاف التي تلصقها به: رجل أشعث ـ حاد النظرات ـ غدار ـ يخفي في ثيابه خنجراً رهيباً ـ لا تكاد تدير ظهرك حتى ينقض عليك بطعنة نجلاء ـ متخلف ـ قاسٍ ـ همجي ـ هوايته القتل ـ سادي ـ قاتل أطفال ـ جبان ـ رعديد ـ كذاب ـ منافق ـ قذر ـ فظ ـ ساخط ـ لئيم ـ حقود. . . إلخ.

ثمة تشابه في مظاهر الصور النمطية عن العرب، لدى الناشئة والعامة والمسؤولين في الكيان الصهيوني. ولعلّ في صدارة هذا التشابه ارتباط الصور بحرمان العرب من الشرعية، وفق عدة أشكال ومستويات. ويدفع هذا الحرمان عملية تكوين الصور النمطية السلبية عنهم إلى الذروة، حيث يتم إخراج العرب من دائرة المجموعات البشرية التي ينظر إليها بطريقة إيجابية أو بشكل عادي، بل ويجري عبر هذا الحرمان استثناء العرب من دائرة الجماعة الإنسانية. وحسب دراسة دانئيل بارتال

---

(1) إبراهيم عبد الكريم، التواصل، العدد الخامس.

(عالم النفس الاجتماعي في كلية التربية بجامعة حيفا). هناك عدة طرق لإضفاء «اللاشرعية» على العرب منها[1]:

أ ـ «لا شرعية بسيطة»، وفيها يوصف العرب بأنهم كائنات تحت بشرية (بيغن: حيوانات تسير على قدمين، إيتان: صراصير مسمّمة، شامير: جنادب) أو شياطين متعطشة للدماء.

ب ـ معاملة العرب كمجموعة انحراف (مضطربين عقلياً، مشاغبين، لصوص، إرهابيين).

ج ـ استخدام مزايا سلبية متطرفة (عدائيين، متعصبين).

د ـ أوصاف سياسية محددة تحوّلت مع الأيام إلى مفاهيم تشير إلى السوء والخطر العام على البشرية (فاشيين ـ نازيين).

هـ ـ مقارنة مجموعات إثنية تاريخية ترمز إلى الشر (متوحشين، مخربين، . . . إلخ).

وخلال يوم دراسي عقد تحت عنوان «العربي في الإعلام الإسرائيلي من يوم الأرض وحتى الانتفاضة» (نظمه معهد إميل توما للدراسات الفلسطينية والإسرائيلية ومركز الجليل للأبحاث بالتعاون مع المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية في رام الله) تبيّن بحسب تأكيد البروفسور خليل ريناوي (المحاضر في قسم الإعلام بالكلية الأكاديمية للإدارة ومدير مركز الجليل للأبحاث الاجتماعية في حيفا) أن الإعلام

(1) المرجع السابق.

الصهيوني عمل بشكل منهجي، منذ ما قبل قيام إسرائيل وحتى اليوم، على سحب الشرعية عن العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص وقد تمّ ذلك إما بتوجيه مباشر من السلطة أو بسبب جهل الإعلاميين الإسرائيليين للعرب أو تمشياً مع التيار المركزي والإجماع الصهيوني وإرضاء الأكثرية اليهودية. ومن جانبه أكد الصحافي هانس ليبرخت الذي يعمل في الصحافة الأجنبية منذ أكثر من خمسين عاماً أن الصهيونية عملت قبل قيام الدولة على نزع الشرعية عن العرب وحقهم في الوجود على أرضهم وفي وطنهم، وعملت وسائل الإعلام الصهيونية ولا تزال تعمل حتى اليوم على تكريس هذا الوضع وتجذيره في الوعي الإسرائيلي. وإن الإعلام الإسرائيلي ـ كما يؤكد الكاتب سلمان ناطور ـ يحاول تهميش شخصية العربي، وقد سقطت في السنوات الثلاث الأخيرة كل الأقنعة عن هذا الإعلام فظهر مدى تماهيه مع المؤسستين العسكرية والسياسية. وتلاحظ البروفيسورة تمار ليبّس (رئيسة قسم الإعلام في الجامعة العبرية في القدس) أن الإعلام الإسرائيلي كان ولا يزال يخضع لهيمنة الخطاب الصهيوني الإسرائيلي في تعامله مع العرب.. وقالت د. عنات فيرست (المحاضرة في كلية نتانيا) إن العرب يظهرون في وسائل الإعلام الإسرائيلية على أنهم «مشاغبون ويمسون بالنظام العام».

يقول الباحث الفلسطيني عدنان أبو ناصر[1] إنه في كتاب الجغرافيا:

(1) عدنان أبو ناصر، مجلة النور، آب 2004.

«أرض إسرائيل الطبيعية والاقتصادية»، للمدارس الثانوية ومعاهد المعلمين تأليف د. منسيه هرئيل ود. دوفانير، ورد في الصفحة الثالثة والخمسين بعد المئة: «منذ الاحتلال الإسلامي خربت مدن النقب العظيمة، واضمحلت الزراعة وهدمت الطرق التجارية». كما ورد فيه أيضاً عن مدينة يافا: «إنه بعد الاحتلال الإسلامي للبلاد، تردّت مكانة يافا، ثم تلاه تردٍّ آخر في العهد العثماني الذي تلا العهد المملوكي، فتلك ظاهرة أصابت موانىء شرق البحر المتوسط كافة إثر تحول التجارة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح».

كتاب الجغرافيا للصف الخامس، تأليف د. اكيطوف ود. آرني ورد فيه الآتي: «وبقوة السيف أجبر العرب الشعوب المغلوبة على القبول بدين محمد فلم يكونوا ليعرفوا الشفقة في الحرب، فقد فنيت قبائل كثيرة، ورفضت أن تقبل الدين الإسلامي» (ص102).

كتاب: «دولة إسرائيل وانتشارها في عصرنا»، (فصول تعليمية لتلاميذ المدارس الثانوية) تأيلف ميخائيل زيف، ورد فيه حول مكانة المرأة في الإسلام التالي: «إن المرأة العربية متدنية فهي لا تنعم بأي نسمة من نسائم الحرية منذ ولادتها ولا تفرح بها العائلة، حقوقها مهضومة، وتتزوج وهي صغيرة رغم إرادتها، وترتبط بعد زواجها بأسرتها لتكون وصية عليها، وغالباً ما تحرم من الميراث من أبيها، والمرأة تعمل في البيت رغماً عنها من الصباح إلى المساء، ويتزوج العربي أربع نساء بالإضافة إلى الجواري، وهذا شائع في الطبقات الغنية ويقل عند الفقيرة منها».

كتاب: «الأقليات في إسرائيل: المسلمون والمسيحيون والبهائيون والدروز»، تأليف: زئيف فلتائي حيث نجد إنكاراً للحضارة وللوجود العربي والإسلامي، فقد ورد في هذا الكتاب: «إن العرب بدأوا بالاقتراب من حدود إسرائيل التي كانت تحت حكم البيزنطيين المسيحيين حتى العام 15هـ (638م.)، أي أنهم لم يستوطنوا هذه البلاد إلا بعد الاحتلال الإسلامي لها» (ص29).

كذلك فإن الكتب المدرسية تكرس نظرة مغايرة للواقع تجاه العرب والمسلمين ومثال ذلك بعض ما جاء في كتبهم المقررة:

في كتاب «روما في عظمتها وسقوطها، العرب والإسلام» تأليف شعبة المناهج التعليمية التابعة لوزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية، بإشراف البروفيسور غلومر، والبروفيسور حوالتسيروس يافه نقرأ ما يلي: «إن علاقة النبي محمد بزوجته خديجة بدأت عن طريق عقد اتفاقية قران بين الاثنين، وزواجه من خديجة هو الذي جعل منه رجلاً ذا شأن وجاه» (ص71). ثم يضيف: «إن محمداً زار سوريا وإسرائيل وتأثر كثيراً بالنظام السياسي المتطور لهذه الدول إلى جانب تأثره بالديانات الموحدة وخاصة اليهودية» (ص72) و: «إن محمداً كان يأمل أن ينضم إليه اليهود (يهود المدينة) حيث لم يلحظ أي تناقض بين أقواله وبين معتقدات اليهود» (ص74). وإن «محمداً أمر المسلمين بالتوجه في صلاتهم نحو الكعبة بدل القدس بعكس ما كان الحال في بداية الدعوة، أي حين كانت علاقته جيدة باليهود» (ص78)، وورد كذلك «إن الأحاديث التي نقلها إلى المؤمنين برسالته كتبت ووضعت في كتاب دعي فيما بعد

بالقرآن»، ويتابع هذا الكتاب افتراءاته ومزاعمه ضد الإسلام والرسول(ص) فيقول مثلاً: «إن السبب في بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة يعود إلى اعتماد المسلمين على المعتقدات اليهودية، التي تقدس جبل الهيكل «هيكل سليمان» (ص91). وفي (ص104) ورد في تهجمهم على الخلفاء المسلمين: إن الخليفة العباسي كان يقضي يومه في شرب الخمر وإقامة الحفلات. وعززوا أكاذيبهم بصور نشرت مع ما ذكر في الكتاب. وهي عبارة عن امرأتين تقومان بالرقص وتلوحان بزجاجات الخمر في قصر الخليفة العباسي في سامراء شمال بغداد.

وأخيراً من نافل القول أن المناهج التربوية في مجملها ترتبط بالسياسة القائمة وإن لكل منهاج فلسفة يستند إليها، إلا أن المنهج التربوي الإسرائيلي يعتبر من أكثر المناهج المرتبطة بالإيديولوجية الصهيونية وخطة الدولة العبرية، بل إن هذا المنهج هو صانع الإطار الفكري العام للجيل بعد ما يتم عزله عن أهله ويتفرغ لعملية الإعداد التربوية والتعليمية.

من ذلك كله يتبين لنا أن العملية التربوية في الكيان الصهيوني تقوم على الكفايات التالية: على الصعيد التعليمي فإن الخوف من الآخر وقتاله هو الحل الوحيد للعيش والاستمرار في الحياة، كذلك فإن تحديد العدو هو الهاجس الأساسي الي يجب تعلم كل شيء من أجل إبادته. أما على الصعيد التربوي فيجب على اليهودي أن يكون شرساً في تعامله مع الآخرين وأن لا يلين لهم مهما كانت الظروف، وأن يكون سيداً من خلال قهر كل من حوله، وأن يكون بطلاً بطاشاً دون رأفة.

هذه الكفايات هي التي جعلت الجرائم الصهيونية تزداد يوماً بعد آخر، فمن الأعمال الإجرامية لعصابات الهاغاناه والأرغون والشتيرن التي تميزت بنوع من التنظيم الإجرامي إلى إرهاب الدولة المنظم الذي مارسته إسرائيل ولا زالت، سلبت الحركة الصهيونية كل مكامن الخير من قلوب اليهود، ولم يبق سوى هذا الحقد الذي كرسته المناهج التربوية التوراتية التلمودية.

التأريخ الأعمى

برنارد لويس

«برنارد لويس» لمن لا يعرفه مستشرق يهودي ولد في لندن عام 1916. ويعد أشهر مؤرخي الشرق الأوسط، وأشدهم تأثيراً على الإطلاق، على امتداد نصف القرن الأخير.

يقول الدكتور حمدي السكوت[1]: إن برنارد لويس من القلة الأوائل الذين طبقوا المناهج الجديدة للاقتصاد والتاريخ الاجتماعي على العالم الإسلامي، وقد تخرج على يديه عدد كبير من أساتذة التاريخ العرب أثناء عمله الطويل في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن SOAS وهي الكلية التي درس بها، حتى حصل على الليسانس والدكتوراه على يد المستشرق البريطاني الكبير «هاملتون جب» في عام 1938، وعين بها «مدرساً مساعداً» في العام نفسه. لكن الحرب العالمية الثانية اندلعت في العام التالي، وانتقل لويس إلى مخابرات وزارة الخارجية البريطانية في الشرق الأوسط حتى نهاية الحرب. ثم عاد إلى لندن واستأنف عمله بالكلية لمدة ثلاثين عاماً (1944 ـ 1974)، لينتقل

---

(1) حمدي السكوت، مجلة العربي، أيار 2005.

بعد ذلك إلى أمريكا أستاذاً بجامعة برنستون من 1974 حتى 1986، حين تقاعد عن العمل الرسمي، لكن ظل يمارس نشاطه بها أستاذاً فخرياً حتى الآن.

ومنذ فجر شبابه، كان لوسي يجيد عدداً من اللغات من بينها العبرية والعربية والتركية والفارسية، إلى جانب الإنجليزية والفرنسية. كما أفاده عمله في المخابرات البريطانية في أن ينتقل بين بلدان الشرق الأوسط لسنوات الحرب كلها، ويطلع ـ بالطبع ـ على المعلومات والوثائق السرية، ويتصل اتصالاً مباشراً بشعوب المنطقة أفراداً وحكاماً. وبعد الحرب عاد لويس لجامعته ليصبح في عام 1949 رئيساً لقسم تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط، الذي أنشىء وقتها بسبب ظروف الحرب. وعقب تعيينه في هذا المنصب الجديد أوفد في مهمة علمية لمنطقة الشرق الأوسط لمدة عام، لكن المكتبات العربية كلها أوصدت أبوابها أمامه، بسبب قيام دولة إسرائيل في العام السابق لمجيئه، وأدى ذلك إلى تحقق بعد جديد في تكوينه الأكاديمي، فقد كان البلدان اللذان استقبلاه في المنطقة ـ بجانب إسرائيل ـ هما تركيا، التي قضى بها معظم الوقت، وإيران التي كانت زيارته لها فاتحة لزيارات كثيرة لاحقة. وفي تركيا، اطلع على كنوز المخطوطات العربية وعلى «الوثائق الامبراطورية، العثمانية»، التي أتيحت لأول مرة لغير الأتراك في ذلك الوقت، وهي وثائق بالغة الأهمية لدراسة تاريخ البلاد التي خضعت للحكم العثماني كالدول العربية أو التي ارتبطت بتركيا بعلاقات من نوع ما كإيران.

معركته مع إدوارد سعيد

لكن موضوعية لويس ما لبثت أن أخذت في التكشّف شيئاً فشيئاً لأذكياء القرّاء الذين لاحظوا أن أعماله منذ أواخر الخمسينيات، وعلى نحو أوسع بعد انتقاله إلى أمريكا، تخفي وراءها أهدافاً دفينة لخدمة الصهيونية، والإساءة إلى العرب والمسلمين. وكان كتاب «الاستشراق» (1978)للناقد الأدبي والمفكر الكبير المرحوم إدوارد سعيد أول ما نبه ـ بقوة وإقناع ـ إلى هذه الحقيقة. فلقد هاجم إدوارد سعيد «الدراسات الحديثة للإسلام» في دول الغرب، ورأى أنها ليست سوى وسيلة للهيمنة الإمبريالية، وزاد على ذلك، فقرر أن «الاستشراق، الذي هو في الواقع شكل من أشكال العنصرية، قد شوّه الإسلام ووصمه بالجمود واللاعقلانية والعداء الدائم للغرب».

ووصف الكتاب «لويس» بالذات، بأنه «أكاديمي، تُوهم أعماله بأنها دراسات منهجية موضوعية بريئة من التعصب، لكنها في الواقع توشك أن تكون دعاية ضد موضوع تخصصه»، أي ضد العرب والمسلمين.

ودافع لويس بأن الاستشراق هو أحد مظاهر إنسانية أوروبا، وأنه نشأ مستقلاً عن الاهتمامات الامبريالية، بل وأحياناً معارضاً لها، كما رفض فكرة أن العرب والمسلمين والمتعاطفين معهم سياسياً هم وحدهم القادرون على دراسة منطقتهم. ورأى في ذلك ضرباً من «الحماية» الفكرية.

لكن الواقع أن كتاب الاستشراق، والجدل الذي ثار بعد صدوره في

أوائل الثمانينيات، بين إدوارد سعيد ولويس، هزّ من مكانة لويس وأحدث أثراً عميقاً في الدوائر الأكاديمية في الجامعات الغربية، وأخذ المؤرخون الغربيون في هذا الحقل يدركون أن أعمالهم يقرؤها أيضاً عرب ومسلمون. واستحال لويس من شخصية علمية محترمة إلى أكاديمي مثير للجدل. وبخاصة بعد أن أصبح شخصية عامة في أمريكا، وكثرت مقالاته السياسية والصحفية.

برنارد لويس
الباحث دائماً عن مبرر لمحاربة الإسلام

في مقال مطوَّل له كُتب عام 1954، يقول برنارد لويس[1] عن القواسم المشتركة والمختلفة بين الإسلام والشيوعية:

سأحاول في هذه المقالة تحديد مدى التقارب بين الإسلام والشيوعية ـ أي إلى أي مدى يحضّر الإسلام المسلمين لتقبّل التعاليم الشيوعية أو نبذها (. . .).

وبالتالي، ينبغي أن نطرح السؤال الآتي: في ظل المنافسة الحالية بين الديموقراطيات الغربية والشيوعية السوفياتية لدعم العالم الإسلامي، ما هي العوامل أو الميزات المتوافرة في التراث الإسلامي أو في الوضع الحالي للمجتمع والرأي العام الإسلامي التي قد تحضّر الجماعات الفاعلة فكرياً وسياسياً لتستوعب مبادىء الحكم الشيوعي وأساليبه، وتحضر الآخرين لتقبلها أيضاً؟ (. . .).

في معظم أنحاء العالم، تنتشر الديكتاتورية وتمارس أكثر من

(1) برنارد لويس، مجلة الشؤون الدولية، لندن، كانون الثاني 1954.

الديموقراطية، حتى لو كانت أقل جاذبية منها. كما أن الديكتاتورية التعسفية والمتقلبة في موسكو ليست غريبة أو منفرة بالنسبة لمعظم دول آسيا وأفريقيا ـ بل وأوروبا ـ كما هي بالنسبة إلينا. علينا بذل قصارى جهدنا لنشجع نمو المؤسسات الحرة أينما كان ذلك ممكناً، إنما في الوقت عينه، علينا أن نتذكر بأن الديموقراطية تبقى ـ بالنسبة إلى معظم الجنس البشري ـ أمراً بعيداً، غريباً ومبهماً، مثيراً للدهشة أحياناً بل والحسد. كما أنه غالباً ما يولّد، ويا للأسف، شعوراً بالارتياب والكراهية الذي علينا الاعتراف بأنه ليس حكماً مجحفاً تماماً حين نتذكر أمثلة الديموقراطية التي عايشها البشر. وإذا أجبر المسلمون على أن يختاروا أن يتخلوا عن عاداتهم من أجل الشيوعية أو البرلمانية، فالوضع ليس لمصلحتنا.

لكن من حسن حظ الإسلام والعالم الغربي، لا يقتصر الخيار على هذين الاحتمالين البسيطين. فما زال بإمكان المسلمين أن يلجأوا إلى تراثهم الخاص، مع تعديله بعض الشيء؛ وإلى أن يطوروا شكلاً حكومياً ما زال بعيداً عن استبدادية الديكتاتورية ذات الأسلوب الأوروبي، على الرغم من تسلطه وربما أوتوقراطيته ـ لا أود أن أُفهَم بشكل خاطىء ـ فأنا أفضّل أن أرى جميع المسلمين يتمتعون بفوائد الحكومة الدستورية والحرية الديموقراطية والنمو الحر للفرد، ولا أستبعد أبداً تحقيق هذا الإنجاز المرغوب فيه والذي بدأ بالظهور في بعض الدول المحظوظة. ولكن أود التوضيح بأنه، برأيي الخاص، من المستبعد أن يتمّ هذا الإنجاز في كثير من دول العالم العربي. فالظروف

الحالية والتقاليد الإسلامية القديمة، ليست في مصلحتنا بالكامل؛ بل على العكس من ذلك، تحوي الكثير مما قد يدفع الفرد أو الطبقة أو الأمة المسلمة، المستعدة للتخلي عن القيم والمعتقدات التقليدية، إلى أن تختار الشيوعية على الديموقراطية.

سأختار الآن وأناقش بعض العناصر التي بدت لي الأكثر أهمية في دعمها لنجاح الشيوعية في العالم العربي، وسأصنفها نوعين: النوع الأول هو العرضيات التي تشكل جزءاً من الوضع التاريخي الحالي، والثاني هو الأساسيات الفطرية أو المتأصلة في جوهر المؤسسات والأفكار الإسلامية.

إن أول العرضيات وأهمها هو مناهضة الغرب. فالشيوعيون ضد الغرب ولهذا السبب يستطيعون الاتكال على عناصر دعم مهمة من العالم العربي، مثلما استطاع النازيون أن يتكلوا في وقتهم على عناصر الدعم عينها وللأسباب نفسها إلى حد معيّن. فالشيوعيون، مثل النازيين، يناهضون الغرب على صعيدين: فهم ضد القوى الغربية كما أنهم ضد نمط العيش والمؤسسات والأفكار الغربية. في كلتا الحالتين، يشكل الغرب عنصر جذب قوي. وقد باتت التحركات المناهضة للغرب في العالم الإسلامي واضحة ومعروفة. فبعد فترة الإعجاب والتقليد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثمة اليوم نفور عام ومتزايد. ويرتكز اهتمام الشعب اليوم على سلسلة احتجاجات معينة يطلقها العالم العربي ضد الغرب (كالمغرب وتونس والسويس والسودان وفلسطين وعبادان التي اعتبرت جميعها السبب الرئيسي وراء التحريض على مناهضة الغرب).

ثمة دائماً من يسعى في الغرب إلى إشعال الفتنة وإطلاق الأفكار المسبقة عبر نسبة كل الجرائم إلى أكباش الفداء المفضلة عندهم - الفرنسيين أو اليهود، الأمريكيين أو البريطانيين - وسيجدون دائماً لهذا من يدعمهم دعماً فعلياً في الشرق. ويميل المسلمون إلى التركيز على أهمية مسألة معينة عبر تقدير مدى ارتباطهم بها، بينما يشدد الغربيون على أهمية المسألة عينها عبر تقدير مدى بعدهم عنها. في الواقع، تشكل كل هذه الأمور عوارض أو مظاهر نفور أساسي وعالمي من كل ما هو غربي (. . .).

إن الحركات الليبرالية والدستورية في الدول الإسلامية، والتي أطلقت بتفاؤل شديد في القرن التاسع عشر، كان مصيرها الفشل وخيبة الأمل والإحباط. فقد وقع جميع القادة المحليون في فخ الازدراء والانتهازية مراراً، مما أثار سخط الحس الأخلاقي لدى الذين تعهدوا بقيادتهم أو دفعهم إلى تعصب شديد، رافضين الأجانب ومدينين من غير تميز كل ما هو غربي. فقد عبروا عن الرفض الأعمى للشعوب ضد القوى الأجنبية القوية التي زعزعت نمط حياتهم التقليدي ودمرت توازنهم الاجتماعي التقليدي وأضافت مشاكل جديدة لم تقدم لها حلول ناجعة. ليس من العدل بالطبع بأن يلقي المسلمون اللوم على الغرب في ما يخص تهوّر مصلحيهم وعدم كفاية برلمانييهم وأنانيتهم. لكن علينا الاعتراف بأن سجل الغرب حول تعامله مع العالم الإسلامي وتدخله في شؤونه الداخلية، لا يدحض هذه الادعاءات تماماً.

بالتالي، يمكن لدعاية الفكر الشيوعي ضد الغرب أن تتكل دائماً

على رد فعل جاهز، لا سيما حين يلوّح بالموقف المناهض للإمبريالية.

قد يبدو غريباً لنا أن تتمكن الإمبراطورية السوفياتية التي ما زالت فاعلة بقوة على الرغم من فشلها في نصف أوروبا، من أن تلعب بنجاح دور بطل حقوق الشعوب المكبوتة ضد الإمبرياليين، وأن الدولة التي تحكم بقبضة حديد العديد من الشعوب المسلمة تستطيع رغم ذلك أن تستمر بلعب دور البطل مع شعوب مسلمة أخرى. ولكن هذا هو الواقع؛ إذ بالنسبة إلى معظم الشعوب المسلمة، فإن مفهوم «الإمبريالي» ـ وأتكلم هنا بالطبع عن المعنى المتداول للمفهوم ـ هو مفهوم محدود نوعاً ما ودقيق بشكل مدهش. فالإمبريالي غربي دائماً. وفي الواقع «الإمبريالي الغربي» هو تلازم لفظي طبيعي ومعتاد، مثل الحصبة الألمانية أو الأنفلونزا الإسبانية. ولا يخطر ببال العرب المناهضين للإمبريالية للحظة بأن أجدادهم المفترضين ـ الذين هزموا امبراطورية تمتد من جبال البيرينيه إلى نهر جيحون Oxus ـ كانوا إمبرياليين أيضاً. ولا يعلم الفرس بأن أمجاد سيروس وداريوس العظيمة كانت أيضاً ذات طبيعة إمبريالية. حتى اليابانيون العصريون، ما عدا بالطبع ضحايا الإمبريالية المباشرين، يعتبرون نوعاً ما مختلفين وينتمون بالأساس إلى الخراف لا الماعز ـ خراف سوداء ـ لكنها ما زالت خرافاً. فالإمبريالي ذو النموذج السائد، أي ممثل السياسة الشيطانية المعاصرة في الشرق، هو غربي، كما أنه ملاح وتاجر دائماً. فالإمبريالي شخص يعبر البحار على متن سفينة، يرسو على الشاطىء، يشتري ويبيع، يجري أعماله محلياً، وأخيراً، عبر سبل مختلفة، معظمها غير نزيهة، يفرض سلطته وحكمه.

هذا بالطبع تبسيط وبشكل ما تشويه لما مرّ به معظم شعوب آسيا وأفريقيا على يد المستعمرين البرتغاليين والألمان والفرنسيين والبريطانيين منذ القرن السادس عشر. وقد شكلت هذه التجربة الاحتكاك المباشر الوحيد لمعظم هذه الدول في القرون القليلة الماضية مع ظاهرة الإمبريالية. أما النوع الآخر، أي التوسع العسكري البري، فلم يُفهم بالفعل، إلا من قبل الذين اختبروه مباشرةً. فقد طورت تركيا، على سبيل المثال، استراتيجية دفاعية ضد المراحل المتوالية للتقدم الروسي البري، أولاً نحو البحر الأسود ثم عبر البلقان وبلاد القوقاز: علاوة على ذلك، تتصل تركيا عبر اللغة والأصل بشعوب التتر الذين يخضعون اليوم للنير السوفياتي. وبالتالي، يتمتع الأتراك بأكبر قدر من الوعي حول طبيعة الإمبريالية السوفياتية ولديهم أكبر عدد من الآراء المتباينة حول مشاكل العالم الحالية.

أما في سائر العالم الإسلامي، فقد تُفهم الإمبريالية السوفياتية فكرياً في بعض الأوساط، لكنها تفشل بأن تستثير أي تعاطف فعلي. وما يسترعي الانتباه، هو أن الرأي العام الإسلامي يرفض عادة أن يولي المراكز الثقافية الإسلامية القديمة، مثل بخارى وسمرقند، أي اهتمام يذكر مقارنةً بالمراكز أمثال الدار البيضاء والإسماعيلية وعبدان. بالإضافة إلى ذلك، غالباً ما يقول مناهضو الشيوعية ـ وقد سمع أكثرنا هذا التعليق ـ «على الأقل، الروس ليسوا إمبرياليين»، ويعتقدون فعلاً بأن النظام السوفياتي، على الرغم من سلبياته الأخرى، يخلو نوعاً ما من هذه الوصمة المعينة التي تجعل القوى الغربية مقيتة إلى هذا الحد. وتجدر

الإشارة هنا إلى أن الروس قد استفادوا من التمييز العرقي واللوني في الغرب وعدم ممارستهم عنصرية مماثلة. لقد شكل هذا الوضع نقطة إيجابية كبيرة لمصلحة آسيا وأفريقيا، وقدم إليهما على طبق من فضة.

أما العرضية الثانية التي سأناقشها هنا، فهي النقمة الحالية في العالم الإسلامي، لا سيما النقمة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي؛ إذ يعتبر فقر الشعوب المدقع والاستهتار الشديد للطبقات المالكة كمصدر خطر محتمل. وبالطبع، لا يشكل التحذير من الخطر الجاثم على الحرية والممتلكات أي تهديد على الذين لا يملكون هذا أو ذاك؛ على العكس من ذلك، تشكل الأفكار الشيوعية ووعودها مركز جذب لمجموعات مهمة في مجتمع يشبه إلى حد بعيد، كما أشير مراراً، المجتمع الروسي على عتبة الثورة.

لا داعي لأن أسهب في الكلام عن هذه النقطة البديهية لأنها نوقشت كثيراً في السابق. لكني أود أن أذكر ثلاث حقائق قد تخطر على بالنا حين نتكلم عن الفقر الموغل في القدم واستهتار الشرق. الحقيقة الأولى هي أن الفقر، مهما كانت درجته في شكله الحالي ليس قديماً. لا شك في أن الفجوة بين الغني والفقير موجودة منذ الأزل، إنما كما يتبين لنا، لم تكن في السابق واسعة وعميقة كما هي حالها اليوم.

هذه الفجوة هي إلى حدٍّ بعيد، في وضعها الحالي، نتيجة التأثير الغربي الذي كان يهدف إلى جعل الغني أغنى والفقير أفقر. فمشكلة التأثيرات الاقتصادية للغربنة والاتصال بالغرب مشكلة معقدة. أقترح هنا أن نذكر جانبين لها: الأول هو الفرصة الكبرى لجمع الأموال الناتجة

عن تقنيات الغرب الصناعية والتجارية والمالية، وما يترتب على ذلك من نمو للثروات لا تعرفه الاقتصادات السابقة والبسيطة؛ أما الجانب الآخر فهو التزايد السريع في عدد السكان نتيجة للوقاية الصحية والأمن الغربيين، ولكنه ارتفاع لا يترافق مع أي زيادة في إمدادات الطعام.

بالإضافة إلى ذلك، ليس البون بين الغني والفقير أكبر من قبل فحسب، بل الأهم من ذلك، بات ظاهراً أكثر بسبب إدخال المجاملات الغربية وتدفق البضائع الاستهلاكية الغربية مما يزيد إمكانات التباهي الاجتماعي والتمتع بالثروات. وليست هذه التغييرات ناتجة عن شرور الغرب ولا حتى عن التدخل المباشر للغربيين؛ بل هي نتائج عملية الاتصال الغربي والتأثير الغربي والغربنة بشكل عام. ويتحرك الغرب اليوم لتصحيح هذه النتائج، ويمكنه أن يفعل أكثر من ذلك بكثير.

لقد قلت آنفاً إن الفقر في الشرق، في شكله الحالي، ليس موغلاً في القدم؛ ولا حتى استهتار الطبقات الشرقية الحاكمة. فقبل تأثير الغربنة منذ أواخر القرن الثامن عشر فصاعداً، كانت التركيبة الجمعية للمجتمع الإسلامي التقليدي ـ على الرغم من أنها قديمة للغاية ـ لا تزال قائمة، وكان النظام المعقد للالتزامات الاجتماعية والأخلاقية المرافقة له لا تزال فاعلة. ثم تحطم الترتيب القديم، ليس من قبل الإمبرياليين الوضعاء، بل من قبل المصلحين المحليين ـ وهم الرجال التابعون لمحمد الثاني في تركيا ومحمد علي في مصر ـ الذين دمروا أكثر مما بنوا. ولم تحل صلات جديدة محل الصلات القديمة. هذا هو سبب الفوضوية الاجتماعية والسياسية التي فاجأت العديد من دارسي

المجتمعات الإسلامية الحديثة، ألا وهو غياب كل ولاء سوى الولاء الشخصي البحت والولاء للعائلة ـ بما أن العائلة هي الوحدة الاجتماعية الوحيدة الباقية ذات واقعية ومعنى. وهنا يمكننا القول أن ما نعتبره إثم المحسوبية هو، بالنسبة للذين يطبقونه، فضيلة الولاء للعائلة، أي الشكل الملموس الوحيد للولاء الباقي. وقد ترك زوال القيم الاجتماعية القديمة وانهيار التماسك الاجتماعي القديم فجوة خطيرة فشلت المثل العليا الاجتماعية والمؤسسات الغربية في ملئها.

نقطتي الثالثة هي أن مركز الخطر ليس الفلاحين الجياع المذكورين بكثرة، بل الميكانيكيين الطموحين الذين يشكلون دعائم القضية الشيوعية. فالفلاحون ما زالوا، لدرجة كبيرة، مندمجين في وحداتهم الاجتماعية التقليدية الخاصة، يدعمهم ولاء العائلة وجماعة القرية وتماسكهما. إنهم العمال غير المهرة أو قليلو المهارة الذين يقتلعون من جماعاتهم القبلية والقروية ويحرمون من دعم نظامهم المعتاد للعلاقات الاجتماعية والعون المتبادل، ويوضعون في محيط غريب ومجهول. ففي الخلية الشيوعية، قد يأمل البروليتاري أو الميكانيكي المنقول إلى هذه البيئة الجديدة بأن يجد بعض التعويض عن درعه الاجتماعي الضائع، وأن يلقى بعض التشجيع عبر الطموحات والنقمة التي يكتسبها مع مهاراته الجديدة.

سأنتقل الآن من العوامل العرضية إلى العوامل الأساسية، أي إلى العوامل المنبثقة عن طبيعة المجتمع والتراث والفكر الإسلامي. أولى هذه الأساسيات هي تسلطية، وربما أيضاً استبدادية التراث السياسي

الإسلامي. لقد أصبح من الواضح الآن بأن الدولة الاستبدادية، مهما كان مدى مناهضة عقيدتها المعلنة للشيوعية، تشكّل في الواقع نقطة الانطلاق لنقمة سريعة وسهلة إلى الديكتاتورية الشيوعية. فعلى الرغم من ذلك، نجح السكان الأصليون الديموقراطيون، المعزولون والمتروكون تحت رحمة روسيا في الحفاظ على حريتهم الديموقراطية خلال سنوات طويلة وصعبة. وقد تحولت الأنظمة الفاشية إلى هذا الحد أو ذاك في أوروبا الشرقية والوسطى، بعد إجراء بعض التعديلات البسيطة عليها، إلى دول شيوعية جاهزة للتخلي عن آلية القمع وممارسيه، وأن تقلب الصفحة على إذعانها لهم. فالتجربة السياسية وعادات الإسلام، على الرغم من اختلافها الشديد عن تلك التي في أوروبا الشرقية، تحوي عناصر قد تمهّد، في ظروف معينة، لظهور الشيوعية.

جرى العديد من المحاولات لإثبات أن الإسلام والديموقراطية متساويان ـ وهي محاولات قامت عادة على سوء فهم الإسلام أو الديموقراطية أو كليهما. ويعبّر هذا النوع من الأفكار عن حاجة ما عند المفكر المسلم المقتلع من جذوره الذي لم يعد راضياً أو قادراً على فهم القيم الإسلامية التقليدية والذي يحاول تبرير، أو بالأحرى إعادة صياغة، إيمانه الموروث وفق الأيديولوجيا الرائجة في وقته. إنه مثال على التمثيل الرومنسي والاعتذاري للإسلام الذي يشكل مرحلة معروفة في موقف الفكر الإسلامي من تأثير الغرب

ثمة بالطبع عناصر ـ بل عناصر مهمة ـ في الإسلام، لا سيما في

الفترة الأولى التي قد نكون محقين في اعتبارها ديموقراطية. لكن بشكل عام، التوجه الذي يدعم هذه الفرضية تعادلي أكثر مما هو ديموقراطي، وهو توجه مختلف للغاية يتماشى مع المؤسسات الاستبدادية، على الأقل مثلما يتماشى مع المؤسسات الديموقراطية. في الواقع، كان التاريخ السياسي للإسلام أوتوقراطياً بالكامل، باستثناء الخلافة الأولى حين كانت الفردانية الفوضوية للقبلية العربية ما زالت فاعلة. لقد وصفت هذا التاريخ بالأوتوقراطية، لا بالاستبدادي، لأن الحكم كان مرتبطاً بالقانون الديني (الشريعة) التي تحفظه بدورها. لكنه كان متسلطاً، وظالماً غالباً، وطغيانياً أحياناً. فليس هناك في تاريخ الإسلام أي نوع من البرلمانيين أو المجالس التمثيلية؛ لا لجان أو جمعيات، لا مجلس نبلاء أو عقارات، لا بلديات؛ لا شيء سوى سلطة الحاكم الذي ينبغي أن يرضخ لها الفرد بشكل كامل وحازم بصفتها واجباً دينياً يفرضه القانون الديني. وفي الفترة الذهبية للإسلام الكلاسيكي، كان هذا الولاء واجباً تجاه الخليفة المعيّن قانونياً، كظلّ الله على الأرض ورأس المنظومة اللاهوتية، وذلك خلال فترة حكمه فقط. إنما مع انهيار الخلافة ونمو الديكتاتورية العسكرية، كيّف رجال الدين والقانون تعاليمهم لتتناسب مع الوضع الجديد ووسعوا واجب الطاعة الدينية ليشمل كل سلطة فعالة، مهما كانت درجة عقوقها وبربريتها. وخلال القرون العشرة الماضية، غلب على الفكر السياسي للإسلام المنصرف عن هذه الدنيا، أقوال مأثورة على غرار «الظلم أفضل من الفوضى» و«ينبغي إطاعة الحاكم». ويمكن أن نجد التركيبة الكلاسيكية للطاعة

السياسية الإسلامية في مقطع يقتبس بكثرة عن الفقيه الشامي ابن جماعة الذي أصبح قاضي القضاة في القاهرة وتوفي عام 1333 : «تُفرض الطاعة الإجبارية حين ينتزع قائد ما السلطة بالقوة خلال فترة من الفتنة المدنية. ويصبح من الضروري الاعتراف به من أجل تجنب الوقوع في مزيد من المشاكل. قد لا يملك أياً من مقومات السيادة، وقد يكون أمياً، ظالماً أو شريراً، بل ربما عبداً أو امرأة، إنما لا مشكلة في ذلك. فهو في الواقع حاكم، إلا إذا جاء شخص آخر، أقوى منه، خلعه عن العرش واستأثر بالسلطة. سينال حينها الأخير لقب حاكم، وينبغي الاعتراف به لكي لا تتفاقم الأزمة. فمن يملك السلطة الفعلية له الحق بأن يطاع وبأن يشكل حكومة، لأن أسوأ حكومة أفضل من الفوضى. فإذا خيّرت بين شرّين اختر أهون الشرّين».

ليست هذه الكلمات، كما هو واضح، صادرة عن متملق أو مادح يحاول أن ينال رضا النظام الأوتوقراطي؛ بل هي كلمات مؤمن تقي ورع، يعبر بوضوح وبحزن عن حقيقة مرّة كما يراها هو. وينبغي التذكير هنا بأن الكاتب عالم كبر في الشريعة ويتكلم استناداً إلى هذه الشريعة. فحين يفرض الاعتراف بالحاكم وطاعته، إنما يربط واجب المؤمن بالشريعة - أي يصوغ قاعدة إذا اخترقت فهي، بحسب مصطلحاتنا، خطيئة وجريمة في آن واحد، عقوبتها النار بالإضافة إلى عقوبة دنيوية يحددها الحاكم. يقول ابن جماعة «حتى عبد أو امرأة»، فلا يوجد سوى أمر واحد أسوأ - ألا وهو الحاكم الكافر. وقد بُلغت هذه المرحلة ايضاً حين اعتبر قاض مسلم من مزارا، بعد غزو النورمان صقلية من قبل

المسلمين، أنه ينبغي تقبّل الحاكم وإطاعته حتى لو كان مسيحياً، بشرط أن يحترم شعائر المسلمين ومعتقداتهم. لن يتفاجأ مجتمع ترعرع على هذه المعتقدات بتجاهل الشيوعية للحرية السياسية أو حقوق الإنسان؛ بل قد ينجذب إلى نظام مماثل، يتصرّف بقوة وفاعلية وهمجية في خدمة قضية نبيلة ـ ولو ظاهرياً فقط ـ بدل العجز والفساد والريبة التي يعتقد، بل واختبر أيضاً، أنها جزء لا يتجزأ من الحكومة البرلمانية.

بالإضافة إلى ذلك، ليست العقيدة الشيوعية التي تعتبر أن على الدولة إدارة الحياة الاقتصادية غريبة عن المسلم كما قد يعتقد البعض؛ بل هو معتاد على التطلع إلى الدولة لتوجيهه والتحكم ببعض الجوانب الأساسية في الحياة الاقتصادية. وقد طوّر النظام الاجتماعي الإسلامي الكلاسيكي في العراق ومصر وبالتوافق مع النمط القديم للمجتمع المجاور للأنهار والوديان river-valley society. ففي هذه الأراضي، حيث نادراً ما تمطر، كانت الزراعة مزدهرة بفضل الري الاصطناعي من مياه النهر. وتطلب هذا الأمر أعداداً هائلة من المهندسين والموظفين الذين استخدمتهم وأشرفت عليهم السلطات المركزية. وكانت مهمة الأخيرة الحفاظ على نظام الخنادق والسدود والقنوات وغيرها من متطلبات الري التي يمكن بفضلها وحدها الحفاظ على الحياة الاقتصادية في البلاد. من أجل نظام مماثل، كان من الضروري جداً أن تتواجد سلطة مركزية قوية؛ إذ ليس على المرء أن يبحث بعيداً ليجد أمثلة عن الإفلاس والإفقار اللذين رافقا انهيار السلطة المركزية في زمن الضعف السياسي وإهمال الري. ففي دول أنعم عليها الله بنعمة المطر، يستطيع

المزارع أن يتطلّع إلى الله للحصول على الماء والحفاظ على بعض الاستقلالية في مجالات أخرى. أما في المجتمعات المحاذية للأنهار والوديان، فعلى المرء أن يتّكل على السلطة المركزية لتحافظ على النظام وتؤمن المياه، وهو يعلم تماماً بأنه تحت رحمتها. وفي مجتمعات مماثلة نجد الترتيب الاجتماعي الذي دعاه ويتفوغل Wittfogel بـ «المجتمع الهيدروليكي»، حيث تقدّر قوة النظام والطبقة الحاكمة وفق كمية المياه المتوفرة للري. ويتمتع هذا المجتمع بخصائص معروفة تماماً وهي: مزارع مطيع لا حيلة له، قابع تحت رحمة السلطة المركزية والبيروقراطية، والطبقة الحاكمة المؤلفة من الموظفين ومالكي الأراضي الذين يتحكمون من غير أن يلاقوا أي مقاومة ـ بل ليس من الممكن أن يلاقوا مقاومة ـ بمصادر الحياة الاقتصادية وبالتالي بالقوة السياسية. ويتواجد هذا النوع من المجتمع في مصر والعراق، وفي المجتمعات المحاذية للأنهار والوديان في الهند والصين وروسيا. لن أدعي بأن المجتمع الروسي كان «هيدروليكياً» بهذا المعنى في الماضي؛ إنما ثمة نقاط شديدة التشابه بينهما. وتقوم الأوتوقراطية الإسلامية التقليدية على ثلاث ركائز: البيروقراطية والجيش والتراتبية الدينية. وأذكر هنا الملاحظة المثيرة للاهتمام التي قدمها السيد ألبرت حوراني أخيراً في هذه المجلة؛ إذ قال بأننا نشهد ربما عودة هذا النمط ـ أي الأوتوقراطية الإسلامية ـ من خلال التغيرات التي نشهدها أخيراً في مصر. وفي هذا النمط، لسنا بحاجة إلا إلى تغيير التراتبية الدينية من أجل تمهيد الطريق لظهور الدولة الشيوعية.

ولكن هذه التراتبية مهمة للغاية. فعلماء الإسلام يختلفون للغاية عن الحزب الشيوعي. على الرغم من ذلك، إذا أمعنا النظر، نجد بعض التشابهات المقلقة. فالجماعتان تعلنان إيمانهما بعقيدة ديكتاتورية، مع تقديمهما أجوبة كاملة ونهائية لكل الأسئلة التي تدور في خلد الإنسان حول الدنيا والآخرة. لكن هذه الأجوبة متباينة على جميع الصعد، تتشابه فقط في نهائيتها وشموليتها وفي اختلاف تعاطيها مع التساؤل الأبدي حول الإنسان الغربي. وتؤمّن الجماعتان لأعضائهما وأتباعهما الشعور البهيج بالانتماء إلى مجتمع من المؤمنين المحققين دائماً، في مواجهة عالم خارجي من غير المؤمنين المخطئين على الدوام. وتشعر كلتاهما المنتمين إليهما بأنهما في مهمة هادفة وبأنهم مرتبطون بمغامرة جماعية لتسريع الانتصار المحتم تاريخياً للإيمان الحقيقي على فاعلي الشر الكفار. إن التقسيم الإسلامي التقليدي للعالم إلى دار الإسلام ودار الحرب ـ وهما جماعتان متناقضتان بالضرورة، حيث الجماعة الأولى ملزمة بأن تحارب باستمرار الجماعة الثانية ـ إنما يحمل أيضاً نقاطاً مشتركة، بحسب الرأي الشيوعي، حول القضايا العالمية. فمضمون الاعتقاد مختلف تماماً، إنما التعصب العدواني للمؤمن هو نفسه. وقد وضع الفكاهي الذي اختصر العقيدة الشيوعية بعبارة «لا وجود لله وكارل ماركس نبيّه» اصبعه على تشابه فعلي. فالدعوة إلى جهاد شيوعي، أي حرب دينية للإيمان ـ إيمان جديد، لكن ضد العدو المسيحي الغربي نفسه ـ قد تلقى استجابة سريعة.

لقد أشرت آنفاً إلى الالتزامات الجماعية. وثمة هنا أيضاً احتمال

وجود نقطة التقاء بين الشيوعية والإسلام، وهي الميول الجماعية التي أذهلت العديد من الدارسين. لقد كتب الكثير عن الحركات والفرق الدينية الشيوعية العديدة التي تشكلت تقريباً منذ بداية الإسلام. سأقتبس من تقرير عربي شبه معاصر يصف نشاطات مندوب في إحدى هذه الفرق في العراق، في جوار الكوفة، حوالي أواسط القرن التاسع. هذا المندوب، كما قيل لنا، بعدما حوّل سكان قريته إلى عقيدته، فرض عليهم ضرائب ورسوماً متزايدة وأخيراً:

«واجب الألفة... وهو يقوم على جمع كل مقتنياتهم في مكان واحد يتمتعون بها جميعاً من غير أن يستأثر أي واحد منهم بملكية خاصة قد تميزه عن الآخرين. أكد لهم أنهم لا يحتاجون إلى أي ملكية لأن كل الأرض ملكهم لا لأي شخص آخر. هذا هو، كما قال لهم، الاختبار الذي نمر فيه لنعرف كيف ستتصرف. حضهم على شراء الأسلحة وتحضيرها، وقد عين التبشيريون في كل قرية رجلاً جديراً بالثقة ليجمع كل ما يملك هؤلاء الناس من خراف ومجوهرات ومؤن، إلخ. كسا العاري وأشبع كل حاجاتهم، فلم يبق فقير بينهم، ولا حتى محتاج أو معوق. قام كل فرد بواجبه بعناية وتجانس من أجل أن يستحق رتبة عالية مكافأة على الخير الذي قام به. أحضرت المرأة ما كسبته بالحياكة، أحضر الطفل ما ناله مقابل إخافة الطيور. لم يعد أحد منهم يملك أي شيء سوى سيفه وأسلحته».

هذا بالطبع وصف تضخيمي لإجراءات هذه الجماعات، ولكنه ليس غير نموذجي. وليست هذه سوى واحدة من الحركات العديدة التي

سجلت في تاريخ الإسلام وفي بلاد فارس قبل ظهور الإسلام بكثير. كلها فشلت وأدينت كما يجب من قبل الأرثوذوكس باعتبارها هرطقة، ولكنها كشفت عن الميل المتكرر عند الإسلام لتشكيل مثل هذه الأفكار والجماعات، كما ساعدت في تفسير العلاقات الخفية التي تربط من وقت إلى آخر بين بعض المنظمات الإسلامية المتطرفة والشيوعية. وقد ظهرت هذه الميول الدينية الشيوعية في مثل هذه المنظمات تحديداً، أي في الأخويات الشهيرة، شبه السرية والغامضة، ذات الأرثوذوكسية المشبوهة والتي لا يثق بها العلماء العاديون. وليست هذه الجماعية محصورة بما قد نطلق عليه اسم «المستوى الدوني الشعبي للإسلام»؛ إذ نجدها أيضاً في نواحٍ عديدة من الحياة الأرثوذوكسية الإسلامية وفكرها، وفي موقف المجتمع والدولة الذي ذكرته آنفاً، وحتى في الأدب. ولا يُقدّم الكتاب العربي الكلاسيكي غالباً كإبداع فردي وشخصي من الكاتب، بل كصلة وصل في سلسلة التراث. فالكاتب يمحو شخصيته خلف هيبة السلطة ورتب الكتاب السابقين؛ إذ تتصف أهم مؤلفات الأدب العربي بالموضوعية والروح الجماعية مثل كاتدرائية من القرون الوسطى. وتبرز هذه الجماعية بوضوح في الفكرة المسلمة عن الإنسان المثالي والدولة المثالية، مع التطبيق الخارجي للأنماط الراسخة، حيث ينبغي للجميع نظرياً أن يمتثلوا بهذه الأنماط من خلال التقليد لا عبر تطوير إمكاناتهم الداخلية، كما هي الحال في المثال الغربي.

قد يعترض البعض قائلين بأن الأمر نفسه ينطبق على أي ديانة أخرى غير الإسلام، معتبرين أن الشيوعية ديانة بحد ذاتها. وأنا أقر بأن بعض

المقارنات التي أجريتها، وليس كلها، تنطبق أيضاً على ديانات أخرى؛ بل أضيف أنه لو حافظت هذه الأديان على سلطتها التأسيسية والتقريرية أمام أتباعها مثلما يفعل الإسلام حتى اليوم، فقد تنطوي هذه الملاحظة على شيء من الحقيقة. ولكن لا أستطيع أن أعتبر الشيوعية ديانة، ولا شيء، وبرأيي، يصوّر بشكل أكثر وضوحاً دولة الديانة المتداعية في عالمنا الغربي، إلا عبر إقامة مثل هذه المقارنة. في الواقع، تسترعي التشابهات الانتباه منذ النظرة الأولى. ففي الشيوعية، كما في معظم الديانات، نجد طقوساً وتراتبية، وحياً ونبوة، كتاباً مقدساً وتأويلاً، أرثوذكسية وهرطقة، عزلاً واضطهاداً. كما أن بعض أهم القوى الروحية للإيمان الديني تقوي الشيوعي المؤمن بحق. فعلى الرغم من ماديته المعلنة، إلا أن لديه أهدافاً تتخطى مصالحه الشخصية وحياته الخاصة. فهو مفعم بحماسة إنجيلية وإيمان تخليصي. هذه هي الصفات التي أعطت الشيوعية قوتها المميزة أي البصمة العميقة التي تركتها في العديد من الدول الشرقية. إن الفاشية والنازية، بدعوتهما الصريحة إلى الشجع والكراهية والتباهي والحسد، يمكنهما على المدى الطويل التوجه فقط إلى الغرائز الشريرة في الإنسان، وهما تتشابهان في محدوديتهما. أما الشيوعية، فباستغلالها الفاشية والنازية إلى أقصى الحدود، حرفت لمصلحتها بعض أنبل غايات الجنس البشري ـ مثل السلام والعدالة الاجتماعية والأخوة بين البشر ـ واستغلتها استغلالاً قاتلاً. وسنفشل في إدراك الخطر الشيوعي ومواجهته إذا لم نعترف باستقطابه لأفضل، ولكن ليس لألمع، وكذلك أسوأ النفوس. وبالتالي،

فللشيوعية العديد من الصفات المشتركة مع الديانة، ولكن يبدو أن الاختلافات هي الغالبة. أود أن أقتبس مقطعاً من الكاتب الدانمركي فيلهلم غرونبيه Vilhelm Gronbech الذي قال: «المشكلة هي أننا نخلط بين التدين والديانة. فلأن الناس متدينون بطريقتهم الخاصة، فهم لا يستطيعون تصور ديانة تشكل روح المجتمع ونظير ما هو عملي. ديانة واقعية وفعلية، تمثل العلاقة العملية بين البشر والله، بين الروح والأبدية. وهي ديانة تتجلى في العبادة والأعمال كقوة تبعث الحياة في السياسة والاقتصاد، في الحرف والتجارة، في الأخلاقيات كما في القانون. بهذا المعنى، ليس للدولة الحديثة ديانة».

بهذا المعنى، يمكن المرء أن يضيف أيضاً، ليست الشيوعية ديانة ولا يمكن أن تصبح واحدة، فيما الإسلام، بالنسبة إلى أعداد المؤمنين الهائلة، ما زال ديانة. هذا هو جوهر المقاومة الإسلامية للأفكار الشيوعية. على الرغم من أن إيمان المسلمين بالحرية ضعيف جداً إلى درجة عدم قدرته على مساندتهم، إلا أن إيمانهم بالله قوي بما فيه الكفاية. فالشعوب المسلمة ما زالت دينية بكل ما للكلمة من معنى. فالإسلام كديانة لا يناهض الشيوعية أكثر من مناهضة المسيحية لها؛ بل إنه في الواقع، كما أشرت سابقاً، يناهضها بدرجة أقل. ولكنه أكثر فاعلية بصفته قوة تؤثر على حياة وأفكار أتباعها. فالمسلمون الأتقياء ـ ومعظم المسلمون أتقياء ـ لن يقبلوا بعد اليوم بعقيدة ملحدة، ولا بعقيدة تنتهك مبادئهم الأخلاقية الدينية التقليدية التي غالباً ما يهملها المراقبون الغربيون لأنها لا تتلاءم مع عقائدنا. فالثورة الحالية للمسلمين ضد فساد

وانتهازية بعض قادتهم وبعض القادة الغربيين هي غالباً لمصلحة الشيوعيين، مع ادعائهم التفاني الغيري لمثال أعلى؛ إنما سيكون ضد الشيوعيين حين يتوصل المسلمون إلى رؤية الحقائق القابعة خلف الدعاية. لنأمل ألا يتأخروا بالتوصل إلى هذه الحقائق.

في كل الأحوال، ليس بيدنا حيلة إزاء هذا الأمر. فسلوكنا العام والسياسي هو بلا شك أفضل من سلوك الشيوعيين، إنما الفرق ليس واسعاً أو ظاهراً بشكل كافٍ ليترك أي انطباع ملحوظ على باقي العالم. فالناس الذين يمثلون الديموقراطية الغربية في تعاملها مع الإسلام هم بالطبع أناس جديرون بالاحترام والتقدير، يقومون بعمل مهم وقيم؛ إنما بصفتهم مروّجين للتجدد الأخلاقي والديني، من المستبعد أن يجمعوا المؤيدين. نحن، الغربيون، نستطيع القيام بالكثير للترويج للخير المادي ورفع المعايير المادية لأراضي الإسلام. ويمكننا ربما القيام بأمر ما لتشجيع ـ أي تبرير ـ موقف أكثر إيجابية من أنفسنا وأفكارنا وآمالنا. ولكن في خضم الأزمة الحالية، على الإسلام أن يجد في داخله القوة الفكرية والموارد الروحية ليقاوم الهرطقة الدنيوية الكبرى في عصرنا هذا؛ إذ يمكننا أن نفعل أكثر من مجرد الامتناع عن وضع العقبات.

«أزمة الإسلام»

في كتابه «أزمة الإسلام»[1]، يحاول لويس منذ المقدمة أن يلخص

(1) قراءة في الكتاب لسمير الزين، المستقبل، 27/3/2006.

«أزمة الإسلام» معتبراً أن الخلافة الإسلامية التي تعرضت للكثير من التقلبات طوال التاريخ الإسلامي، ظلت رمزاً قوياً للوحدة الإسلامية والهوية الإسلامية، وقد كان لاختفائها، بفعل الهجوم المزدوج من الإمبرياليين الأجانب والحداثيين والمحليين صدى واسعاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وهذه النظرية التعميمية للعالم الإسلامي ككل واحد متجانس هي التي تسود طوال الكتاب، فهناك شيء جوهري موحد في المسلمين، تجعل لهم نظرتهم الخاصة حتى للتنظيم الإنساني، فالوحدة الأساسية لهذا التنظيم في العالم الغربي هي الأمة التي تكاد تكون متطابقة مع البلد نفسه، ثم تأتي تقسيمات فرعية بأشكال مختلفة يتم أحدها بحسب الدين. أما المسلمون، حسب لويس، فإنهم لا ينظرون إلى الأمر على أساس وجود أمة تنقسم إلى مجموعات دينية فرعية، ولكن على أساس وجود دين واحد ينقسم إلى أقسام فرعية تمثلها الأمم.

وفي تعريفه للإسلام يعترف لويس أن الكلمة تستخدم عادة بمعنيين متميزين وإن كانا مرتبطين، فهي تستخدم باعتبارها مقابلاً للمسيحية من جهة وللعالم المسيحي من جهة أخرى.

وهي في أحد المعنيين تدل على الدين، وهو نظام للعقيدة والعبادة. وتدل في الآخر على الحضارة التي نشأت وازدهرت في ظل هذا الدين. وفي العالم الإسلامي لا معنى على الإطلاق للحديث عن كيان علماني. ففكرة وجود شيء منفصل، أو قابل للانفصال عن السلطة الدينية وما يعبر عنه في اللغات المسيحية بمصطلح «الزمني» أو «الدينوي» أو

«العلماني» فكرة غريبة عن الفكر الإسلامي وممارساته. فحتى العصور الحديثة نسبياً لم يكن يوجد في اللغة العربية مقابل لهذه المصطلحات. ويعتبر لويس أن معظم البلدان الإسلامية لا تزال متمسكة بإسلامها تمسكاً عميقاً على نحو تخلت عنه معظم البلدان المسيحية، ويفسر التمسك بالعقيدة الدينية وممارستها بين المسلمين الموقف الإسلامي الفريد من السياسة، فالإسلام ليس فقط عقيدة وممارسة. بل إنه أيضاً هوية وولاء يتجاوزان بالنسبة للكثيرين أية هوية وأي ولاء آخر. هذه النظرة إلى الإسلام والمسلمين كجوهر واحد موحد، هي التي تدفع لويس لطرح المقاربة بطريقة المقارنة بين عالمين لا يمكن إلا أن يتصادما. ولذلك يعتبر أن السؤال الأساسي الذي يشغل صانعي السياسة في الغرب في الوقت الحاضر يمكن صياغته ببساطة على النحو التالي: هل يعتبر الإسلام، سواء كان أصولياً أو غير ذلك تهديداً للغرب؟ إن طرح السؤال بهذه الصيغة يجعل الدين الإسلامي لاعباً دولياً، هو شيء غريب عن العلاقات الدولية، فلا يمكن أن تطرح الأسئلة بهذه الطريقة على امتداد جغرافي هائل يحوي عشرات البلدان ومليار وثلث مسلم، إلا انطلاقاً من اعتبار هذا الامتداد الهائل هو امتداد منسجم وموحد، وهي نظرة تسطيحية للعالم الإسلامي الذي شهدت دوله حروباً طاحنة في ما بينها.

يعتبر لويس أن معظم المسلمين ليسوا من الأصوليين، كما أن معظم الأصوليين ليسوا إرهابيين، لكن معظم الإرهابيين في عصرنا مسلمون ويفخرون بتحديد هويتهم على هذا النحو.

ويرد على التساؤل لماذا لا يُقال عن الإرهاب الإيرلندي بأنه مسيحي في وسائل الإعلام كما يقال عن الإرهاب الإسلامي، يقول لويس إن الجواب بسيط وبديهي، إنهم لا يصفون أنفسهم كمسيحيين. وإذا كان لويس يُرجع الإرهاب والتطرف إلى طائفة الحشاشين في التراث الإسلامي، فإن الفرق حسب ما يقول إن طائفة الحشاشين كانت في العصور الوسطى طائفة متطرفة بعيدة كل البعد عن الاتجاه الإسلامي العام. والأمر ليس كذلك بالنسبة لمقلديهم في هذه الأيام.

يقدر لويس في نهاية كتابه، أن الإرهاب الإسلامي سيتصاعد بعد هجمات 11 أيلول، ولن يقتصر على أمريكا. فأوروبا الغربية أصبحت مقراً لطوائف إسلامية كبيرة وسريعة النمو، كما سيصطدم تنظيم القاعدة والجماعات المرتبطة به، إن عاجلاً أو آجلاً، بالجيران الآخرين للعالم الإسلامي، روسيا والصين والهند، الذين قد يكونون أقل اندفاعاً من الأمريكيين في استخدام قوتهم ضد المسلمين ومقدساتهم. فإذا كانت حسابات الأصوليين دقيقة ونجحوا في حربهم فإن مستقبلاً مظلماً ينتظر العالم ولا سيما في أنحائه التي تدين بالإسلام.

هذه النبوءة التي يختم بها لويس كتابه تعتبر تنظيم القاعدة الممثل الكلي للعالم الإسلامي، ويعيد ما بناه في مطلع كتابه من الصدام الثنائي بين الإسلام والغرب، ليصل إلى نهايته بحرب الإسلام ضد العالم أجمع ولا سيما في أنحائه التي تدين بالإسلام.

هذه النبوءة التي يختم بها لويس كتابه تعتبر القاعدة الممثل الكلي للعالم الإسلامي، ويعيد ما بناه في مطلع كتابه من الصدام الثنائي بين

الإسلام والغرب، ليصل إلى نهايته بحرب الإسلام ضد العالم أجمع وليس ضد الغرب وحده.

وبعد، فمن السطور السابقة يتبين لنا الدور المحوري الذي لعبه لويس في ترسيخ ـ أو تحويل ـ السياسة الخارجية لأمريكا من النهج الديبلوماسي أو «الاستعطافي» على حد تعبيره، إلى نهج عدواني غليظ ومتعجرف. وفي تبرير سياسة ازدواج المعايير التي تمادى فيها بوش ومعاونوه بعد ذلك. وفي إقناع إدارة بوش والرأي العام الأمريكي بأن سبب كراهية العرب لأمريكا ليس موقفها المساند ظلماً لإسرائيل، وإنما هو شعور المسلمين بالحقد على الحضارة الغربية، (ممثلة الآن في أمريكا) لأنها هزمتهم وأشعرتهم بالمهانة بعد أن كانوا سادة العالم، مشعلاً بذلك صراع الحضارات. ومحولاً بذلك عداء أمريكا وغيرها، من بن لادن والمتطرفين، إلى عداء شامل للعرب.

الفهرس

الكتاب 5

فبركة الصورة النمطية 7

تاريخ الاستشراق الذي لم يكن يوماً إلا في المخيلة 9

أوروبا بين الانفتاح وهاجس القلق من الإسلام 21

الإعلام الغربي وفرصة المناظرة بين مسلمي مجتمعاته 23

مقارنة بين معاملة اليهود البريطانيين وبين العنصرية على المسلمين ... 27

رهاب الإسلام الجديد 29

مسؤولية الصحفيين والمثقفين 30

خبراء الخوف الجدد 32

إسلام معتدل... ومتطرف 32

كسر القواعد الذهبية 42

الصحافة كديانة علمانية! 46
المطابقات.. والاقتباسات 49
صورتنا في الغرب... مسؤولية من؟ 53
الصورة تتغير والصيحات تتوالى 54
محاولة للتفسير 56
العرب من منظور غربي: ألم الفشل وأمل الإصلاح 59
الفشل العربي 60
سنوات الليبرالية ورد الفعل 61
المراوحة الاقتصادية 62
البحث عن استجابة 63
العرب.. وفجوة العقل الإعلامي 66
الأداء الإعلامي 70
هل الرأي العام العربي خرافة؟ 72
انفجار الشارع 79

الرسوم المسيئة 81
بؤس المضمون 90
خارج الحدود 91
التوظيف السياسي 93
شروخ عميقة 94
لماذا ثار الرأي العام الإسلامي على الكرتون؟ 96
توابع الواقعة الدانماركية 101
رأي «الإيكونوميست» 119
حوار مع رسّام الكاريكاتورات المسيئة 124
حق الانتقاد 125
عن الإسلام 127
ما الذي تغيّر؟ 128
آراء حول الحدث والتداعيات 130
1 ـ شيتل كولسرود 130

2 ـ على الائمة أن يكنسوا أمام بيوتهم 131
آني ليف غامليم 131
3 ـ حرية التعبير معكوسة 133
أريك ساغفلات 133
4 ـ كاريكاتور حرية التعبير 134
بيتر نورمان ووغه 134
5 ـ أبناء إبراهيم 136
توربيورن ياغلاند 136
6 ـ عن التسامح 139
لارس غوله 139
العين الأمريكية 143
المسلمون الأمريكيون 145
مفاهيم خاطئة 152
تحليلات غير مقنعة 155

الإسلام في حرب الولايات المتحدة على الإرهاب 156

أجهزة الإعلام الغربية وموضوع الإرهاب 162

• دور الإعلام في التفريق بين الكفاح الوطني والإرهاب 172

دور الإعلام في التفريق بين المقاومة والجهاد من جهة والإرهاب

من جهة أخرى 185

الإعلام ودوره في «الإسلاموفوبيا» 187

نظرة نيكسون 188

وفي المدارس! 189

سيناريوهات 190

هنتنغتون 192

• مقاومة الإسلاموفوبيا 196

• بين صورة الإرهابي أميركياً والضحية عربياً 211

الأمية وعصر الفضاء 214

زلزال أيلول / سبتمبر 218

الإعلام الأمريكي 223
الجدار وثغراته 235
جون إيسبوزيتو: الحرب غير المقدسة الإرهاب باسم الإسلام 237
لماذا صار بن لادن زعيماً للقاعدة؟ 240
تشكيل وعي الجمهور الأمريكي 244
التوجهات السياسية والثقافية 246
اللوبي الأجنبي 250
حملة إعلانية في أمريكا تصور السائقين العرب «إرهابيين» 253
العين الصهيونية 261
تطور صورة العربي في الأدب والتعليم الإسرائيلي 263
قولبة الدعاية الصهيونية للشخصية العربية 275
التاريخ الأعمى 283
برنارد لويس 285
معركته مع إدوارد سعيد 287

برنارد لويس الباحث دائماً عن مبرر لمحاربة الإسلام 289

«أزمة الإسلام» 308

صدر من السلسلة :

- صحافة المرتزقة
  الصحافة الاستقصائية
  فضيحة بين السطور
  سقط سهوا
- المراسل وفضائح الميدان
  الصحافة الصفراء
- الاعلام الجنسي
- الحذاء كوسيلة إعلام
  الكتب الفضائحية
- الإعلام التضليلي

ISBN 978-9953-76-330-9

ON OFF